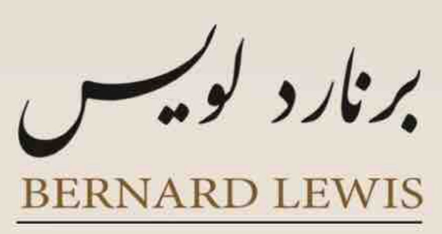


برنارد لويس
BERNARD LEWIS

ترجمة: حازم مالك محسن



أزمة الإسلام

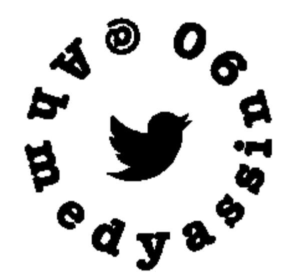
الحرب الأقدس والإرهاب المدنس

رؤية المحافظين الجدد
واليمين الأميركي للإسلام المعاصر

@Ahmedyassin90
تصوير
أحمد ياسين

MESOPOTAMIA

THE CRISIS OF ISLAM



أزمة الإسلام

الحرب الأقدس والإرهاب المدنّس

تصوير
احمد ياسين

الكتاب:

أزمة الإسلام

الحرب الأقدس والإرهاب المدنس

تأليف برنارد لويس

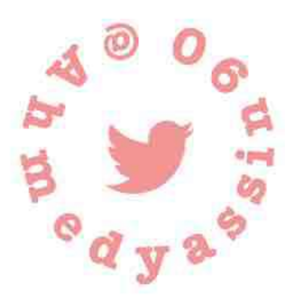
ترجمة حازم مالك محسن

الطبعة الأولى 2013

عدد النسخ 1000 عدد الصفحات 180

الإخراج الفني والتصميم دار صفحات

الترقيم الدولي ISBN: 978-9933-495-12-1



لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

تصوير

أحمد ياسين



صفحات للدراسات والنشر

سورية ـ دمشق ـ ص.ب 3397

هـاتـف: 095 13 22 11 00963

تلفاكس: 013 33 22 11 00963

جـوال: 81 81 41 933 00963

الإمارات العربية المتحدة - دبي - ص.ب: 231422

موبيل 942 442 528 00971

www.darsafahat.com - info@darsafahat.com

الإشراف العام: يزن يعقوب



دار ومكتبة عدنان

طبع – نشر – توزيع

بغداد – شارع المتنبي - بناية المكتبة البغدادية

079017853386 - 07707900655

07901312029 - 07813515055

Email: yaserbook@yahoo.com



دار ميزوبوتاميا

للطباعة والنشر والتوزيع

بغداد - شارع المتنبي

موبايل: 07905139941

Mazin24@ymail.com

mazinboox@yahoo.com

mazin774@gmail.com

تأليف

برنارد لويس

أزمة الإسلام

الحرب الأقدس والإرهاب المدنّس

رؤية المحافظين الجُدد واليمين الأميركي للإسلام المعاصر

ترجمة

حازم مالك محسن

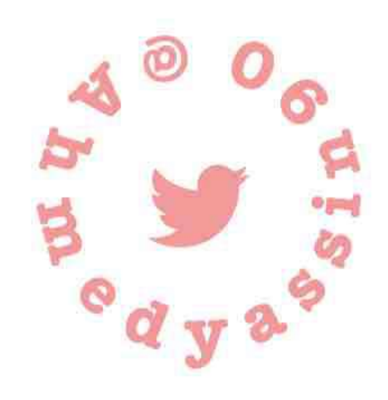
تصوير
أحمد ياسين







بغداد 2012



تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

المحتويات

تصوير أحمد ياسين

إهداء المترجم

إلى كل الباحثين عن الحقيقة

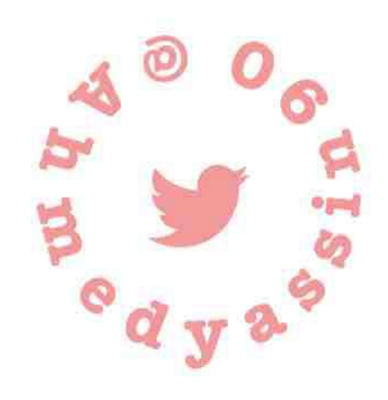
والذين قضوا في سبيلها

وبذلوا مُهجهم رخيصة التماساً لها

قبس من نور لكل ذي بصيرة



تصوير
أحمد ياسين



تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

مقدمة المترجم

لم يكن يوم الحادي عشر من أيلول 2001 يوماً كسائر أيام التقويم الأخرى. فقد كان - بما حمله من أحداث - حدّاً فاصلاً بين حقبتين تاريخيتين مختلفتين تمام الاختلاف، على المستوى الظاهري، في أقلّ تقدير. فقد أعقبت هذا التاريخ جملة من المتغيرات السياسية والإعلامية والعسكرية والفكرية، وسمت بِمَيْسَمها القرن الحادي والعشرين، وجيّرتْه - وربما قرون أخرى بعده - لمصلحة القُوّة الدولية الأولى وحدها دون مشاركة سواها، الولايات المتحدة الأميركية.

وكان من جملة هذه المتغيّرات المهمة التي أعقبت أحداث أيلول 2001، وفي المقدمة منها، انقسام جديد، ولو نسبياً، ظهر على الساحة الدولية وشعوب الأرض وأممها بين مَن يرى في أحداث أيلول عقوبة إلهية أو طبيعية على عدوانية الولايات المتحدة الأميركية، وما صارت إليه سياساتها، لاسيّما بعد انهيار المعسكر الشرقي بكامله، وانتهاء حقبة الحرب الباردة بين المعسكرين الرأسمالي، بقيادة الولايات المتحدة الأميركية، ومن ورائها الغرب الرأسمالي كله، والشيوعي الشرقي بقيادة الاتحاد السوفيتي، ومن ورائه دول أوروبا الشرقية. فيما وجد آخرون في أحداث أيلول 2001 عملاً إرهابياً مميّزاً، خطّطت له، وقادتْه، ونفّذتْه مجموعات دينية إسلامية مُتطرّفة، استهدف الأبرياء من المواطنين الأميركان من دون أي مسوّغ قانوني أو شرعي أو أخلاقي، وبالتالي؛ فإن هذه المجموعات الدينية الإسلامية المُتطرّفة، تستحقّ كل ألوان العقاب الذي للولايات المتحدة الأميركية أن

تُنزله، بهم، وبكل مسلم أو عربي أو حتّى شرق أوسطي، بصفتهم المجموعات الداعمة للإرهاب. وثمة فئة ثالثة، لم تنحزْ لأيّ من الفريقين، وآثرت التزام الصمت إزاء ما يحدث مترقّبةً ما تأتي به الأيام.

كان الاتجاه الأول أكثر شيوعاً على المستويين العربي والإسلامي. وقد تكون أسباب شيوع هذا التيار بين العرب والمسلمين نابعة ممّا تعرّض له هؤلاء من ويلات على يدي الغرب المسيحي ممثلاً - في المرحلة الحالية - بالولايات المتحدة الأميركية، بدءاً من مرحلة الاستعمار الغربي الحديث لأقطار الوطن العربي، والتغلغل الإقتصادي عبر الشركات متعدّدة الجنسيات، ونهب ثروات شعوب هذه المنطقة، وفي مقدمتها، عصب الحياة الحديثة: النفط، إلى جعل المنطقة سوقاً رائجة للصناعات الغربية والأميركية، وما رافق ذلك من استغلال وحيف اقتصادي، ترك بصمات واضحة على خارطة المنطقة السياسية والديموغرافية.

على أن العالمين العربي والإسلامي - ولا سيّما منطقة الشرق الأوسط - لم تعدم نفراً، رأى في أحداث أيلول وتأجيج الصراع العربي الإسلامي، من جهة، والغرب الأميركي، من جهة أخرى أمراً في غاية الخطورة، في المرحلة الراهنة نظراً للبون الشاسع بين مستويي الطرفين الحضاري والعسكري، واختلالهما اختلالاً كبيراً لصالح الغرب. ثم إن حل المشكلات وتسوية الحسابات مع الغرب بزعامة الولايات المتحدة لا يمكن - أبداً - أن يجري من خلال عملية انتحارية، كالتي حدثت في أيلول 2001، ولا حتّى العشرات، أو المئات منها. كما أن تصفية الحساب التاريخي بين الفريقين، لايجوز أن تجري على هذا النحو، مهما كانت الأسباب. ورأى أنصار هذا التوجّه أن أميركا والغرب، وإن كانا مسؤولَين عمّا حدث، ومازال يحدث في المنطقة، فإنهما ليسا المسؤولين الوحيدين، بل وليسا المسؤولين الأساسيين عن ذلك. المسؤول الحقيقي عمّا آلت إليه أوضاع العرب والمسلمين هم العرب والمسلمون أنفسهم؛ لأنهم لم ينهضوا بما تفرضه عليهم أوضاع المنطقة من مسؤولية. وكان الأجدر بالطرف الذي خطّط لأحداث أيلول أن يقف وقفة صادقة مع نفسه؛ ليحاسبها عن تقصيرها، وليتلافى مواطن الخلل في مسيرته، ويبادر

إلى الإمساك بزمام مسؤولياته التاريخية عن أوضاعه، لا أن يُلقي باللائمة، كل اللائمة، على "الشيطان الأكبر".

من جهة أخرى، تباينت الآراء فيمَن أقدم على التخطيط لأحداث 11 أيلول، وتنفيذها تبايناً شديداً، فثمة مَن يرى أن الأصوليين الإسلاميين هم الذين أقدموا على هذا، فيما يذهب فريق ثانٍ إلى أن الولايات المتحدة الأميركية هي التي افتعلت هذا الأمر بعد أن خطّطت له منذ أواخر الثمانينيات حتّى يوم تنفيذه، تمهيداً لغزو المنطقة، وإعادة رسم خارطتها السياسية، بالصورة التي تُشرذم شعوبها، وتقسم دويلاتها إلى كيانات سياسية أصغر ممّا هي عليه حالياً، وفرض التبعية إلى الولايات المتحدة عليها. ولكل من الفريقين حججه وبراهينه. ولعل الأحداث التي شهدتْها المنطقة بدءاً من الغزو الأميركي العسكري لأفغانستان والعراق، وما أعقبه من تغييرات دراماتيكية، طالت الأنظمة العربية في تونس ومصر واليمن، وما شهدتْه الجزائر والبحرين وسوريا والسودان لا تعدو أن تكون صفحات من مسلسل أشمل وأكثر عمومية.

بيد أن هذه المتغيّرات ما كان لها أن تحصل، لو لم تكن بذورها موجودة - أصلاً - في المنطقة، ولم يَعْدُ الدور الأميركي أن يكون دور الكاشف عمّا انطوت عليه رغائب الناس وشحنها وتغذيتها، وربما قيادتها بالاتجاه الذي ترغب فيه. فالعربي لايكاد يميّز بين النظام الملكي والنظام الجمهوري، من حيث إن سياسات النظامين تتماثلان إلى حدّ كبير. خذْ - مثلاً - مدة تولي الحكم، فأيّ نظام جمهوري - باستثناء أنظمتنا العربية الجمهورية - تتيح لحاكم واحد تولي الحكم بنفسه لمدة تزيد على الأربعين عاماً، وحين يتململ الشعب، ويثور، لايجد من حاكمه إلاّ موقف المتمسك بزمام الحكم حتّى النهاية. وهل رأينا حاكماً عربياً جمهورياً يتنازل عن الحكم عند نهاية مدة حكمه؟ وهل كانت سياسات الأنظمة العربية الجمهورية الاجتماعية التعليمية والصحية - مثلاً - أفضل من سياسات الشيخ زايد في هذه الميادين مثلاً؟

غير أن هذه الأمور أمور ومواقف تخصّ الشعوب المعنية أولاً وأخيراً، ولا تبيح أو تُسوّغ للولايات المتحدة أو لسواها من قوى العالم العظمى التدخّل فيها. أ لَم تَدِن الولايات

المتحدة التدخّلَ السوفياتي في أفغانستان؟! أَ لَم تستنكر أميركا - إبان فترة الحرب الباردة- تدخّل الاتحاد السوفياتي السابق في شؤون دول الكتلة الشرقية؟!

هذه الأسئلة - وسواها كثير - تسعى الولايات المتحدة الأميركية إلى تبريرها تحت ستار تزعّمها المناداة بحقوق الإنسان ونشر الديمقراطية في العالم. يتبع هذا سؤال مهم، فمَن الذي فوّض الولايات المتحدة صاحبة التاريخ الدموي في فيتنام وأول مَن استعمل السلاح الذري في هيروشيما وناكازاكي صلاحية رفع لواء الديمقراطية في العالم؟! وتحت أيّ بند من بنود القانون الدولي العام، تبرّر تدخّلها العسكري السافر وغزوها العراق؟! صحيح أن ثمة تخويلاً من الأمم المتحدة بذلك، لكنْ: متى كانت الأمم المتحدة، وأيّ منظمة دولية أخرى، بمنجى عن تأثير دولة المقرّ؟

في أعقاب أحداث الحادي عشر من أيلول مباشرة، انطلقت في الشرق الإسلامي - كما في الغرب المسيحي، لاسيّما في الولايات المتحدة الأميركية - وسائل الإعلام، وخصوصاً الصحافة، بشتى اتجاهاتها، وباختلاف مشارب الكتّاب والمحلّلين السياسيين لتتناول أحداث أيلول بالتحليل والتعليق. وأُلّفت الكتب، وأُجريت الأبحاث في هذا الموضوع. وكان من بين مَن خاض فيه برنارد لويس Bernard Lewis الذي كتب - أولاً - مقالاً في صحيفة النيويوركر The New Yorker في تشرين الثاني 2001، ثم تبعتْه مقالات **صحفية أخرى، لتتحوّل - في النهاية - إلى كتاب صدر تحت عنوان "أزمة الإسلام: الحرب** الأقدس والإرهاب المدنّس: The Crisis of Islam: Holy War and Unholy Terror" عام 2003.

يرى برنارد لويس أن العالم الإسلامي منكفئ على صراع داخلي، بصدد الكيفية الفضلى لمعالجة الأوبئة المنتشرة في العديد من المجتمعات الإسلامية، وحلّها حلاً نهائياً: أوبئة من قبيل الفقر المنتشر انتشاراً مريعاً، والتفاوت الاقتصادي الشاسع، وهيمنة حكّام مستبدّين على السلطة، والعجز عن مجاراة الاقتصادات النامية، ومواكبتها. تضع الأزمة العالم الإسلامي بين حلّين متناقضين، لا ثالث لهما. معارضة مَن هم في دائرة الإسلام ، لكنهم ينادون بالنشر السلمي الدائم للحريات الاقتصادية والسياسية، بصفتهما وسيلتا

حل هذه المشكلات. وأما الحل الثاني؛ فهو الذي تتبنّاه شتّى التيارات الأصولية، لاسيما الوهابية، التي تعزو كل هذه الأمراض والعلل إلى التأثير الحداثي الغربي على العالم الإسلامي، وتعمل على ألاّ تألو جهداً في ردّ كل ما هو غربي. ويشمل هذا الردّ استخدام العنف ضدّ بلدان الغرب، ومصالحها، كما ترى ممارسة العنف، خصوصاً ضدّ الحكّام المسلمين "غير الأتقياء" الذين اعتمدوا طرق الغرب. يسعى الأصوليون إلى تأسيس الدول والمجتمعات، على أساس الشريعة الإسلامية والأخلاقيات التقليدية.

ويحذّر برنارد لويس من أن تقرير نتيجة هذا الصراع بين الموالين للغرب والمناهضين لتأثيراته في العالم الإسلامي ستقرّر ما إذا سيحتلّ العالم الإسلامي مكانَته إلى جانب دول العالم ومجتمعاته، أم سيتراجع إلى الخلف، ويصطدم - حتماً - بالأمم غير المسلمة.

<u>برنارد لويس:</u>

قبل أن نسترسل أكثر، أجد أن من الضروري أن نعرف شيئاً عن برنارد لويس، مَن هو؟ وما تأثير آرائه؟ ماقيمتها؟

وُلد برنارد لويس لأبوَين يهوديّين من الطبقة الوسطى في ستوك نيونغتون في لندن في 31 مايس 1916.

اهتم برنارد باللغات والتاريخ منذ نعومة أظفاره. وتخرّج عام 1936 في كلية الدراسات الشرقية (تُعرف - اليوم - باسم كلية الدراسات الشرقية والإفريقية School of Oriental and African Studies "SOAS") في جامعة لندن، بدرجة بكالوريوس في التاريخ. وكان له اهتمام خاص بتاريخ الشرق الأدنى والأوسط. وحصل على شهادة الدكتوراه من الكلية نفسها بعد ثلاث سنوات متخصّصاً بالتاريخ الإسلامي. كما درس لويس القانونَ، وأوشك أن يصبح محامياً، لكنه عاد، فاستأنف دراسة تاريخ الشرق الأوسط. وسافر إلى باريس؛ ليكمل دراسته العليا في جامعة باريس، وزامل - في دراسته

- المستشرق لويس ماسنغنون Louis Massingnon، ونال شهادة الدبلوم في الدراسات السامية عام 1937. وعاد إلى كلية الدراسات الشرقية والإفريقية؛ ليعمل بصفة محاضر مساعد في التاريخ الإسلامي.

وإبّان الحرب العالمية الثانية، خدم لويس في الجيش البريطاني، في الدروع الملكية والاستخبارات العسكرية عامي 1940 – 1941 قبل تنسيبه إلى وزارة الخارجية. عاد برنارد - بعد نهاية الحرب - إلى كلية الدراسات الشرقية والإفريقية، وفي عام 1949، وقد بلغ الثالثة والثلاثين من العمر، عُيّن في المنصب الجديد في تاريخ الشرق الأدنى والأوسط.

في عام 1974، وقد بلغ لويس 57 عاماً من العمر، قُبل أستاذاً مشاركاً في جامعة برنستن، وفي معهد الدراسات المتقدّمة Institute for Advanced Study الواقع في برنستن - أيضاً - بولاية نيوجرسي. وكان من شروط تعيينه أنْ لا يتولّى لويس التعليم إلاّ لفصل دراسي واحد في السنة، وأن يُفرّغ من المهام الإدارية، وهكذا يكون بوسعه تكريس وقت للبحث أكثر ممّا كان بوسعه أن يكرّسه سابقاً. وبالتالي؛ كان وصول لويس إلى برنستن مؤشّراً على حقبة جديدة في بحوثه، نشر - خلالها - كتباً ومقالات عدّة من المواد المتراكمة لديه من مرحلة سابقة. وعلاوة على ذلك، فقد أصبح لويس شخصية مثقّفة معروفة جماهيرياً في الولايات المتحدة. ولدى تقاعده من برنستن عام 1984، خدم برنارد في جامعة كورنيل Cornell حتّى عام 1990.

اكتسب لويسُ الجنسيةَ الأميركية عام 1982. وتزوّج من رُث هيلين أوبنهايم عام 1947 التي أنجب منها بنتاً وابناً قبل أن ينتهي زواجهما عام 1974.

كان لويس عام 1966 عضواً مؤسّساً لجمعية المتعلّمين، وجمعية دراسات الشرق الأوسط في أميركا الشمالية (MESA)، لكنه انسلّ عنها عام 2007؛ ليؤسّس جمعية دراسات الشرق الأوسط وأفريقيا (ASMEA)؛ ليتحدّى بها (MESA) التي ذكرت النيويورك سن عنها أنها "يسيطر عليها اكاديميون منتقدون لإسرائيل ولدور أميركا في

الشرق الأوسط". أسّست الجمعية بصفتها جمعية مكرّسة للتوصّل إلى أعلى معايير البحث والتعليم في دراسات الشرق الأوسط وأفريقيا والميادين ذات الصلة، فيما يتولّى لويس رئاسة مجلسها العلمي.

وفي عام 1990، اختارت (المنح الوطنية للإنسانيات) لويسَ لمنحه محاضرة جيفرسون، أعلى تكريم من حكومة الولايات المتحدة الاتحادية للإنجازات في حقل الإنسانيات. كان عنوان محاضرته "Western Citizenship: A View from the East: المواطَنة الغربية: وجهة نظر شرقية"، ثم نُقّحت، ونُشرت في "The Atlantic Monthly: الأطلسية الشهرية" تحت عنوان "The Roots of Muslim Rage: جذور الغضب عند المسلمين". أمّا محاضرة ايرفنك كرستول Irving Kristol التي ألقاها عام 2007 في American Enterprise Institute: مؤسّسة المعهد الأميركي؛ فقد نُشرت تحت عنوان Europe and Islam: أوروبا والإسلام.

<u>أبحاث لويس:</u>

يمتدّ تأثير لويس إلى ما وراء العمل الأكاديمي؛ ليبلغ العامّة. فهو باحث رائد في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للشرق الأوسط، ومعروف ببحوثه الشاملة في الأرشيف العثماني. ابتدأ مهامّه البحثية بدراسة عرب القرون الوسطى، لا سيّما تاريخ السوريين. وعُدّت محاضرته الأولى التي كرّست للنقابات المهنية لدى مسلمي القرون الوسطى العمل الأكثر اعتمادية عليه لما يناهز الثلاثين سنة.

إلاّ أنه بعد تأسيس دويلة اسرائيل عام 1948، أصبح المثقّفون من أصول يهودية يواجهون صعوبات جمّة بالقيام بأبحاث ميدانية في البلدان العربية؛ حيث يُشَكّ بأنهم جواسيس.

ولهذا؛ فقد انتقل لويس لدراسة الإمبراطورية العثمانية، فيما يواصل البحث في التاريخ العربي من خلال الأرشيف العثماني الذي فُتح حديثاً أمام الباحثين الغربيين.

وأدت سلسلة الأبحاث التي نشرها لويس على امتداد بضعة سنوات لاحقة إلى تثوير تاريخ الشرق الأوسط عبر تقديمه صورةً واسعةً للمجتمع الإسلامي، تشمل الحكومة والاقتصاد والجَغرافيا السكانية.

يرى لويس أن الشرق الأوسط يتراجع حالياً، وأن نكوصه يعود - بالدرجة الأولى - إلى أسباب ذاتية كامنة فيه، ناشئة عن الثقافة والدين، على نقيض ما يراه ما بعض الاستعماريين من أن مشكلة المنطقة - بالأساس - مشكلة سوء تطوير اقتصادي وسياسي، يرجع سببها إلى استعمار القرن التاسع عشر الأوروبي. يرى لويس في كتابه الصادر عام 1982 تحت عنوان Muslim Discovery of Europe: اكتشاف المسلمين أوروبا، ويذهب لويس إلى القول بأن المجتمعات الإسلامية سيتعذّر عليها مواكبة الغرب، "وأن النجاحات الصليبية تعود - في جزء غير قليل منها - إلى ضعف المسلمين"، كما يقول إن المجتمعات الإسلامية منذ القرن الحادي عشر كانت تتحلّل، بفعل المشكلات الداخلية أساساً من قبيل "التعالي الثقافي" الذي كان حاجزاً بوجه القرض الخلاق، لا بفعل الضغط الخارجي؛ كالحملات الصليبية.

وعن يقظة السوفييت ومحاولات العرب لإضفاء السمة غير الشرعية على دولة اسرائيل، بوصفها دولة عنصرية، كتب لويس دراسة في معاداة السامية، بعنوان الساميون وأعداء الساميين (1986). وذهب لويس في أعمال أخرى إلى أن غضب العرب على إسرائيل يُهمل مآسٍ أو حالات إجحاف أخرى لحقت بالمسلمين في العالم: الغزو السوفيتي لأفغانستان، واحتلال أراضي الأغلبية المسلمة في آسيا الوسطى، والمعارك الدموية الطاحنة إبان انتفاضة حماه (1982)، والحرب الأهلية الجزائرية (1992- 1998)، والحرب الإيرانية - العراقية (1980- 1988).

إلى جانب أبحاثه العلمية، كتب لويس عدة كتب مؤثّرة، بمتناول أيدي عامة الناس: The Arabs in the History: **العرب في التاريخ (1950) و** The Middle East in the West: الشرق الأوسط في الغرب (1964) وThe Middle East: الشرق الأوسط (1995). وفي

أجواء يقظة هجمات 11 أيلول 2001 استعادت أعمال لويس بريقها، وجذبت إليها الأنظار، لا سيّما مقالته التي نُشرت عام 1990 "The Roots of Muslim Rage: جذور الغضب عند المسلمين". ونُشرت له ثلاثة أعمال بعد 11 أيلول: What went wrong: ما الخطأ الذي حدث (كُتبت قبل الهجمات) الذي يستجلي أسباب خشية العالم الإسلامي (وعدوانيته غير المحقّة أحياناً) من الحداثة، وThe Crisis of Islam: أزمة الإسلام و Islam: The Religion and the People: الإسلام: الديانة والبشر (نُشر عام 2009).

<u>الإبادة الأميركية للجنس البشري:</u>

وصفت الطبعتان الأوليتان من كتاب لويس The Emergence of Modern Turkey: ظهور تركيا الحديثة (1961 و1968) المجازر الأميركية في الحرب العالمية الأولى على أنها "إبادة 1915 المروّعة؛ حيث مُحِق مليون ونصف المليون من الأرمن". غُيِّر هذا النصّ في طبعات لاحقة إلى "مجزرة 1915 المروّعة؛ حيث مُحِق -استناداً إلى بعض التخمينات- ما يزيد على مليون أرمني، وعدد غير معروف من الأتراك". كان لويس -في وقت لاحق- واحداً من 69 عالماً، وقعوا عام 1985 على عريضة، تطالب الكونغرس الأميركي بتجنّب التوقيع على قرار، يندّد بالأحداث، بوصفها "إبادة جماعية".

أثار تغيير لويس مقطعه الوصفي للمجازر الأرمنية وتوقيعه على العريضة المناهضة لقرار الكونغرس جدلاً حاداً في بعض أوساط المؤرّخين والصحفيين الذين رأوا في ذلك أن لويس كان مَعنياً باعادة كتابة التاريخ خدمةً لمصالحه السياسية والشخصية. كان النص الأصل قد أثار - أصلاً - عاصفة من النقد لما يعتقد المؤرّخون أنه مبالغة في اتحاد الأرمن وقوتهم: (يذهب "لويس" إلى التلميح إلى أن كلا الطرفين كانا يتمتعان بقُوّة سياسية وعسكرية متكافئة في إمرته للدفاع عن مصالحهما. في حين أن الحقيقة أن الأرمن لم تكن لديهم لا شرطة، ولا أي جيش".

وفي وقت لاحق، دعا لويس عنوان "إبادة الجنس البشري" على أنه "النسخة الأميركية من هذا التاريخ"، وذلك في مقالٍ له، نشرتْه صحيفة لوموند في

تشرين الثاني 1993، وواجه بسببه محاكمةً مدنيةً في محكمة فرنسية". وقد عُوقب بغرامة مقدارها فرنكاً واحداً جزاءً على ما قاله عن مجازر الأرمن في تركيا العثمانية.

ذكر لويس أنه يؤمن بأن أعمال قتل جماعي قد وقعت بالفعل، ولكنْ؛ ليس ثمة ما يكفي من الأدلّة على أنها كانت بدعم من الحكومة، أو بتنظيم منها، والتخطيط لها. ولهذا؛ فإنها ليست إبادة للجنس البشري. وقالت المحكمة "إنه بتعميته على عناصر، تعاكس وجهة نظره، فقد أهمل واجبه في الموضوعية والتروّي". ثلاث دعاوى أخرى على لويس، كانت نتيجتها الخسران في محكمة تمييز باريس: إحداها دعوى رفعتْها اللجنة الوطنية الأرمنية في فرنسا، أمّا القضيتان الأخريان؛ فقد رفعهما جاك تريموليهْ دي فيليهْ.

حين تلقّى لويس وسامَ جورج دبليو بوش الأميركي للإنسانيات الوطنية في تشرين الثاني 2006 اعترضت اللجنة الوطنية الأرمنية في أميركا: "إن قرار الرئيس بتكريم أعمال مَن أنكر جريمة إبادة بشرية معروفة - مرتزق أكاديمي، حرّكت جهوده مصالح سياسية، فغطّى وجه الحقيقة، يناقض - تماماً - الأصول التي أسّست هذه الجائزة في سبيلها - يمثّل خيانة حقيقية لثقة العامّة".

انتقد وجهات نظر لويس في إبادة الأرمن عدد من المؤرّخين وعلماء الاجتماع، من بينهم ألين فنكلكورت Alain Finkiekraut وايفيس ترنون Yves Ternon وريشارد جِي. هوفانزين Richard G. Hovannisian والبيرت ممي Albert Memmi وبيير فيدال - ناكيت Pierre Vidal- Naquet وستيفان زونز Stephan Zunes الذين وصفوا لويس "بناكر جريمة إبادة بشرية مروّعة"، ورأت يار اورن Yair Auron أن مكانة لويس الرفيعة قدّمت غطاءً مثالياً للأجندة التركية الوطنية، للتعتيم على البحث العلمي عن جريمة إبادة الأرمن. وكتب اسرائيل تشارني Israel Charny أن "اهتمام لويس الظاهري .... بالأرمن، يشكّل تهديداً للأتراك، بوصفهم قُوّة متمردة، تشكّل مع الروس تهديداً للإمبراطورية العثمانية، والإصرار على أن ما نُفّذ لم يكن إلاّ سياسة تهجير، يطمس حقيقة أن التهجير المنظّم شكّل قتلاً جماعياً ممنهجاً". ويقارن تشارني "البنى المنطقية" التي استخدمها

لويس في إنكاره جريمة الإبادة الجماعية بالبنى المنطقية التي استخدمها إيرنست نولت في إنكاره جرائم الهولوكوست.

ما من دليل على قرار بارتكاب مجزرة. بالعكس، ثمة أدلّة وافرة، لم تكن ناجحة على محاولات منع وقوعها. أجل، ثمة مجازر هائلة، وأعداد الضحايا غير مؤكّدة، إلاّ أن رقم المليون يبدو محتملاً جدّاً....[و] المسألة ليست عمّا إذا كانت المجازر قد وقعت أم لا، بل هي عمّا إذا كانت المجازر نتيجة لقرار مقصود سلفاً، اتخذتْه الحكومة التركية... ما من دليل على هكذا قرار.

وصرّح لويس بأنه يعتقد (أن جعل [ابادة الأرمن] توازي الهولوكوست الألماني) أمر (غير معقول). وفي لقاء مع صحيفة ها آرتز قال:

لدى منكري الهولوكوست غرض: إطالة عمر النازية، والعودة إلى شريعتها. لا أحد يريد عودة "تركيا الجديدة" إلى الوراء، ولا أحد يرغب بالعودة إلى القوانين العثمانية. ما الذي يريده الأرمن؟ يريد الأرمن الإفادة من العالمين. فهم - من جهة - يتحدّثون بفخر عن نضالهم ضدّ الاستبداد العثماني، فيما يقارنون - من جهة أخرى - مأساتهم بهولوكوست اليهود. أنا لا أقبل بهذا. لا أقول إن الأرمن لم يعانون معاناة رهيبة. غير أني أجد من الأسباب ما يُقنعني بعَدّ محاولاتهم في استخدام المجازر الأرمنية للتقليل من أهمية هولوكوست اليهود، والإشارة إليها، بصفتها خلافاً عِرقياً، لا إبادة للجنس البشري.

<u>المواقف والتأثيرات على السياسات المعاصرة:</u>

برز لويس في أواسط الستينيات معلّقاً على أمور الشرق الوسط الحديث، وقد منحتْه تحليلاته للنزاع الإسرائيلي الفلسطيني وظهور الميليشيات الإسلامية شعبية واسعة، وأصبح شخصيةً محلّ جدل كبير. وقد وصفه المؤرّخ الأميركي جويل بينن Joel Beinin بأنه "ربما كان الصهيوني المتعلّم المفوّه الذي يدافع عبر لجنة الشرق الأوسط في أميركا الشمالية عن الأكاديميين". وتتمتّع نصائح لويس السياسية، بوزن

خاص، بفضل هذه المكانة العلمية. وقد أشار نائب الرئيس الأميركي دك تشيني إلى أن "صنّاع السياسة والدبلوماسيين والزملاء الأكاديميين ووسائل الإعلام تلتمس حكمته في هذا القرن الجديد".

من ناقد لاذع للاتحاد السوفياتي، واصل لويس مسيرته النقدية وتقاليده الليبرالية في الدراسات التاريخية الإسلامية. وعلى الرغم من أن رؤاه الماركسية المبكّرة تركت بصماتها واضحةً على كتابه الأول The Origins of Ismailism: أصول الإسماعيلية، فقد تخلّى لويس - لاحقاً - عن الماركسية. وكانت أعماله المُتأخّرة ردّة فعل على الاتجاه اليساري الحالي في العالم الثالث الذي بات تياراً مهمّاً في دراسات الشرق الأوسط.

يدافع لويس عن علاقات إسرائيل الحميمة بالغرب وتركيا التي يراها ذات أهمية خاصة في ضوء تلاشي تأثير الاتحاد السوفياتي على الشرق الأوسط. لتركيا مكانة خاصة عند رؤية لويس للمنطقة، بسبب ما يبذله هذا البلد من جهود؛ لكي يصبح بلداً أوروبياً. ولويس عضو فخري في معهد الدراسات التركية، وهي عضوية فخرية، مُنحت "على أساس التمييز العلمي العام المعترَف به... والخدمات الطويلة المكرّسة للدراسات التركية".

يرى لويس المسيحية والإسلام حضارتين متصادمتين منذ ظهور الإسلام في القرن الميلادي السابع، وإلى الأبد. وقد ذهب في مقالته "The Roots of Muslim Rage: جذور الغضب عند المسلمين" (1990) إلى أن الصراع بين الغرب والإسلام كان يزداد شدة وقُوّة. ووفقاً لما يذكره أحد المصادر، فإن هذه المقالة (ومحاضرة جيفرسون عام 1990 التي قامت عليها هذه المقالة) كانت أول مَن قدّم مصطلح "Islamic Fundamentalism: الأصولية الإسلامية" إلى أميركا الشمالية. لقد اقتبست هذه العبارة عبارة "Clash of Civilization: صدام الحضارات"التي احتلّت مكان الصدارة في كتاب صاموئيل هنتنغتون الذي يحمل هذا العنوان. إلاّ أن مصدراً آخر، يشير إلى أن أول مَن استخدم عبارة صدام الحضارات، كان لويس في اجتماع بواشنطن عام 1957؛ حيث أوردها محضر الاجتماع.

في عام 1998، يطالع لويس في صحيفة "القدس العربي" التي تصدر في لندن إعلاناً للحرب على واشنطن، كتبه أسامة بن لادن. وفي مقاله "A License to Kill: تصريح بالقتل"، يشير لويس إلى أنه يعدّ لغة بن لادن "أيديولوجيا جهادية"، ويحذّر الغرب من خطر بن لادن. نُشرت المقالة بعد أن بدأت إدارة كلنتون والأمن القومي الأميركي بمطاردة بن لادن في السودان، ثم في أفغانستان.

رأي لويس في الإسلام:

يقدّم لويس بعض استنتاجاته بصدد الحضارة الإسلامية والشريعة والجهاد مع ظاهرة الإرهاب في يومنا هذا في كتابه "Islam: The Religion and the People: الإسلام: الدين والناس". ويكتب عن الجهاد بوصفه "التزاماً دينياً" مميّزاً. إلاّ أنه يرى "أن ما يُرثى له" هو أن المعنيين بالنشاطات الإرهابية ليسوا أكثر تديّناً من سواهم:

المقاتلون المسلمون مأمورون بألاّ يقتلوا النساء والأطفال والشيوخ، ما لم يهاجمهم هؤلاء أولاً، وألاّ يُعذّبوا، أو لا يسيئوا معاملة الأسرى، وأن يحذروا قبل من قبل المعاداة، وأن يقبلوا الفدية بعد الهدنة، وأن يحترموا عهودهم... لم تقرّ التشريعات الكلاسية - في أيّ وقت - من شرعية الأعمال الإرهابية. وما من دليل - في الواقع - على ممارسة الإرهاب، كما يمارس اليوم.

ومن وجهة نظر لويس، فإن "الانتشار الشائع للممارسات الإرهابية والتفجيرات الإرهابية - اليوم - إنما هي من تطوّرات القرن العشرين التي لا سوابق لها في التاريخ الإسلامي، وليس ثمّة ما يبرّرها بمصطلحات الإسلام، أو شريعته، أو أعرافه وتقاليده". ويضيف قائلاً: "إن المقاتل الانتحاري يعرض على ضحاياه الخيار بين القرآن والسيف، وهذا ليس عارٍ عن الصحة، فحسب، بل وغير ممكن أيضاً"، وإن "صبر المسلمين - بصفة عامة - على الكافرين، كان أفضل بكثير ممّا في المسيحية، حتّى ظهور العَلمانية في القرن السابع عشر".

العقوبات على الحرب العراقية:

وصف جاكوب وايزبرغ Jacob Weisberg لويس بقوله "ربما كان المثقف الأكثر أهمية وراء احتلال العراق، وكان لآراء لويس وزن مهمّ لدى إدارة بوش الابن، وتأثير واضح في قراره شنّ الحرب عام 2003 على العراق، وتدمير بنيته التحتية واحتلاله. ولو كان وراء تحفيز الولايات المتحدة على إحتلال العراق عسكرياً، وتحفيزها على ذلك آخرون، من أمثال زلماي خليل زادة وفؤاد عجمي، وسواهم من اليمين الأميركي المُتطرّف قيادات المحافظين الجدد البارزة.

زلماي خليل زادة

كان زلماي خليل زادة المولود في 22 آذار 1951 في مدينة مزار شريف في أفغانستان، لأب موظف في مملكة مُحمّد ظاهر شاه، قد هاجر إلى الولايات المتحدة الأميركية طالباً في المرحلة الثانوية، ثم التحق بالجامعة الأميركية في بيروت، وتخرّج فيها. ثم حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة شيكاغو؛ ليعمل مديراً في شركة يوناكال النفطية الأميركية، ومن بعدها؛ في وزارتي الخارجية والدفاع، في عهد الرئيسين ريغان وجورج بوش الابن.

وفي عهد الرئيس جورج بوش، شغل خليل زادة منصباً في مجلس الأمن القومي في البيت الأبيض الذي رأسته في ذلك الوقت د. كونداليزا رايس وزيرة الخارجية الأميركية لاحقاً. وتخصّص زادة في شؤون الخليج العربي وآسيا الوسطى، متتلمذاً من الناحية السياسية على يدي دك تشيني الذي كان وزيراً للدفاع أثناء عمل خليل زادة فيها.

عُيّن خليل زادة سفيراً للولايات المتحدة في أفغانستان، بلده الأصلي، عام 2003، وشغل منصبه هذا حتّى عام 2005 ، وهناك أسهم في إرساء هيكل الحكومة، وأشرف على جهود إعادة الإعمار، وعلى أول انتخابات رئاسية. ووصفتْه كونداليزا رايس بأن له مقدرة واضحة على التوفيق بين الآراء المتناحرة، وفي تحقيق نتائج في ظل أوضاع صعبة.

لكن خليل زادة يُعرف - أيضاً - بلسانه "غير الدبلوماسي" الذي أغضب منه زعماء بعض الدول. أصبح صديقاً ومساعداً لبول ولفويتس، وصديقاً حميماً لدك تشيني. وفي عام 1984، عمل في الخارجية الأميركية أيام حكم ريغان؛ حيث كان رئيسه المباشر بول وولفويتس أيضاً. وخلال هذه الفترة، ساعد زادة في التخطيط الأميركي لتسليح المجاهدين الأفغان التي كانت تقاتل السوفييت لاحتلالهم أفغانستان.

ومن الواضح أن الحاجة إلى مهاراته التي وصفتْه بها كونداليزا رايس كسفير في العراق ستكون ماسة، لاسيّما وأنه لم يكن غريباً على التعامل مع العراقيين؛ إذ كان قبل الغزو الأميركي في آذار 2003 مبعوثاً أميركياً إلى ما سُمّي - في ذلك الوقت - بالعراقيين الأحرار، في إشارة إلى المعارضة العراقية في المنفى يومئذ. وهكذا؛ فقد عُيّن زادة سفيراً أميركياً في العراق للمدة من عام 2005 حتّى 17 نيسان 2007؛ حيث عُيّن بصفته السفير الأميركي السادس والعشرين إلى الأمم المتحدة، وظل يشغل هذا المنصب حتّى 20 كانون الثاني 2009.

<u>فؤاد عجمي</u>

وأما فؤاد عجمي؛ فأستاذ جامعي، وكاتب سياسي أميركي من مواليد أرنون- لبنان 1945 من أصول فارسية، وهو من الأصوات الأميركية التي نادت باحتلال العراق، ومساند كبير للحكومة الأميركية، ومدافع متحمّس عن انتهاكات الجيش الأميركي لحقوق الإنسان في العراق، لا سيّما في سجن أبي غريب. وقد كان فؤاد عجمي أكثر إلماماً بحقوق الشيعة في العالم العربي، ولو لم تكن نظرته مطابقة لنظرة إدوارد سعيد التي تمركزت على تعريف العالم العربي دولياً هو نظرة الغرب إليه، والمعارضة لتلك النظرة. كان هذا هو سبب الخلاف بينه وبين إدوارد سعيد.

لفؤاد عجمي خمسة كتب، آخرها كتابه الموسوم "هدية الأجنبي: الأميركيون والعرب والعراقيون في العراق" الصادر عام 2006. أمّا أول كتبه؛ فقد صدر تحت عنوان المأزق العربي 1981.

عودة إلى برنارد لويس

لكن وزن برنارد لويس وتأثيره على مركز القرار في البيت الأبيض الأميركي يظـل متفوّقـاً على مركز زلماي خليل زادة وفؤاد عجمي وسواهم من اليمـين الأمـيركي المُتطـرّف والمحـافظين الجدد.

ونسب ميشـيل هـارش Michel Harish إلى لـويس وجهـة النظـر القائلـة بـأن تغيـير النظام العراقي سيتيح انطلاقة، تسمح "بتحديث الشرق الأوسط". ويرى ميشـيل أن نظريـات لويس "الاستشراقية" في "What went wrong : مـا الخطـأ الـذي حـدث" في الشرق الأوسـط وكتاباته الأخرى، شكّلت قاعدة ثقافية، دفعت باتجاه الحرب على العراق.

في كتاباته عام 2008، لم يدافع لويس عن فـرض الحريـة والديمقراطيـة عـلى الشـعوب المسـلمة. يقـول برنـارد لـويس: "ثمـة أمـور، يتعـذّر عليـك فرضـها بـالقُوّة، كالحريـة مـثلاً، أو الديمقراطية. الديمقراطية عقار شديد المفعول، يتوجـب إعطـاؤه للمـريض، بجرعـات صـغيرة، بالتدريج، وإلاّ فقد تغامر بقتله. وفي العموم، على المسلمين أنفسهم أن يفعلوا ذلك.

وإذ يكتب إيان بوروما إلى النيو يوركر مقالـةً بعنـوان "The two minds of Bernard Lewis: عقلا برنارد لويس" يتوصل إلى صعوبة المواءمـة بـين موقـف لـويس مـن الحـرب وتصريحاتـه السابقة التي تحذّر من فرض الديمقراطية فرضاً على العالم برُمّته.

وفي النهاية، يرفض بوروما وجهات النظر التي يقول بها أقرانه من أن لويس حضّ عـلى الحرب على العراق، ودعا لها، لضمان حماية إسرائيـل، ويـرى أنـه (ربمـا كـان "لـويس" يحـبّ "العرب" كثيراً جدّاً.

شائعات عن تهديد إيراني نووي:

في عام 2006، كتـب لـويس أن إيـران كانـت قـد عملـت في السـلاح النـووي لمـدة خمسة عشر عاماً. في مقالة بتاريخ آب 2006 عمّا إذا كان بوسع العالم الاعتماد على فكـرة

الهدم المتبادل المضمون لعوائق التعامل مع إيران، كتب لويس في وول ستريت جورنال عن مغزى يوم 22 آب 2006 وأهميته في التقويم الإسلامي. كان الرئيس الإيراني قد أشار إلى أنه سيردّ في ذلك التاريخ على مطالب الولايات المتحدة الأميركية في ما يتعلّق بتطوير إيران قُوّة كهربائية ذرّيّة، وذكر لويس أن الموعد يوافق يوم 27 من شهر رجب عام 1427 للهجرة، وهو الليلة التي يستذكرها المسلمون، بصفتها ليلة معراج النبي مُحمّد ﷺ من القدس إلى السماء، وعودته منها.

كتب لويس أنه حري أن يكون "تاريخاً مناسباً لنهاية رئوية لإسرائيل، وعند الضرورة، للعالم كله". وحسب ما يراه لويس، فإن الهدم المتبادل المضمون ليس عائقاً مؤثراً في حالة إيران، بسبب ما يصفه لويس على أنه "رؤية العالم الرئيوية" لدى قادة إيران" و"الانتحار أو عقدة الشهادة التي تجتاح العالم الإسلامي اليوم". وعليه؛ فإنه يتوقّع احتمالية ضربة نووية لإسرائيل في 22 آب 2006.

ما مغزى يوم 22 آب 2006 وأهميته هذا العام؟ يوافق يوم 22 آب اليوم السابع والعشرين من شهر رجب عام 1427 في التقويم الإسلامي. وهذه الليلة هي اليلة التي يرافق فيها المسلمون - تقليدياً - رحلة النبي مُحمّد ﷺ الليلية على ظهر البراق إلى "المسجد الأقصى" أولاً، الذي يُماهى عادةً مع القدس، ثم إلى السماء، والعودة منها. من المستبعد أن يخطّط السيد أحمدي نجاد أحداثاً عنيفة المتغيّرات كهذه ليوم 22 آب تحديداً. إلاّ أن من الحكمة وضع الاحتمال على البال.

حظت المقالة بتغطية صحفية مهمة، ولو أن اليوم مضى، من دون أي حدث.

في كتابه الصادر عام 2009، يذكر جوان كارول أنه لم يكن ثمّة دليل يوحي بأن إيران "كانت تعمل باجتهاد ودأب في سلاح نووي، على امتداد خمسة عشر عاماً". كما تناول الكتاب افتراض لويس بأن أحمدي نجاد "قد يستخدم هذا السلاح ضدّ إسرائيل بتاريخ 22 آب 2006.

فاقت معتقدات لويس بصدد إيران معتقدات أحمدي نجاد بصدد إسرائيل غراةً. إلاّ أن إدارة بوش - لسوء الحظ - كانت تصغي إليه. لم يتحقّق شيء من نبوءته المضحكة، بطبيعة الحال، تلك النبوءة التي نطقت بلسان حال قلق الصهاينة الغربيين المُتطرّفين غير المعقول أكثر ممّا نطقت بواقع الحال السياسي الإيراني.

مناظرات لويس مع إدوارد سعيد:

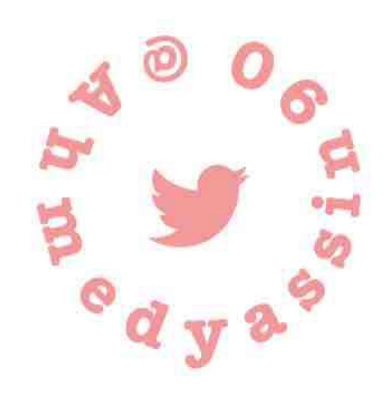
برنارد لويس معروف بمناظراته الأدبية مع إدوارد سعيد، المنظّر الأدبي الفلسطيني - الأميركي الذي كان يهدف إلى إعادة قراءة ما دعاه الثقافة الاستشراقية بغية إعادة استخرج معانٍ جديدةٍ منها. وصف سعيد - الأستاذ في جامعة كولومبيا - أعمال لويس بأنها معقّد رائد من الاستشراق، في كتابه الموسوم Orientalism: الاستشراق الصادر عام 1978. يؤكد سعيد على أن ميدان الاستشراق كان ميدان التعقّلية السياسية المنكفئة على توكيد الذات، لا دراسة موضوعية، فهي - بهذا المعنى - ضرب من العنصرية، وأداة لفرض الهيمنة الإمبريالية. بل إنه استقصى الحيادية العلمية لدى بعض المطّلعين على شؤون الشرق الأوسط اطّلاعاً واسعاً على العالم العربي؛ من أمثال لويس برنارد. وقد ذكر سعيد في مقابلة له مع صحيفة الأهرام الأسبوعية أن معرفة لويس بالشرق الأوسط كانت معرفة منحازة إلى حدّ، يجدر معه عدم أخذها بجدّيّة، وقال: "إن قدمَي برنارد لويس لم تطأا الشرق الأوسط، والعالم العربي منذ ما لا يقلّ عن 40 سنة. إنه يعرف شيئاً ما عن تركيا، كما قيل لي، لكنه لا يعرف شيئاً عن العالم العربي.

ويرى إدوارد سعيد أن لويس يعامل الإسلام كما لو كان وحدة متراصّة متجانسة، من دون أدنى فرق بين مجموع المسلمين وديناميكيات داخلية وتعقيدات تاريخية، ويتهمه بـ "الديماغوجية والجهل المتدنّي".

يرفض لويس وجهة النظر القائلة بانحياز الثقافة الغربية ضدّ الشرق الأوسط ، ويذهب إلى أن الاستشراق تطور بصفته وجهاً للإنسانية الأوروبية، مستقلاً عن التوسّع الإمبريالي الأوروبي السابق. ويلاحظ أن الفرنسيين والإنكليز واظبوا على دراسة الإسلام

إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر، ولو بطريقة غير منظّمة، إلاّ أن تلك الدراسات سبقت أي سيطرة أو تطلّع للسيطرة على الشرق الأوسط، بزمن طويل، كما أن الكثير من الدراسات الاستشراقية لم تفعل شيئاً، يساعد الإمبريالية في تقدّمها. "ما الغرض الإمبريالي الذي خدمه حلّ رموز لغة مصر القديمة، مثلاً، وإستعادة معارف المصريين القدماء المنسيّة؟

أصدر برنارد لويس على مدى 72 عام (34) كتاباً، أولها عام 1940، وآخرها عام 2012، غطّت موضوعات متنوعة عديدة، تتعلق بالعالم الإسلامي في مختلف مراحله التطورية، وجانباً مهماً من تاريخ العثمانيين والأتراك والفرس، ووضع الأقليات الدينية في ظل الحكم الإسلامي، وعلاقة الإسلام بالغرب، والإسلام والسياسة وتاريخ العرب والشرق الأوسط ، ومن بينها هذا الكتاب الذي بين أيدينا، الذي بدأ مقالاً صحفياً في النيو يوركر في تشرين الثاني 2001، ثم تبلور كتاباً، صدرت طبعته الأولى في آذار 2003.



تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

مقدمـة المؤلف

عانى الرئيس بوش والساسة الغربيون في سبيل إيضاح أنّ الحرب التي زُججنا فيها إنما هي حرب ضدّ الإرهاب، لا ضدّ العرب، ولا - من باب أولى - ضدّ المسلمين الذين أَلْجَأَتْهُم الظروف إلى مشاركتنا في منازلة عدوّنا المشترك. أمّا رسالة بن لادن؛ فعلى النقيض من هذا، فهذه الحرب - برأيه، وبرأي مَن يتبعه - حرب دينية، حرب المسلمين على الكافرين، ولذلك لابد أن تكون حرباً على الولايات المتحدة، أعظم قُوّة في عالم الكفر.

كثيراً ما يشير بن لادن في تصريحاته إلى التاريخ. كانت إحدى إشاراته الأكثر دراميـة في شريطه الفديوي في 7 تشرين الأول 2001؛ إذ أَلمحَ إلى "الخزي والعار" اللذين عانى منهما الإسلام لـ"ما يربو على ثمانين عاماً". باشر معظم مراقبي الشرق الأوسط من الأمريكان، والأوروبيين - دون ريب - بحثاً دؤوباً عمّا حصل قبل "ما يربو على ثمانين عاماً"، وتوصلّوا إلى إجابات شتّى. يمكننا الاطمئنان - تماماً - إلى توصّل مستمعي بن لادن المسلمين - الجمهور الذي كان يخاطبه - إلى المراد من التلميح، وتقديره حقّ قدره.

هُزمت - أخيراً - السلطنة العثمانية، آخر إمبراطورية إسلامية عظيمة عام 1918 ، واحتُلّت عاصمتها، استانبول، وجُرِّدت عن سياستها، وتقاسمت الشطر الأكبر من إقليمها الإمبراطوريتان المنتصرتان، الإنكليزية والفرنسية. وقُسِّمت مقاطعات الهلال الخصيب الناطقة بالعربية التي كانت خاضعة للعثمانيين سابقاً إلى كيانات ثلاثة،

وأُطلقت عليها أسماء جديدة، ورُسمت لها حدود جديدة أيضاً. كان اثنان من الكيانات الثلاثة، العراق وفلسطين، خاضعين للانتداب البريطاني، فيما مُنح الكيان الثالث، وقد أُطلق عليه اسم سوريا، للفرنسيين. قسّم الفرنسيون الدولةَ المنتدَبين عليها - لاحقاً - إلى قسمَين، مطلقَين على أحدهما اسم لبنان، محتفظَين باسم سوريا للقسم المتبقّي. أمّا الإنكليز؛ فقد فعلوا الأمر ذاته، إلى حدّ ما في فلسطين؛ إذ استحدثوا تقسيماً بين ضفّتي الأردن. سُميِّت الضفة الشرقية عبر الأردن Transjordan، ثم أصبح اسمه - لاحقاً - الأردن. أمّا اسم فلسطين؛ فقد احتُفظ به، وخُصّص إطلاقه على الضفة الغربية، بعبارة أخرى: قسم جنب الأردن Cisjordanian من البلاد.

لم يعتقد أحد - في ذلك الوقت - بأن شبه الجزيرة العربية التي تتألف - بصفة أساس - من صحارى قاحلة وجبال منيعة، يصعب بلوغها، تستحق منا الاستيلاء عليها، فسُمح لحكّامها باستقلال محدود غير وطيد. نجح الأتراك - أخيراً - في تحرير وطنهم، الأناضول، لا باسم الإسلام، وإنما من خلال حركة قومية عَلمانية، قادها جنرال عثماني، يُدعى مصطفى كمال، غالباً ما يُعرَف باسم جمال أتاتورك. اتخذ كمال أتاتورك - حتّى إبّان قتاله - بنجاح - لتحرير تركيا من السيطرة الغربية - أولى خطوات اعتماد المنهج الغربي، أو كما كان يفضّل تسميته، المناهج الحديثة. كان أحد أول قراراته، في تشرين الثاني 1922، إلغاء السلطنة.

لم يكن العاهل العثماني سلطاناً، فحسب، حاكماً لدولة معينة، وإنما كان يُعرَف على نطاق واسع بصفته خليفة، رئيس المسلمين السّنّة جميعاً، والأخير في سلسلة من الحكّام، ترقى إلى وفاة الرسول مُحمّد ﷺ عام 632، وتعيين خليفة له، يحل محله، لا بصفة روحية، بل بصفته رئيساً دينياً وسياسياً للدولة الإسلامية والمجتمع المسلم. بعد تجربة قصيرة مع خليفة مستقل، ألغى الأتراك في آذار 1924 الخلافة أيضاً.

مرَّت الخلافة - عبر قرونها الثلاثة عشر تقريباً - بالكثير من التقلّبات، غير أنها ظلّت رمزاً فعّالاً لوحدة المسلمين، بل لهويّتهم. وكان العالم الإسلامي يحسّ باختفائها تحت الضغط المزدوج لهجوم الإمبرياليين الأجانب ودعاة التحديث الداخليين.

عالج بعض الملوك والقادة المسلمين محاولات فاترة لادّعاء اللقب الأجوف، إلاّ أنّ أحداً منهم لم يحظَ بكبير تأييد. ما يزال الكثير من المسلمين يحسّون هذا الفراغ بألمٍ واع، ويُقال إن لدى أسامة بن لادن - أو كانت لديه - تطلّعات إلى الخلافة.

تنحدر مفردة Caliph من مفردة "Khalifa: خليفة" العربية التي تجمع بلَبَس مفيد بين معنييّ "Successor: ولي العهد" و"Deputy: النائب أو الوكيل" أصلاً، وكان رئيس المجتمع الإسلامي "خليفة رسول اللـه". اختصر البعض - الأكثر طموحاً - اللقب إلى "خليفة اللـه".

جُوبه هذا الادعاء بالسلطة الروحية مجابهة مريرة، إلى أن تمّ التخلّي عنه في نهاية المطاف، على الرغم من أن لقباً آخر، يعبّر التعبير نفسه تقريباً، ولكنه أقل ادّعاء، إلى حدّ ما هو "ظل اللـه على الأرض" استعمله الحكّام المسلمون على نطاق واسع. أقنع مُتسنّمو سُدّة الخلافة أنفسهم خلال الشطر الأعظم من تاريخ مؤسّسة الخلافة بلقب Amiral–Mumintn الأكثر تواضعاً الذي غالباً ما يُترجَم بصيغة Commander of the Faithful: أمير المؤمنين.

تشيع بين صفوف المسلمين التلميحات التاريخية كتلميح بن لادن الذي قد يبدو عويصاً لدى الكثير من الأمريكان، ويتعذّر فهمها فهماً دقيقاً إلاّ في سياق مفاهيم الشرق الأوسط، وعلى أساس من خلفيته التاريخية. يحتاج الغربي الذي يحاول تفهّم الشرق الأوسط المعاصر إلى إعادة تعريف حتّى لمفاهيم التاريخ والهوية. ففي الاستعمال الأمريكي الجاري تعني عبارة "That's history: ذلك تاريخ" بصفة عامة، رفض أمر ما لعدم أهميته، أو عدم صلته بالاهتمامات الحالية، وعلى الرغم من الاستثمارات الهائلة في تدريس التاريخ وكتابته، فإن المستوى العام من المعرفة التاريخية في المجتمع الأمريكي في الحضيض.

يشكّل المسلمون - شأنهم شأن أيّ فرد آخر في العالم - تاريخهم، لكنهم - بخلاف البعض من سواهم - شديدو العناية به. في كل الأحوال، تعود عناية المسلمين بالتاريخ،

واهتمامهم به إلى مرحلة ظهور الإسلام، ربما مع شيء من الإشارات الضئيلة إلى العصور الجاهلية، بحكم الحاجة لتفسير التلميحات التاريخية في القرآن الكريم والأحاديث النبوية في مرحلة صدر الإسلام وحولياتها.

للتاريخ الإسلامي - بالنسبة للمسلمين، - أهمية دينية وشرعية، كذلك لأنه يعكس تحقيق مشيئة الله بأمّته التي تقبّلت تعاليم الإسلام، وأطاعت شريعته. لا ينقل تاريخ الدول والأمم غير المسلمة رسالة كهذه، لذا؛ لا قيمة له، ولا فائدة فيه. كانت المعرفة بالتاريخ الوثني حتّى - في البلدان ذات الحضارات القديمة كبلدان الشرق الأوسط، ومعرفة الأخلاف بالأسلاف الذين تحيط بهم تماثيلهم ومخلّفاتهم - ضئيلة.

نُسيت اللغات والمخطوطات القديمة، ودُفنت السجلات العتيقة، إلى أن أنقذها وفكّ مغاليقها آثاريون وفقهاء لغة غربيون مولعون بالبحث والاستقصاء في العصر الحديث. لكن الشعوب المسلمة دوّنت كتابات تاريخية ثرّة، تتعلق بالعصر الذي بدأ بظهور الإسلام.

حقاً إن الكتابة التاريخية الرصينة بدأت في الكثير من البقاع، حتّى في البلدان ذات الحضارات القديمة، كالهند، مع وصول الإسلام.

لكنْ؛ تاريخ ماذا؟ الوحدة الأساس في التنظيم الإنساني لدى العالم العربي هي الأمة، والأمة - أصلاً، في الاستعمال الأمريكي، لا الأوروبي - رديف للبلاد، ثم تنقسم الأمة إلى أقسام فرعية بطرق شتّى، أحدها التقسيم على أساس الدين، غير أن المسلمين لا يميلون إلى تقسيم الأمة إلى مجموعات دينية، وإنما يقسمون الدين إلى أمم، وعلّة ذلك - بلا شك - أن معظم الأمم، الدول التي تشكّل الشرق الأوسط تكوينات حديثة نسبياً، خلّفتْها حقبة السيطرة الإمبريالية الانكلو - فرنسية التي أعقبت اندحار الإمبراطورية العثمانية، محافظةً على بنية الدولة وحدودها، كما خلّفها أسيادهم الإمبرياليون السابقون. تعكس - حتّى أسماء تلك الدول - ذلك الاصطناع: كان العراق مقاطعة في العصور الوسطى، تختلف حدودها أشد الاختلاف عن حدود جمهورية العراق الحديثة،

تاركاً ما بين النهرين في الشمال، ضامّاً شيئاً من غربي إيران. سوريا وفلسطين وليبيا أسماء ذات طبيعة تاريخية، لم تستخدمها المنطقة على مدى ألف سنة أو يزيد من قِبل أن يعيد الحياة إليها، ويفرضها الإمبرياليون الغربيون في القرن العشرين، ولها حدود جديدة، هي - في الغالب - مختلفة أيضاً[1]. أمّا الجزائر وتونس؛ فليستا موجودتين في العربية كمفردتين، ويؤدي الاسم نفسه الإشارة إلى البلاد، وإلى المدينة "العاصمة". الأهم ممّا سواه هو عدم وجود مفردة في العربية، تشير إلى الجزيرة العربية، وتسمّى العربية السعودية - اليوم - بصيغة "المملكة العربية السعودية"، أو شبه الجزيرة العربية اعتماداً على السياق. لا يعود ذلك إلى فقر اللغة العربية - العكس هو الصحيح - وإنما مردّ ذلك هو أن العرب - ببساطة - لم يفكروا بمصطلحات، تربط بين الهوية الاثنية والإقليم الأرضي. رُوي عن الخليفة عمر بن الخطاب قوله: "احفظْ نسبكَ، ولا تكنْ كالفلاح الذي يجيب حين يُسأل عمّن يكون أنا من موضع كذا وكذا"[2].

كان المجتمع الإسلامي في القرون الإسلامية الأولى دولة واحدة، يحكمها حاكم واحد. وظل مثال الدولة الإسلامية الواحدة قائماً حتّى بعد أن انقسم المجتمع الإسلامي إلى دول عدّة. كانت كل الدول - تقريباً - وراثية. ولاشك في أنه من الأهمية بمكان أن تأتي معظم الكتابات التاريخية الرسمية المدوّنة بالعربية والفارسية والتركية على ذكْر تواريخ السلالات والمدن، ومن باب أولى، تواريخ الدول والمجتمعات الإسلامية، لكنها لا تذكر شيئاً من تاريخ فارس أو تركيا. لا تشير هذه الأسماء - بخلاف أسماء سوريا أو فلسطين أو العراق - إلى كيانات سياسية حديثة، بل كيانات سياسية قديمة، تمتّعت بالسيادة والاستقلال لقرون. ومع ذلك، فإن العربية أو الفارسية أو التركية لم تضمّ هذه الأسماء حتّى العصر الحديث. يبدو أن اسم تركيا، الذي يشير إلى بلاد يقطنها شعب يُدعى الأتراك، ويتكلم لغة تُدعى التركية، كما لو كان يؤكد النموذج الأوروبي المعتاد في تعريف البلدان بأسماء إثنية. بيد أن تركيا لم تعتمد هذا الاسم الذي شاع في أوروبا منذ العصور الوسطى إلى ما بعد إعلان الجمهورية 1923. أمّا Persia؛ فاسم أوروبي أصله ما اعتمده الإغريق لاسم Pars الذي أصبح لاحقاً Fars (فارس)، وهو اسم مقاطعة في

غربي إيران. بعد الفتح العربي، باتت تُعرف باسم فارس Fars؛ لأن العربية تخلو من الحرف P. وكما أصبح اسم القشتاليين Castilians الإسبان Spanish والتوسكانيين Tuscans الطليان Italians، أصبحت الفارسية Farsi، - وهي لهجة فارس المحلية - لغة البلاد الفصحى، لكن استعمال الفرس لاسم المقاطعة لم يكن يشير إلى البلاد ككلّ قطّ.

كتب كلّ من الأتراك والعرب الشيءَ الكثير في وصف نضالهم ضدّ أوروبا المسيحية، منذ غزوات العرب الأولى في القرن الثامن إلى الانسحاب التركي الأخير في القرن العشرين. كان الجنود والضباط والمؤرخون المسلمون يشيرون إلى خصومهم - دائماً تقريباً، حتّى العصر الحديث؛ حيث سيطرت الأفكار والاتجاهات الأوروبية - بصفة "الكفّار"، لا بأسماء مناطقهم، أو قوميّاتهم، وربما أشاروا إليهم بمصطلحات عامة غائمة، كالفرنجة، أو الروم. وبالمثل؛ فإنهم لم يشيروا إلى أنفسهم على أنهم عرب أو فرس أو أتراك، وإنما عرّفوا أنفسهم بأنهم مسلمون. يساعد هذا الأمر - من بين أشياء أخرى - على إيضاح سبب اهتمام باكستان بطالبان وخلفائهم في أفغانستان. يشير اسم باكستان، وهو أحد مبتكرات القرن العشرين، إلى بلاد، تدين بكاملها بالإسلام، وتُخلص له. كانت بلاد الباكستان وشعبها - على امتداد ألف سنة - جزءاً من الهند، من الوجوه كافة. تعريف أفغانستان بهويتها الإسلامية - حتّى كدولة تابعة للباكستان - أمر منسجم طبيعياً. وربما كانت أفغانستان المعروفة بإثنيتها القومية - بالمقابل - جاراً خطراً؛ إذ تتقدّم بالمطالب التحررية الوحدوية مع المناطق الناطقة بالبشتوية في شمال غربي الباكستان، بل - وربما - تحالفت مع الهند.

العودة إلى التاريخ المبكّر - بل إلى التاريخ القديم - أمر مألوف في الخطاب العام. ففي الثمانينات، أثناء الحرب الإيرانية - العراقية مثلاً، شن كلا الجانبين حملة إعلامية ضخمة، غالباً ما تناولت الإشارة إلى أحداث وشخصيات، يعود تاريخها إلى القرن السابع، وإلى معركة القادسية (637 م) وكربلاء (680 م).

في معركة القادسية، انتصر العرب المسلمون، وغزوا إيران بعد أن تغلّبوا على جيش الشاه الفارسي الذي لم يكن قد أسلم، ولذلك كان - من وجهة نظر المسلمين - وثنياً كافراً. ولذلك عدّ كلا الجانبين الأمرَ نصراً له، نصر للعرب على الفرس بالنسبة لصدّام حسين، ونصر للمسلمين على الكافرين، بالنسبة لآية الله خميني. لم تكن الإشارات إلى هاتين المعركتين وصفاً تفصيلياً، أو سردياً، بل إشارات عاجلة وصوراً مجتزئة، ومع ذلك، فقد وظّفها كلا الجانبين على أساس من المعرفة الوثيقة بأن جمهوريّ الجانبين يعي تلك الإشارات، ويفهمها، ولو أن شريحة واسعة من كلا الجمهورين غير متعلّمة.

من الصعوبة بمكان، تصوّر متعهّدي الحملات الدعائية الجماهيرية في الغرب، وهم يوصلون ما يريدون إيصاله عبر تلميحات، تعود إلى الحقبة التاريخية ذاتها، والتلميح إلى القيادة الإنكلو - سكونية السباعية في إنكلترا، أو إلى الملوك الكارولينيين في فرنسا. بالطريقة الخفية ذاتها، يهين أسامة بن لادن نائبَ الرئيس، تشيني، ووزير الخارجية، باول "جرت تسميتهما كلاهما" بأنهما ألحقا بالعراق ضرراً بالغاً في حرب الخليج 1991، وما تلاها يفوق ضرر الخانات المغول ببغداد التي احتلّوها في أواسط القرن الثالث عشر، ودمّروا الخلافة العباسية.

يجري إنعاش ذاكرات الشرق أوسطيين عبر المنبر، وفي المدرسة، وعبر وسائل الإعلام، على الرغم من أن الصوت المنعش قد يكون منحازاً وغير دقيق، وفي الحقيقة، هو كذلك دائماً، لكنه - مع ذلك - صوت جهوري حيوي وقوي.

في 23شباط 1998، نشرت القدس العربي - وهي صحيفة عربية، تصدر في لندن - النص الكامل لـ "إعلان الجبهة الإسلامية العالمية للجهاد ضدّ اليهود والصليبيين". وحسبما ذكرت الصحيفة، فإن الإعلان وصلها بالفاكس، بتوقيع أسامة بن لادن وقادة مجموعات الجهاد في مصر والباكستان وبنغلادش. الإعلان قطعة بلاغية مهيبة، في وقت، لا يألف فيه الغربيون كشف النثر العرب الشاعري عن صفحات من التاريخ. لم تكن شكاوى بن لادن الواردة في هذه الوثيقة كما توقّعها الكثيرون. يبدأ الإعلان بتصدير يقتبس أكثر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية عسكريةً، ثم يواصل "منذ

أن وضع الله شبه الجزيرة العربية، وخلق صحراءها، وأحاطها ببحارها، لم تنزل بها نازلة كحشود أولئك الصليبيين الذين انتشروا مثل الجراد، محتشدين على ترابها، آكلين ثمارها، مدمّرين خضرتها، في وقت، تتزاحم فيه الأمم ضدّ المسلمين تزاحم الآكلين حول خوان الطعام".

يبدأ الإعلان - هنا - بالحديث عن الحاجة إلى تفهّم الموقف، والعمل على وضعه الوضع الصحيح. الوقائع - كما يقول الإعلان - معروفة لدى الجميع، وقد ذُكرت تحت ثلاث عنوانات فرعية:

أولاً - تحتل الولايات المتحدة منذ ما يزيد على السبع سنوات أراضي المسلمين في أكثر المناطق قدسيةً، الجزيرة العربية، ناهبةً ثرواتها، مُغرِّرة بحكّامها، مذلّةً شعبها، مهدّدةً جيرانها، مستخدمةً قواعدها في شبه الجزيرة رأس حربة في مقاتلتها الشعوب الإسلامية المجاورة.

على الرغم من أن البعض جادل في السابق بشأن الطبيعة الحقيقية لهذا الاحتلال، فإن شعب شبه الجزيرة بكامله يدرك ذلك الآن.

وليس أدلّ على ذلك من العدوان الأمريكي المستمر ضدّ الشعب العراقي الذي يُشَنّ من الجزيرة، على الرغم من حكّامها الذين يرفضون جميعاً استخدام أقاليمهم لهذا الغرض، لكنهم يرضخون.

ثانياً- على الرغم من الدمار الهائل الذي ينزل بالشعب العراقي على أيدي التحالف الصليبي اليهودي، وعلى الرغم من عدد القتلى المروِّع الذي تجاوز المليون، فإن الأمريكان - على الرغم من هذا كله - يحاولون تكرار المجزرة الرهيبة مرة أخرى.

يبدو أن الحصار الذي أعقب حرباً شرسة، وتقطيع الأوصال والدمار لم يكفهم. لذا؛ عاودوا - اليوم - من جديد؛ ليدمّروا ما تبقّى من هذا الشعب، وليذلّوا جيرانه المسلمين.

ثالثاً- مع أن غاية الأمريكان من هذه الحروب تحقيق أهداف دينية واقتصادية، فإنهم يخدمون - كذلك - دويلة اليهود، بصرف الانتباه عن احتلالهم القدس، وقتلهم المسلمين فيها.

لا دليل أوضح من تطلّعهم إلى تدمير العراق، الأقوى من الدول العربية المجاورة، ومحاولتهم تقطيع أوصال دول المنطقة كافة؛ كالعراق والعربية السعودية ومصر والسودان، وتقسيمها إلى دويلات صغيرة؛ إذ يضمن تقسيمها وضعفها تجاه إسرائيل، واستمرار نكبات الاحتلال الصليبي لأراضي شبه الجزيرة.

ويمضِي الإعلان إلى القول بأن تلك الجرائم تتفاقم إلى حدّ "إعلان أمريكا الصريح الحرب على الله ورسوله والمسلمين. أجمع رأي العلماء - عبر القرون، في موقف كهذا - على أنه إذا هاجم الأعداء أراضي المسلمين، بات الجهاد فرض عَين، على كل مسلم.

أورد الموقّعون شتّى حجج المسلمين، وواصلوا كلامهم إلى الجزء الأخير الأكثر أهمية في إعلانهم، الفتوى، قائلين إن "قتل الأمريكان وحلفائهم - مدنيين كانوا أم عسكريين - فرض عَين على كل مسلم قادر، في أي بلاد أمكن، إلى أن يتحرّر المسجد الأقصى (في القدس)، والمسجد الحرام (في مكة) من قبضتهم، وتُشتّت جيوشهم، وتُكسر أجنحتهم، ويُجلون عن أراضي المسلمين كافة، عاجزين عن تهديد أيّ مسلم".

ويواصل الإعلان - بعد إيراد بعض الآيات القرآنية ذات الصلة - القول "إننا -بإذن الله- ندعو كل مسلم، يؤمن بالله، ويرجو ثوابه، أن يمتثل لإرادته، فيقتل الأمريكان، ويغتنم ممتلكاتهم؛ حيثما وجدهم، وأينما استطاع. كما ندعو علماء المسلمين وقادتهم والشباب والجنود إلى مهاجمة جيوش الشيطان الأمريكي ومَن يتحالف معهم من أعوان الشيطان". وينتهي الإعلان والفتوى بسلسلة من المزيد من الشواهد من كتاب المسلمين.

يعتقد عموم الغربيين أن الولايات المتحدة وحلفاءها من العرب وسواهم شنّت حرب الخليج 1991 لتحرير الكويت من الغارة والاحتلال العراقي، ولحماية العربية السعودية من العدوان العراقي. قد تبدو رؤية هذه الحرب على أنها عدوان أمريكي على العراق أمراً على

شيء من الغرابة، لكنها رؤية تحظى بقبول واسع في العالم الإسلامي. وإذ تتلاشى ذكرى هجوم صدام حسين على الكويت، يتركّز الانتباه على الحصار المفروض على العراق، والطائرات الأمريكية والبريطانية وهي تجوب سماء العراق منطلقة من قواعدها في السعودية، ومعاناة الشعب العراقي، والإحساس المتزايد بانحياز الأمريكان لإسرائيل.

مناطق الشكوى الثلاث التي ذكرها الإعلان - السعودية والعراق والقدس - مألوفة لدى مراقبي الشرق الأوسط. الأمر الذي يبدو أقل إيلافاً هو ترتيب هذه المناطق، والتأكيد عليها، والطريقة التي قُدِّمت بها. لكن ذلك ليس بالأمر المفاجئ لأيّ ضليع بالتاريخ والكتابات الإسلامية. فالأراضي المُقدّسة لدى المسلمين، بالدرجة الأولى - وهو ما نميل إلى نسيانه في الغرب - هي السعودية، سيما الحجاز ومدينتيه المُقدّستين: مكة؛ حيث وُلد الرسول ﷺ، والمدينة المنورة؛ حيث أسّس أول دولة إسلامية، البلاد التي كان شعبها أول مَن سارع إلى الإيمان بالدين الجديد، وأصبح حامله الأساس. عاش الرسول مُحمّد ﷺ في الجزيرة العربية، ومات فيها، وكذلك كان شأن مَن خلفه مباشرة، الخلفاء في رئاسة المجتمع. وكان مركز العالم الإسلامي، ومسرح الإنجازات الكبرى، ما عدا فاصل زمني قصير في سوريا، هو العراق، وعاصمته بغداد، مقرّ الخلافة لخمسمائة سنة.

لا يجوز للمسلمين - في النهاية - التخلّي عن أرض، دخلت ملكوت الإسلام، ولكنْ؛ لا يمكن مقارنة أيّ أرض بالجزيرة العربية والعراق.

الجزيرة العربية، من بين الاثنين، أكثر أهمية بكثير. يذكر المؤرخون العرب القدامى أنه في سنة 200 من العهد الإسلامي الموافقة لسنة 641 م أمر الخليفة عمر بن الخطاب بإبعاد اليهود والنصارى عن أراضي الجزيرة كلها، ما عدا أطرافها تنفيذاً لأمر النبي ﷺ في فراش موته " لا يجتمع في جزيرة العرب دينان".

كان المعنيون بالمسألة يهود واحة خيبر، في الشمال، ونصارى نجران، في الجنوب. كلاهما مجتمع قديم عميق الجذور، عرب لغةً وثقافةً ومنهج حياة، لا يختلفون عن جيرانهم إلاّ بعقيدتهم.

طعنت بعض الجهات الإسلامية المبكّرة في نسبة هـذا الحـديث إلى النبـي ﷺ. لكنـه كان - في العمـوم - مقبـولاً، وجـرى تنفيـذه. ترحيـل الأقليـات الدينيـة نـادر جـدّاً في التـاريخ الإسلامي، عـلى خـلاف سـلطان مسـيحية القـرون الوسـطى؛ حيـث كـان ترحيـل اليهـود، ثـم المسـلمين - بعـد إعـادة الفـتح - أمـراً اعتياديـاً متكـرّراً. كـان قـرار عمـر - مقارنـة بترحـيلات الأوروبيين - محـدوداً، ورحـيماً. ولم يشـمل جنـوب الجزيـرة وجنوبهـا الشرقـي، لم تُعـدّ تلـك المناطق جزءاً من الأراضي الإسلامية المُقدّسة. وعلى خلاف طرد اليهود والمسـلمين مـن إسـبانيا ومن بلدان أوروبية أخرى؛ ليبحثوا لأنفسهم عـن ملجـأ في مكـان آخـر، جـرت إعـادة تـوطين اليهود الجزيرة، ونصاراها، في أماكن، خُصّصت لهم، اليهود في سـوريا وفلسـطين، والنصـارى في العراق. كما أن العملية كانت تدريجيـة، لا فوريـة، وثمـة أخبـار عـن يهـود ونصـارى في خيـبر ونجران لمدة من الزمن، من بعد ذلك القرار.

انتهى الترحيل في الأجل المسمّى، وباتت الحجاز - منذئذٍ، حتّى اليـوم - محظـورة عـلى غير المسلمين. تذهب مدرسة الفقه الإسلامي التي تقبلها الدولة السعودية كما يقبلهـا أسـامة بن لادن وأتباعه، فإن محض وضع غير المسلم قدمه على الـتراب المُقـدّس يُعـدّ عـدواناً كبـيراً. وفيما كان يجري قبول غير المسلمين في بقية أرجاء المملكة، زائرين مؤقّتين، فإنه لا يُسمح لهم بالإقامة الدائمة، أو ممارسة طقوسهم الدينيـة. واستُخدم ميناء جـدة مـدة طويلـة كمنطقـة حجز، يُسمح فيها للدبلوماسيين والقناصل والممثلـين التجـاريين بـالعيش عـلى أسـاس مؤقّـت محدود.

منذ الثلاثينيات؛ حيث اكتُشف النفط، واستُغلّ، وتنامت العاصمة السعودية - الرياض - نموّاً مطّرداً من مدينـة - واحـة صـغيرة إلى مدينـة كـبرى، حصـلت عـدة متغـيّرات، وتـدفّق الأجانب تدفّقاً ملحوظاً، من الأمريكان، بالدرجة الأولى، مؤثرين على جوانـب الحيـاة كافـة في الجزيرة العربية. لا يزال البعض يرى في وجوههم انتهاكاً للحرمات المُقدّسة. ولعل هـذا الأمـر يعنينا في تفسير تنامي حالة الاستياء.

هدّد الصليبيون الجزيرةَ العربية لحقبة قصـيرة مـن الـزمن، في القـرن المـيلادي الثـاني عشر. وبعد هزيمتهم ورحيلهم، بدأ التهديـد التـالي الـذي عُـدَّ كـافراً في القـرن الثـامن

عشر، باندماج القُوّة الأوروبية في جنوب آسيا وظهور الأوروبيين. بعبارة أخرى، أخذ المسيحيون يجوبون شواطئ الجزيرة العربية. كان الإحساس بالغضب - في أقل تقدير - أحد العناصر التي أسهمت في ظهور الحركة الوهابية التي قادها بيت آل سعود مؤسّس الدولة السعودية، وبعث الحياة الدينية في الجزيرة العربية. خلال حقبة النفوذ الإنكلو - فرنسي، ثم هيمنته على الشرق الأوسط في القرنين التاسع عشر والعشرين، حكمت القوى الإمبريالية مصر والسودان والعراق وسوريا وفلسطين. كانوا يقضمون أطراف الجزيرة العربية، في عدن وخليج فارس، لكنهم كانوا من الحكمة؛ بحيث لم يتدخّلوا في شؤون الجزيرة عسكرياً أو سياسياً.

طالما كان هذا التدخّل الأجنبي اقتصادياً حصراً، وطالما كانت المردودات أكثر من مناسبة لتلطيف أيّ شكوى، كان تحمّل وجود الأجنبي ممكناً. غير أن حدود التدخّل تغيّرت في السنوات الأخيرة. لم تعد العوائد - مع تدنّي أسعار النفط، وارتفاع عدد السكان، وتزايد النفقات الحكومية - عوائداً مناسبة، تزايدت الشكاوى، وضجَّ صوتها. ولم يعد التدخّل قاصراً على الاقتصاد.

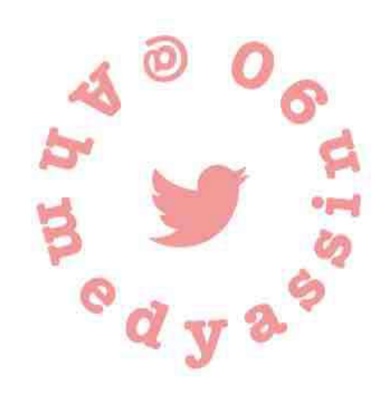
أضافت الثورة في إيران وطموحات صدام حسين والتفاقم المستمر لمشكلات المنطقة، سيّما النزاع الإسرائيلي - الفلسطيني أبعاداً سياسية وعسكرية إلى التدخّل الأجنبي، وأضفت شيئاً من المعقولية على صرخات "الإمبريالية" التي يتزايد سماعنا بها؛ حيث هُدّدت أراضيهم المُقدّسة، مال بعض المسلمين - وأحياناً أعدائهم كذلك - إلى تعريف النضال، بمصطلحات دينية، وإلى رؤية قطعات الأمريكان العسكرية المرسلة لتحرير الكويت، ولإنقاذ العربية السعودية من صدام حسين، على أنهم غزاة ومحتلّون كفرة. أولوية موقع أمريكا التي لا جدال فيها بين قوى عالم الكفر هي التي سلّطت الأضواء على هذا المنظور.

إعلان بن لادن - بالنسبة لأغلبية الأمريكان - إعلان مضحك. تشويه شامل لطبيعة وجود الولايات المتحدة في الجزيرة، وغرضها. كما أنهم سينتبهون إلى أن الإعلان

- ربما - كان لأغلبية المسلمين على نفس المستوى من التشويه المضحك لطبيعة الإسلام، بل لمبدأ الجهاد فيه. يتكلم القرآن الكريم على السلم أسوة بكلامه على الحرب.

تُفسَّر مئات آلاف الأحاديث والأقوال المختلفة المنسوبة إلى الرسول ﷺ بطرق ملتوية أحياناً، فإذا هي دليل واسع المدى، ليس التفسير العسكري والعنفي سوى واحد منها.

في الأثناء، فإن عدداً من المسلمين مستعدون لتصديق هذا التفسير، والقلّة منهم لتطبيقه. لا يحتاج الإرهاب إلاّ لقلة. ومن الواضح أنه لابد للغرب أن يدافع على نفسه بأي وسيلة فعّالة. ولكنْ؛ من المؤكد - عند الاستشارة في وسائل مكافحة الإرهابيين - معرفة القوى التي تُوجّههم.



تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

تعريـف الإسلام

التعميم بصدد الإسلام صعب. فقد استُعملت الكلمة عموماً بمعنيين متصلين بدايةً، ولكنهما مَعنيان منفصلان، كمكافئات للمسيحية والعالم المسيحي. فتشير مفردة إسلام بمعنييها إلى ديانة، منظومة من العقائد والعبادات، وتشير بالمعنى الآخر إلى الحضارة التي نمت وازدهرت في ظل ذلك الدين. وعلى هذا، فإن لكلمة إسلام تشير إلى ما يربو أربعة عشر قرناً من التاريخ، وإلى بليون وثلث البليون من البشر والتقاليد الدينية والحضارية شديدة التباين.

تمثل المسيحية والعالم المسيحي عدداً أكبر من البشر، وردحاً أطول من الزمن، ما يربو على بليوني إنسان، وما يزيد على العشرين من القرون، وتمايزات أشدّ تبايناً. ومع ذلك، فإن بعض التعميمات ممكنة، وقد حصلت - فعلاً- بصدد ما يُدعى - بطريقة أو بأخرى - مسيحية، مسيحية يهودية Judeo- Christian وما بعد المسيحية Post- Christian - ببساطة أكبر - الحضارة الغربية، بينما يصعب التعميم بصدد الإسلام، وقد يكون أحياناً - بمعنى ما - خطراً، لكنه ليس مستحيلاً، وقد يكون مفيداً أحياناً.

يمتدّ الإسلام - مساحةً - من المغرب إلى إندونيسيا، ومن كازخستان إلى السنغال. أمّا في الزمان؛ فيعود إلى ما يربو على أربعة عشر من القرون، إلى دعوة النبي مُحمّد (ص)، وبعثته في الجزيرة، في القرن الميلادي السابع، وتأسيس المجتمع والدولة الإسلاميين بقيادته.

كان الإسلام - في الحقبة التي يعدّها المؤرخون الأوربيون عصراً مظلماً، بين انحلال الحضارة القديمة - الإغريقية والرومانية - ونهوض الحضارة الحديثة، أوروبا - يقود العالم، تؤشر ذلك ممالكه القوية العظيمة، وثراؤه وشتّى صناعاته وتجاراته، وعلومه ورسائله الأصيلة المبتكرة.

كان الإسلام - بما لا تُقاس عليه الدول المسيحية - حلقة وصل بين الشرق القديم والغرب الحديث الذي يعود إليه الفضل فيه. لكن العالم الإسلامي فَقَدَ خلال القرون الثلاثة الماضية هيمنته وقيادته، وتخلّف عن كل من الغرب الحديث والشرق الذي يتحدّث بسرعة خاطفة. تفرض الفجوة الآخذة بالاتساع مشاكل حادّة متزايدة، عملية وعاطفية، وهي فجوة، لم يجد لها الحكّام ولا المفكّرون ولا الثوريون حلولاً ناجعةً بعد.

الإسلام كدين أقرب من أي ديانة آسيوية كبرى كالهندوسية والبوذية والكونفوشيوسية إلى الديانة المسيحية اليهودية من الوجوه كافة. تشترك اليهودية والإسلام في الإيمان بشريعة سماوية، تنظم مجالات النشاط الإنساني كلها، بما في ذلك الطعام والشراب.

يشترك المسيحيون والمسلمون بمجدٍ مشترك، فهم يؤمنون - بخلاف الديانات الإنسانية الأخرى، بضمنها اليهودية - بأنهم المحظوظون الوحيدون أمنةً على الرسالة الإلهية الأخيرة إلى الإنسانية، وهم المسؤولون عن تبليغها إلى العالم.

إن ديانات الشرق الأوسط الثلاث جميعاً - المسيحية واليهودية والإسلام - شديدة القرب من بعضها، وتبدو - حقيقيةً - كأنها ضرب من التقليد الديني ذاته لدى مقارنتها بديانات الشرق الأقصى.

المسيحية والإسلام حضارتان شقيقتان، بأكثر من مجال، فكلاهما تُعنيان بتراث الوحي والنبوة اليهودي المشترك والفلسفة والعلم الإغريقيين، وغذّت كلتيهما تقاليد الشرق الأوسط القديمة. جمع بينهما القتال في الشطر الأعظم من تاريخهما المشترك، لكنهما اكشفتا - حتّى أثناء الحرب والقتال - عن قربهما من بعضهما البعض، والسمات المشتركة التي تربط بينهما، وتميّزهما عن الحضارة الآسيوية الأبعد.

ولكنْ؛ كما أن ثمة أوجه شبه بين الاثنتين، فإن بينهما اختلافات عميقة، وهي أكثر من محض الاختلافات الواضحة في العقيدة والعبادة. وليس من اختلافات أعمق وأوضح من اختلاف هاتين الديانتين، واختلاف أدلتهما المرجعية على الموقف من العلاقة بين الحكومة والدين والمجتمع.

أمر مؤسّسُ المسيحية أتباعَه بـ"تسليم ما لقيصر لقيصر، وما لله لله" (إنجيل متّى - الإصحاح22، الآية 2)، وقد ترعرعت المسيحية، وتنامت - على مدى قرون - بوصفها دين المسحوقين، إلى أن آمن بها الإمبراطور قسطنطين، وصار هو نفسه مسيحياً، وشرع بسلسلة من التغييرات، طالت الإمبراطورية الرومانية، وحوّلت حضارتها، وأسّس دولته وإمبراطوريته. لكنه لم يستحدث كنيسة، ولم يكن بحاجة إلى ذلك. ليس للفصل بين المُلك والكهنوت الذي كان أمراً شديد الأهمية في تاريخ المسيحية الغربية ما يناظره في الإسلام.

أصبح المسلمون في حياة مُحمّد (ص) مجتمعاً سياسياً ودينياً معاً، والنبي رئيس الدولة. بصفته هذه حكم أرضاً وشعباً، أقام العدالة، وجمع النصوص، وقاد الجيوش، وشنّ الحروب، وأرسى الإسلام.

ليس لدى الرعيل الأول من المسلمين - الذين أصبحت أعمالهم تاريخ المسلمين المُقدّس - تاريخ طويل من التعرّض للاضطهاد، ولا تقاليد في مقاومة سلطة الدولة العدائية، بالعكس، كانت الدولة التي تحكمهم دولة الإسلام، وكان تأييد الله واضح لهم، بصورة نصر وسيطرة في هذه الدنيا.

كان القيصر في روما الوثنية هو اللـه. وكان على المسيحيين الاختيار بين اللـه وقيصر. وقد وقعت أجيال، لا حصر لها من المسيحيين، في فخ هذا الاختيار. لم يواجه المسـلمون خيـاراً قاسياً كهذا.

لـيس في السياسـة الإسـلامية الشـاملة - كـما فهمهـا المسـلمون - قـيصر، وإنمـا اللــه، فحسب، هو الملك المطلق، ومصدر الشريعة. وكان مُحمّد ﷺ أثناء حياته رسوله الـذي علّـم باسم اللـه، وحكم. وحين توفى (ص) 632 م انتهـت بعثتـه الروحيـة والنبويـة، وجـاء بكتـاب اللـه إلى الإنسانية. أمّا ما تبقّى من المهمة الدينية؛ فهـو نشر الهدايـة إلى سـبيل اللــه حتّـى يتقبّلها العالم كله في النهاية. كان لابد - في سبيل تحقّق هذه المهمـة - مـن توسـيع السـلطان وقبول أعضاء جدد، في مجتمع المؤمنين، والتمسك بشريعة اللـه. ولتحقيق التسـاوق وإعـداد القيادة اللازمة لهذه المهمة، كان لابد ممّن ينوب عن النبي ﷺ، أو يليه. اختار حمـو النبـي وأول مَن خلفه، أبو بكر، مفردة خليفة لقباً. كانت ولايته في قيـادة المجتمـع الإنسـاني مـؤشّراً على قيام مؤسّسة الخلافة التاريخية العظيمة.

في ظل الخلفاء، تنامى مجتمع المدينة المنورة؛ حيث كـان الرسـول (ص) قـد انتقـل، في قرن واحد، لا أكثر، إلى إمبراطورية واسعة، وبات الإسلام ديناً عالمياً. كانـت الحقيقـة الدينيـة والسلطة السياسية في تجربة المسـلمين الأوائـل - كـما دُوّنـت ونُقلـت إلى الأجيـال اللاحقـة - وحدة، لا تنفصم، تضفي أولاهما على أخراهما قدسية، وتحافظ أخـراهما عـلى أولاهـما. ذكـر آية اللـه خميني ذات مرة: "الإسلام سياسة، أو لا شيء". وقد لا يذهب كل المسلمين إلى هـذا الحدّ، ولكن أغلـبهم يتفقـون عـلى أن اللــه مَعنـيّ بالسياسـة، تؤكـد هـذا الاعتقـاد وتُديمـه الشريعة، القانون المُقدّس الذي يتعامل مع اكتساب السـلطة وممارسـتها وطبيعتهـا الشرعيـة والسلطان وواجبات الحاكم والمحكـوم، مـع مـا نسـمّيه في العـالم الغـربي القـانون الدسـتوري والفلسفة السياسية.

ادّعى التفاعل الطويل بـين الإسـلام والمسـيحية وتشـابههما وتـأثيرهما المتبـادل بالمراقبين - أحياناً - إلى إغفال بعض الفروق المهمة. يُقـال إن القـرآن الكـريم إنجيـل المسلمين، والمسجد كنيسة المسلمين، والعلماء أكليروس المسلمين. هذه الجمل الـثلاث

صادقة جميعاً، لكنها كلها - مع ذلك - مضلّلة تضليلاً خطيراً. يتألف كل من العهد القديم والعهد الجديد من مجموعة كتب مختلفة، وتمتد على حقبة طويلة من الزمن، ويعدّها المؤمنون على أنها تجسيد للهداية السماوية. أمّا القرآن الكريم عند المسلمين؛ فكتاب واحد، نشره في وقت واحد رجل واحد، هو الرسول مُحمّد ﷺ. وبعد جدال ساخن في القرون الإسلامية الأولى، جرى تبنّي المبدأ القائل بأن القرآن ذاته غير مخلوق، وأنه إلهي وثابت، لا يتغيّر. وصار ذلك عقيدة مركزية من عقائد الإيمان.

المسجد كنيسة المسلمين حقاً، بمعنى أنه مكان عبادة جماعية. ولكنْ؛ ليس بوسع المرء الكلام على "المسجد"، كما يتكلم على "الكنيسة" - كمؤسّسة ذات هرمية وقوانين خاصة بها في مقابل الدولة. وقد يوصف العلماء (ويُعرفون في إيران وفي البلدان المتأثرة بالثقافة الفارسية بالملالي) على أنهم أكليروس بمعنى علم الاجتماع، وإلى ذلك، فهم رجال دين محترفون، ويجري اعتمادهم بهذه الصفة بعد تدريبهم ومنحهم الشهادات. ولكنْ؛ لا كهنوت في الإسلام - لا وساطة كهنوتية بين الله والمؤمن، لا ترسيم للكهنة، لا أسرار مُقدّسة، لا طقوس لا يمكن أن يؤديها إلاّ كاهن مرسَّم. كان بوسع المرء في الماضي أن يضيف أنه لا مجالس أو سنوذوس ولا أساقفة للتعريف بالأورثوذوكسية و لا مفتشين لغرضها. لم يعد هذا - في إيران في الأقل - صحيحاً بكامله.

الوظيفة الأساس للعلماء - من مفردة عربية بمعنى "عِلم" - هي المحافظة على الشريعة، وتفسيرها. ظهر منذ أواخر العصور الوسطى ما يشبه كاهن الأبرشية، يتولى إسعاف حاجات بسطاء الناس في المدن والقرى، لكن العلماء كانوا يميّزون هؤلاء، ولا يولونهم ثقتهم. وهم أقرب إلى الغموض ممّا هم إلى الإسلام العقائدي. ظهر في الملكيات الإسلامية المُتأخّرة، في تركيا وإيران نوع من الهرمية الكنسية، لكنه كان بلا جذور في التقليد الإسلامي القديم، ولم يدَّعِ أعضاء هذه الهرميات، وهم قليلو التجربة، بسلطات المطارنة المسيحيين. حدثت في العهود الأخيرة تغيّرات عديدة، بتأثيرات غربية، بصفة أساس، وتطورت مؤسّسات ومهن، يتلبّسها الشكّ بالتشبّه بالكنائس والأكليروس المسيحي. لكن هذه التغيّرات تمثّل مبارحة للإسلام القديم دون عودة إليه.

إذا كان بوسع المرء الحديث عن رجل الدين في العالم الإسلامي بمعنى محدود في علم الاجتماع، فلا معنى - بتاتاً - للحديث عن إنسان متديّن. تعبّر اللغات المسيحية عن محض فكرة المنفصل، أو الذي يمكن أن ينفصل عن المرجعية الدينية، بمصطلحات من قبيل lay: غير إكليريكي أو temporal: دنيوي، أو secular: عَلماني، وهذا غريب على الفكر والتطبيق الإسلاميين. لم تكن في العربية - حتّى وقت قريب نسبياً - مكافئات لهذه المصطلحات، فاستُعيرت من المسيحيين الناطقين بالعربية، أو ابتُكرت حديثاً.

كانت للمجتمع الإسلامي منذ عهد الرسول ﷺ شخصية مزدوجة. فقد كان - من جهة - حكومة قبلية، صارت - بالتدريج - دولة، فإمبراطورية، وكان - في الوقت ذاته، من جهة أخرى - مجتمعاً دينياً، أسّسه النبي ﷺ، وحكمه وُلاته الذين كانوا خلافاءه كذلك. صُلّب المسيح، ومات موسى دون أن يدخل الأرض الموعودة، وما زال لذكريات تلك الوقائع تأثير فاعل في معتقدات أتباعهم المتديّنين، ومواقفهم. أمّا مُحمّد ﷺ؛ فقد نال المجد في حياته، ومات في مُلك وعزّ. لا يثبّت مواقف المسلمين إلاّ التاريخ اللاحق لدينهم. أصبح للمحتلّين البرابرة، ولكن المتحلّين بالاستعداد للتعلّم في أوروبا الغربية ديناً ودولة، الإمبراطورية الرومانية والكنيسة المسيحية. أدرك المحتلّون كلا الأمرين، وعملوا على خدمة أهدافهم، وإسعاف حاجاتهم الخاصة، في إطار بنيتيّ الحكومة الرومانية والديانة المسيحية، وكلاهما يستعمل اللغة اللاتينية. جاء المحتلّون المسلمون العرب الذين سيطروا على الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بدينهم الخاص بهم، وكتابهم الخاص بهم، ولغتهم الخاصة بهم، وأقاموا حكمهم الخاص بهم، وبمجموعة من القوانين الجديدة، ولغة فخمة جديدة، وبنية فخمة جديدة، سلطتها العليا الخليفة. عرّفت هذه الحكومة والدولة بالإسلام، ولا عضوية تامة للفرد في هذه الدولة، إلاّ إذا أشهر إيمانه بالديانة السائدة.

تقع سيرة النبي مُحمّد ﷺ - في هذه المسألة أو سواها، وهي الأنموذج الذي يسعى جميع المسلمين حسني الإسلام إلى تقليده - في قسمين. القسم الأول، أبان سنيّة في مسقط رأسه، مكة (570 - 622) مناوئاً الأوليغارشية الوثنية في المنطقة. وكان - في القسم الثاني بعد انتقاله من مكة إلى المدينة المنورة (622 - 632) - رئيساً للدولة.

تنعكس مرحلتا سيرة النبي مُحمّد ﷺ هاتان، مرحلة المقاومة ومرحلة الحكم في القرآن الكريم؛ حيث تُفرض على المؤمنين في مواضع مختلفة منه طاعة ممثل الله وعصيان فرعون، مثال الحاكم الظالم المتجبّر. ألهَمَ وجها حياة النبي وعمله هذين تقليدين إسلاميين، أحدهما يُخضع الأفراد لمصلحة الدولة بهدوء، والآخر راديكالي ناشط. انعكس كلاهما بإسهاب، في تطور التقليد من جهة، وفي كشف الأحداث من جهة أخرى. لم يكن تقرير مَن هو ممثل لله، ومَن هو فرعون سهلاً دائماً. في محاولة تقرير ذلك، كُتبت الكثير من الكتب، وخيضت الكثير من المعارك. وما تزال المشكلة قائمة. بالإمكان رؤية التقليدين كليهما في معارك زماننا الحاضر، وحروبه.

بين حدّي الطمأنينة والراديكالية ثمة الكثير من المواقف المتحفّظة، بل وغير الواثقة من الحكومة. مثال ذلك اختلاف المواقف الشعبية اختلافاً حادّاً، في القرون الوسطى، من القاضي والمفتي، وهو فقيه مستشار في الشريعة. يقدّم الأدب والفولكلور القاضي الذي يعيّنه الحاكم شخصية فاسدة، بل ومثيرة للسخرية، أمّا المفتي، وهو منصب، ظهر في القرون الوسطى؛ فيعترف بفضله أصحابه، وعامة الناس، ويتمتّع بالتقدير والاحترام. أحد موضوعات سِيَر الرجال المتديّنين - ولدينا منهم مئات الآلاف - هو أن تُعرض على البطل وظيفة حكومية، فيرفضها. يشير عرض الوظيفة عليه إلى علمه وسمعته، فيما يشير رفضه إياها إلى نزاهته.

كان في العهد العثماني ثمة تغيّر مهم. فقد اكتسب القاضي سلطة ونفوذاً كبيرين، بل وجرى ضمّ المفتي إلى سلالة السلطان الحكومي. غير أن الموقف القديم في عدم الثقة بالحكومة استمرّ، وغالباً ما عبّرت عنه الأمثال والحكايات الفولكلورية، بل والأدب الرفيع.

قدّم الإسلام - على مدار ما يربو على الألف سنة - المنظومة الشاملة المقبولة الوحيدة من القواعد والمبادئ التي تنظم الحياة العامة والاجتماعية. حتّى في عهود ذروة النفوذ الأوروبي، في البلدان التي حكمت فيها القُوّة الإمبريالية الأوروبية، أو فرضت هيمنتها عليها، وفي عهود استقلال تلك البلدان، ظلّت الأفكار والمواقف الإسلامية عميقة

التأثير، واسعته. ثمة علامات عدّة اليوم على أن تلك الأفكار والمواقف - ربما - كانت في طريقها إلى العودة مجدّداً، ولو بصيغ معدّلة، لاستعادة سابق هيمنتها.

نلمس في مجال السياسة - الداخلية والإقليمية والدولية على حدّ سواء - أشد الاختلافات الصاعقة بين الإسلام والعالم.

يلتقي رؤساء الدول أو وزراء الخارجية - عدا البلدان الاسكندنافية والمملكة المتحدة، بين الآونة والأخرى - بمؤتمرات القمم البروتستانتية، ولم يُمارَس هذا - قطّ - حكّام اليونان ويوغسلافيا وبلغاريا والاتحاد السوفيتي، متناسين - مؤقّتاً - خلافاتهم السياسية والأيديولوجية، ليعقدوا اجتماعات حول مدى تمسّكهم حالياً، أو سابقاً بالكنسية الأرثوذوكسية. وبالمثل؛ فإن دول شرق آسيا وجنوبها البوذية لا تؤلّف كتلة بوذية في الأمم المتحدة، ولا يؤلفون كتلة في أي من أنشطتهم الأخرى. قد تبدو - محض فكرة، تجمّع كهذا في العالم الحديث - فكرة تنطوي على مفارقة تاريخية، بل وغير معقولة.

إبان توتّرات الحرب الباردة وبعدها، أسّست أكثر من خمسين حكومة إسلامية - ضمّت ملكيات وجمهوريات، محافظين وراديكاليين، تجريبيٍّ رأسمالي واشتراكية، مؤيّدي الكتلة الغربية ومؤيّدي الكتلة الشرقية، وكامل طيف ظلال الحياد - جهازاً معقّداً للمشاركة الدولية والتعاون في مجالات عدة.

قرّر مؤتمر القمة المنعقد في الرباط في أيلول 1969 استحداث هيئة تُعرف باسم منظمة المؤتمر الإسلامي Organization of the Islamic Conference (OIC) لها أمانة عامة دائمة في جدّة، في السعودية العربية. أُنشئت هذه الهيئة حسب الأصول، وتطورت بسرعة في السبعينيات. واهتمت اهتماماً خاصاً بمساعدة البلدان المسلمة الفقيرة، ودعم الأقليات المسلمة في البلدان غير الإسلامية، وبأوضاع الإسلام والمسلمين على المستوى الدولي، أو بحقوق الإنسان الإسلامية، كما قال أحد المراقبين.

تضم هذه المنظمة اليوم 57 بلداً عضواً، وثلاثة بصفة مراقبين. اثنتان من هذه الدول، تركيا وألبانيا، في أوروبا، أو تطمحان إلى ذلك (للبوسنة صفة مراقب، حسب)،

واثنتان، سورينام، (قُبلت 1996) وغويانا (قُبلت 1998) في النصف الغربي من الكرة الأرضية. البقية في آسيا وأفريقيا، ومع بعض الاستثناءات، فإنها نالت استقلالها عن أوروبا الغربية في نصف القرن الأخير، وعن الاتحاد السوفيتي مؤخّراً. وأكثرها ذات أغلبية مسلمة ساحقة، ولو أن بعضها قُبل لتقوية الأقلية المسلمة الكبيرة فيها. عدا هذه الدول، ثمة أقليات مسلمة مهمة في بلدان أخرى، بعضها قريب من الأغلبية؛ كالهند، وبعضها مختلف إثنياً ودينياً؛ مثل شيشان الاتحاد السوفيتي، وَتَتَره. وفي بعض البلدان؛ كالصين، أقلّيتان مسلمتان من نوعين. وتتقبل بلدان أخرى عدة أقليات مسلمة بالهجرة.

كانت - ولا زالت - ثمة حدود لفاعلية منظمة المؤتمر الإسلامي كعامل في السياسة الدولية. لم يُثِر الغزو السوفيتي لأفغانستان 1979 - وهو عدوان فاضح على سيادة الأمة الإسلامية - احتجاجاً واضحاً، بل إن بعض الأعضاء دافع عنه. وفي عهد أقرب، أخفقت المنظمة بزجّ نفسها في عدد من الحروب الأهلية في الدول الأعضاء في السودان والصومال. وليس تاريخ المنظمة في القضايا الإقليمية بالتاريخ الحافل. خاض بَلَدان إسلاميان بين عامي 1980 و1988 حرباً مدمّرة، ألحقت أضراراً جسيمة، بكلّ منهما. لم تفعل منظمة المؤتمر الإسلامي شيئاً لدرء الحرب، ولا لإنهائها. لا تعنى منظمة المؤتمر الإسلامي بالإساءة إلى حقوق الإنسان وسواها من المشاكل الداخلية للدول الأعضاء على خلاف منظمة الدول الأمريكية ومنظمة الوحدة الأفريقية، وانحصرت عنايتها بحقوق الإنسان بالمسلمين الذين يعيشون في ظلّ حكم غير مسلم، سيما في فلسطين. ولكنْ؛ ينبغي أن لا تُغمط المنظمة دورها، فأنشطتها الثقافية والاجتماعية مهمة ومتزايدة، ولعل آليتها في تقديم المشورة المنتظمة للدول الأعضاء تتزايد أهمية؛ إذ تتراجع الحرب الباردة وتأثيراتها المطّردة إلى وراء.

ننتقل من السياسات الدولية والإقليمية إلى السياسات الداخلية. فمع أن اختلاف الإسلام عن العالم في هذا المجال أقل صدماً، لكنه ما زال مهماً. ففي بعض البلدان التي تمارس ديمقراطية تعدّد الأحزاب، ثمة أحزاب ذات مسحة دينية - مسيحية في الغرب،

وهندوسية في الهند، وبوذية في الشرق. ولكن الموجود من هذه الأحزاب أقلية نسبياً، وأقل منها مَن يضطلع بدور مهمّ. للموضوعات الدينية - حتّى في هذه الأحزاب - أهمية ثانوية، في برامجها، وفي استمالتها الناخبين. غير أن الدين - في أغلب البلدان الإسلامية - يظل عاملاً سياسياً كبيراً - في الحقيقة عامل أكبر في الشؤون الداخلية ممّا هو في الشؤون الدولية، بل حتّى الإقليمية، لِمَ هذا الاختلاف؟

أحد الأجوبة الواضحة هو أن معظم البلدان الإسلامية مسلمة بطريقة ومعنى، لم تعد فيهما معظم البلدان المسيحية مسيحية. ما تزال المعتقدات المسيحية ورجال الدين المسيحي الذين يتمسكون بها قُوّة فاعلة في العديد من البلدان المسيحية، بشهادة المجتمع، وعلى الرغم من أن دورهم اليوم ليس كما كان في القرون الماضية، فإنه ليس بالدور التافه مطلقاً. لكن القيادات الدينية في أي بلد مسيحي لا تستطيع التأثير بدرجة الإيمان والمساهمة التي ما تزال طبيعية في ربوع الإسلام. في قلّة من البلدان المسيحية - إن وُجدتْ - تتمتّع القدّاسات الدينية بالحصانة من التعليقات والمناقشات النقدية التي يجري تقبّلها بصورة طبيعية حتّى في المدن الإسلامية ظاهرياً. لقد توسّع هذا الامتياز - حقيقة - كأمر واقع؛ ليشمل البلدان الغربية؛ حيث استقرّت فيها - الآن - جاليات مسلمة، وحيث منحت المعتقدات والممارسات الإسلامية مستوى من الحصانة من النقد، فقدتْه الأغلبيات المسيحية، ولم تمتلكه الأقليات اليهودية قط. الأهم من ذلك أن رجال الدين المسيحي "الأكليروس" فيما عدا استثناءات قليلة، لم يمارسوا، بل لم يدّعوا السلطة العامة التي ما تزال طبيعية ومقبولة في أغلب البلدان الإسلامية.

مستوى الإيمان والممارسة الدينية الأعلى بين المسلمين لدى مقارنته بأتباع الديانات الأخرى جزء من تفسير موقف المسلمين المتفرّد من السياسة. ليس ذلك الموقف هو كل التفسير، طالما لا يبلغ مستوى الالتزام بالدين والممارسات الدينية لدى أفراد، بل جماعات واسعة، في أحسن الأحوال إلاّ مستوى اللامبالاة. ليس الإسلام محض إيمان وممارسات، بل وهوية وولاء تفوقان لدى الكثيرين ما عداهما.

غيّر استيراد مفاهيم الوطنية والقومية الغربية كان كلّه، سطحياً، وأدى إلى خلق سلسة من الدول القومية، تمتد عبر العالم الإسلامي من المغرب إلى إندونيسيا.

غير أن هذا كله ليس كما يظهر على السطح. يكفي مثالان.

وافقت الحكومتان، اليونانية والتركية 1923، بعد الحرب، على حل مشاكل الأقلّيتين بتبادل السكان - أُرسل اليونانيون من تركيا إلى اليونان والأتراك من اليونان إلى تركيا. هذا - في الأقل - ما تذكره كتب التاريخ. الوقائع مختلفة إلى حدّ ما. لا يتكلم البروتوكول الذي وقّعته الحكومتان في لوزان 1923 تجسيداً لاتفاقية التبادل عن "يونانيين" و"أتراك"، بل يعرّف الأشخاص الذين سيجري تبادلهم بأنهم (أتراك خاضعين للديانة الأرثوذوكسية اليونانية، مقيمون في تركيا) و(يونانيون خاضعون للديانة الإسلامية، مقيمون في اليونان). وعليه؛ فإنّ البروتوكول يُعرّف بنوعين من الهوية، حسب - الأول: الخضوع لدولة، والآخر التبعية لدين ما. ولا يشير إلى قومية إثنية، أو لغوية. تعبّر دقّة هذه الوثيقة عن انصباب اهتمامات الموقّعين عليها على التبادل الفعلي. كتب الكثير ممّن يدّعون أن يونانيين من مقاطعة كرمان في شرق تر كيا ويتكلّمون التركية لغةً أماً بالخط اليوناني، وهم يتعبّدون في كنائس أورثوذوكسية. وكتب الكثير ممّن يدّعون أنهم أتراك من اليونان، ولم يكونوا يعرفون من التركية إلاّ القليل، أو لا شيء منها، وكانت لغتهم - عموماً - اليونانية، لكنهم كتبوا بالخطّ التركي - الغربي. ربما كان مراقب غربي معتاد على نظام التصنيف الغربي ليستنتج أنّ ما وقّعت عليه حكومتا اليونان وتركيا لم يكن تبادلاً لجاليتين يونانية وتركية، وإعادة توطينهما، بل ترحيل ونفي مزدوج - للمسلمين اليونانيين إلى تركيا، والمسيحيين الأتراك إلى اليونان. حتّى وقعت قريباً جدّاً، كان لدى اليونان وتركيا، وكلتاهما ديمقراطية تميل إلى اقتباس الطابع الغربي، إحداهما عضو في الاتحاد الأوروبي، والأخرى تسعى إلى عضوية، كانت لديهما فقرة للديانة في وثائق الهوية التي تصدرها الدولة.

المثال الثاني مصر. ثمة القليل من الدول - إنْ وُجدتْ - أفضل ادّعاءً بالقومية. بلاد تحدّدها الجَغرافية والتاريخ تحديداً دقيقاً. تاريخ الحضارات المطرّدة يرقى إلى ما يربو على الخمسة آلاف سنة. لكنْ؛ للمصريين بضع هويات، يعود أغلبها إلى الأربعة عشر قرناً الأخيرة؛ أيْ منذ الفتح الإسلامي لمصر؛ أيْ منذ القرن السابع، وما أعقبه من نشر الإسلام في البلاد، وتعريبها. لم تسُدْ الهوية المصرية إلاّ نادراً، مطوّعة روعة الموقع لهوية الحضارة العربية ولغتها، وفي الشطر الأعظم من تاريخهم، لهوية الإسلام الدينية. مصر كافّة، من أقدم أمم العالم. مصر كدولة قومية كيان حديث، ما زال يواجه تحديات عدّة من الداخل. من أقوى تحديات اليوم، في مصر، وفي بعض البلدان الإسلامية المجموعات الإسلامية الراديكالية، من النوع الذي يوصف وصفاً مُضلِّلاً بـ "الأصوليين".

ارتبط الإسلام في عقول المسلمين وذاكراتهم، منذ حياة مؤسّسه، وفي الكتب المُقدّسة - بعدئذٍ - بممارسة السلطة السياسية والعسكرية. عرف الإسلام القديم فصلاً ما بين أمور الدنيا وأمور الآخرة. بين التديّن والاعتبارات الدنيوية، ولم يميّز مؤسّسات مستقلة ذات هرمية وقوانين خاصة بها لتنظيم المسائل الدينية.

هل الإسلام - إذنْ - ثيوقراطية بمعنى النظر إلى الإله، بصفته مَلِكاً أعلى، ينبغي أن تكون الإجابة نعم. بمعنى الحكم عن طريق رجال الدين، الجواب المؤكد: لا. إنّ ظهور هرمية دينية وادّعاءها أنها سلطة عليا في الدولة ابتكار حديث، وهي إسهامة فريدة لآية الله خميني إيران في الفكر والممارسة الإسلاميين.

كانت لدى الثورة الإسلامية في إيران، مثلها مثل الثورتين الفرنسية والروسية، وهي تشبههما بأكثر من مجال، تركة ضخمة، لا في الداخل وبين أبناء شعبها، فحسب، بل بينها وبين كافة البلدان والشعوب التي تتقاسم وإياها عالم خطاب مشترك. أثارت - مثل الثورتين الفرنسية والروسية - تطلّعات وحماساً عاليين. وعانت - مثل هاتين الثورتين - من رعبها، ومن حربها ضدّ التدخّل. وكان لديها مثلهما، يعاقبتها، وبولشفيكها، مصمّمة

على سحق أي علامة على الذرائعية أو اللينز، وكانت لديها كالثورتين السابقتين، شبكتها من العملاء والجواسيس الساعين بشتّى السبل إلى تعزيز موجبات الثورة، أو في الأقلّ، النظام الذي يُعدّ تجسيداً لها.

أُسيء استخدام مفردة "revolution: ثورة" في الشرق الأوسط الحديث إساءة كبيرة، لأنها استُخدمتْ - أو وُصفتْ بها - أحداث من الأنسب - والأصح - وصفها بالعبارة الفرنسية coup d'etat : انقلاب عسكري، أو بالمفردة الألمانية Putsch أو الإسبانيةpronunciamiento. من المثير أن التجربة السياسية للشعوب الناطقة باللغة الإنكليزية لم تتمخّض عن مصطلح مكافئ. لم يكن ما حصل في إيران أياً من هذه المصطلحات، بل كان - أساساً - حركة تغيير ثوري أصيلة. وقد أخطأت - أسوةً بسابقتيها - أخطاءً شنيعة حتّى وصلت إلى الطغيان في الداخل، والإرهاب والدمار في الخارج. افتقدت إيران - بخلاف فرنسا وروسيا الثائرتين - الوسائل والموارد والمهارات اللازمة؛ كي تصبح قُوّةً وخطراً عالمياً كبيراً. اتجه الخطر السابق الذي توجّه نحو الإسلام نفسه أساساً.

للموجة الثورية في الإسلام مكوّنات عدّة. منها الإحساس بالذلّ: الإحساس بأن مجتمعاً بشرياً، اعتاد النظر إلى ذاته، على أنه محض راعٍ للإيمان بالله الذي يأمره بإيصاله إلى المشركين، مجتمع ألفى نفسه فجأةً، وقد هيمن عليه أولئك المشركون أنفسهم، واستغلّوه، ويظل، حتّى إذا تحرّر من السيطرة أسير أساليب، غيّرتْ حياته، ونقلتْه من الإسلام الحقّ إلى مناهج أُخر. إضافةً للذلّ، ثمة الإحباط الناشئ عن شتّى المعالجات المستوردة من الغرب التي أخفقت الواحدة منها إثر الأخرى.

بعد الذل والإحباط يأتي المكوّن الثالث، ضرورة الانبعاث من جديد. ثقة وإحساس بالقُوّة جديدان. يأتي ذلك من أزمة النفط 1973؛ إذ استخدمت الدول العربية المنتجة للنفط دعماً لحرب مصر على إسرائيل كلاً من تجهيز النفط، وأسعاره سلاحاً شديد التأثير . دعم الثروة والعزّ وتوكيد الذات الناجم عن ذلك عامل آخر جديد - الخزي. فقد

أخذ الزوّار المسلمون - عبر الاحتكاك المباشر بأوروبا وأمريكا - يلاحظون ويصفون ما يرونه على أنه انحلال للحضارة الغربية واطّراد ضعفها.

في وقت، اشتدت فيه قيود الأيديولوجيات المتزلّفة والولاءات المستهلكة والمؤسّسات المتعثّرة، قدّمت أيديولوجيا مُعبّر عنها بمصطلحات إسلامية فوائدَ عدّة: قاعدة مألوفة عاطفياً لهوية الجماعة والتضامن والاستثناء، قاعدة شرعية وسلطة مقبولة، تشكيلاً من المبادئ التي تنتقد الحاضر، وترسيم برامج مستقبل، يمكن تفهمّه على الفور. بوسع الإسلام - بهذه الوسائل - تقديم أكثر رموز التعبئة وشعاراتها تأثيراً، مع قضية ونظام، أو ضدّهما على السواء.

تتمتّع الحركات الإسلامية بميزة هائلة أخرى مقارنة بحركات أخرى معاصرة لها. ففي المساجد، تُعدّ شبكة من الارتباطات والاتصالات تعجز حتّى أكثر الحكومات دكتاتورية عن السيطرة عليها. إنّ الدكتاتورية التي لا رحمة فيها؛ لتساهم حقاً - بلا إرادة منها - في دعم المعارضة المنافسة.

ليست الراديكالية الإسلامية - التي باتت تسميتها بالأصولية الإسلامية - أمراً معتاداً حركة متجانسة واحدة. للأصولية الإسلامية أنواع مختلفة في البلدان المختلفة، بل في البلاد الواحدة أحياناً. ترعى الدول بعض تلك الحركات، وتعمل على نشرها، وتستخدمها هذه الحكومة الإسلامية وتلك، وتروّج لها، ولأغراضها الخاصة، وبعضها حركات شعبية أصيلة ذات قواعد، وبين الحركات الإسلامية التي ترعاها الدولة أنواع عدّة كذلك، بعضها راديكالي، وبعضها محافظ، وكلتاهما مدمّرة، وإجهاضية. ابتدأت الحكومة من موقع السلطة بتأسيس الحركات المحافظة والإجهاضية، ملتمسة حماية نفسها من الموجة الثورية. ويشجّع مثل هذه الحركات المصريون والباكستانيون، وبصفة أخصّ، السعوديون في مناسبات شتّى. ينبثق النوع الآخر - وهو أكثر أهمية بكثير - من القواعد، وله شعبية أصيلة. أولى هذه الحركات سعياً إلى السلطة وأكثرها نجاحاً في ممارستها الحركة المعروفة بالثورة الإسلامية في إيران. تمثل الأنظمة

الإسلامية الراديكالية التي تتولى الحكم اليوم في السودان، وحكمت لبرهة من الزمن في أفغانستان، والحركات الإسلامية، مخاطراً جدية للنظام الذي يتعرّض - أصلاً - للمخاطر في بلدان أخرى، لاسيما في الجزائر ومصر. لا يتخلّف الأصوليون الإسلاميون - بعكس المجموعات البروتستانتية التي جُيِّرت لها تسميتها - عن التيار الرئيس قيد البحث في مسائل الألوهية وتفسير الكتاب. أمّا النقد الموجَّه إليهم؛ فنقد مجتمعي بالمعنى الواسع. فقد نحا العالم الإسلامي - من وجهة نظرهم - منحنىً مغلوطاً. ويدّعي حكّامه بأنهم مسلمون، لكنهم - في الواقع - مرتدّون، أبطلوا الشريعة، واعتمدوا قوانين وعادات شائعة. الحل الوحيد أمامهم العودة إلى المنهج الأصيل للإسلام في الحياة، وأولى خطوات تحقيق ذلك إزالة الحكومات المرتدّة. الأصوليون معادون للغرب، بمعنى أنهم يعدّونه أصل الشر الذي يتأكّل المجتمع الإسلامي، لكن هجومهم الأساس موجّه ضدّ حكّامهم وقادتهم. هكذا كانت الحركات التي استطاعت الإطاحة بالشاه في إيران 1979، والحركة التي قتلت الرئيس السادات بعد ذلك بسنتين. عُدَّت الحركتان مؤشّران على شرّ أعمق، تجب معالجته بتنظيف داخلي. في مصر، قتلوا الحاكم، لكنهم أخفقوا في السيطرة على الدولة، في إيران، دكّوا النظام القائم، وأقاموا نظامهم.

الإسلام من ديانات العالم الكبرى. وقد منح العربَ قيمةً وحياةً، لا تُستَلَب. علّم الناس من شتّى الأعراق على العيش في أخوّة، وعلّم الناس من شتّى العقائد على الحياة جنباً إلى جنب بتسامح معقول. وكان مصدر إلهام حضارة عظيمة، عاش فيها الآخرون إلى جانب المسلمين حياةً خلاّقة مفيدة، حضارة أغنت بمنجزاتها العالم. غير أن الإسلام - شأنه شأن الديانات الأخرى - عرف حقباً، أجّج فيها نفر من أتباعه مشاعر الكراهية والعنف. ومن سوء حظنا، أن نواجه قسماً من العالم الإسلامي، وهو يجتاز حقبة كهذه، وفي زمن تتجه فيه أكثر تلك الكراهية - لا كلها - نحونا. لماذا؟ علينا أن لا نبالغ بإبعاد المشكلة. العالم الإسلامي بعيد عن الإجماع في رفضه الغرب، ومناطق المسلمين في العالم

الثالث ليست المناطق المعادية الوحيدة. ما زال عدد مهم من المسلمين - ربما الأغلبية في بعض المناطق - يشترك وإيانا في بعض المعتقدات والتطلّعات الثقافية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية الأساس، وما زال ثمة حضور غربي مهم - ثقافي واقتصادي ودبلوماسي - في بقاع المسلمين التي يوالي بعضها الغرب. إلاّ أن ثمة دفقاً من الكراهية يضايق الأمريكان، ويستفزّهم، والأهم، يُربكهم.

غالباً ما تتجاوز الكراهية مصطلح معاداة مصالح أو حركات أو سياسات أو حتّى بلدان معينة، وتغدو رفضاً للحضارة الغربية، بصفتها هذه، لا بسبب ما تفعله، بل بسبب ماهيتها، وبسبب المبادئ والقيم التي تمارسها، وتنادي بها. ويجري النظر إلى ذلك - فعلاً - على أنه شرّ متأصّل، ويعدّ الدعاة إلى ذلك ومتقبّلوه "أعداء اللـه".

ينبغي لهذه العبارة كثيرة الورود في تصريحات القادة الإيرانيين - سواء في مرافعاتهم الشرعية، أم في تصريحاتهم السياسية - أن تبدو شديدة الغرابة للأجنبي الحديث، متديّناً كان أم عَلمانياً. إنّ فكرة وجود أعداء لله وحاجته إلى مساعدة البشر للتعرّف عليهم والنيل منهم فكرة صعبة التمثُّل شيئاً ما. لكنها - مع ذلك - ليست غريبة تماماً. بل هي فكرة مألوفة، في المأثورات الكلاسية، وما قبل الكلاسية، وفي العهدين القديم والجديد، والقرآن الكريم كذلك.

اكتسب الصراع بين الخير والشرّ في الإسلام - منذ البداية - أبعاداً سياسية، بل وعسكرية. علينا أن نتذكّر أن مُحمّداً ﷺ لم يكن محض نبي ومعلّم مثل مؤسّسي الديانات الأخرى، بل كان حاكماً وجندياً كذلك. ومن هنا؛ فقد شمل صراعه الدولة وقوّاتها المسلحة. فإذا كان المنافحون في سبيل اللـه يخوضون حرباً مُقدّسة "في سبيل اللـه"، ويقاتلون لله، لزم أن يكون أعداؤهم يقاتلون اللـه، وحيث إن اللـه مبدأ المُلك، فإن الرئيس الأعلى في الدولة الإسلامية، النبي، ومن بعده خلفاؤه، أوصياء اللـه، وبالتالي؛ فإن اللـه بصفته الملك هو الذي يقود الجيش. الجيش جيش اللـه، والأعداء أعداء اللـه. واجب جند اللـه إرسال أعدائه - على وجه السرعة - إلى حيث يعاقبهم اللـه؛ أي إلى الحياة الآخرة.

لعل من الممكن صياغة السؤال المركزي الذي يشغل صنّاع السياسة الغربيين في الوقت الراهن صياغة مبسّطة: هل الإسلام - أصولياً كان أم غير ذلك، يهدّد الغرب؟ قُدِّمت إجابات بسيطة عدّة على هذا السؤال البسيط، وكما هو معهود عن الإجابات البسيطة، فإن أكثرها مُضلِّل. فقد حلَّ الإسلام والأصولية الإسلامية - بعد زوال الاتحاد السوفيتي والحركة الشيوعية، وفقاً لرأي أحد المدارس الفكرية - محلهما، بصفته أكبر تهديد للغرب ولمنهج الحياة الغربية. فيما تذهب مدرسة فكرية أخرى إلى القول بأن المسلمين - وبضمنهم الأصوليون الراديكاليون - أناس محترمون أساساً، محبّون للسلام، أتقياء، ما عاد بعضهم يطيق صبراً على كل ما أنزلناه بهم - نحن الغربيين - من ويلات. لقد اخترنا نحن معاداتهم؛ لأننا نحسُّ حاجةً نفسية لاتخاذ عدوّ، يحل محل الاتحاد السوفيتي الذي ولّى.

في كلتيّ وجهتي النظر شيء من الصحة، وكلتاهما مخطئة خطأً خطيراً. ليس الإسلام - من حيث هو - عدو للغرب، وثمة أعداد متزايدة من المسلمين - لدينا هنا، ولديهم هناك - ممّن لا يتمنّون شيئاً أكثر من تمنّيهم علاقة صداقة أوثق بالغرب، وتطوير المؤسّسات الديمقراطية في بلدانهم، غير أن أعداداً مهمة من المسلمين - سيّما ممّن يُدعون بالأصوليين -، لكن الأمر لا يقتصر عليهم - عدوانيون خطرون، لا لأننا بحاجة إلى عدوّ، بل لأنهم هم بحاجة إليه.

حدثت في السنوات الأخيرة بعض التغييرات في المفاهيم، وبالتالي؛ في التكتيكات في صفوف المسلمين. ما يزال البعض يرى الغرب - عموماً، وفي قائدته الحالية، الولايات المتحدة خصوصاً - عدوّ الإسلام القديم الذي لا سبيل إلى مصالحته، والعائق الجدّي الأوحد الذي يحول دون استعادة الإيمان بالله وبشريعته في الداخل، وبنصره الكوني الشامل. ليس أمام هؤلاء من سبيل سوى الحرب حتّى الموت لتحقيق ما يرونه واجبهم الديني. وثمة آخرون ممّن يظلّون مسلمين ملتزمين ومَعنيين بما يطرأ على المجتمع الغربي من تصدّعات، لكنهم يرون محاسنهم وروحهم المتطلّعة التي أثمرت العلوم التكنولوجيا

كذلك، ويعنون باهتمامه بالحرية التي أدت إلى ظهور الحكومات الديمقراطية. يسـعى هـؤلاء - فيما يحافظون على معتقداتهم وثقافتهم الخاصة بهم - إلى مشاركتنا الوصول إلى عـالم أكـثر حرية، وأفضل حالاً. ثمة فئة ثالثة ترى في الغرب عدوّها الرئيس، وأصل الشرور جميعـاً، لكنهـا - مع ذلك - تعنى بقوته، وتسعى إلى ترتيبـات مؤقّتـة للاسـتعداد لمنازلتـه الأخـيرة اسـتعداداً أفضل. علينا تجنّب الخلط بين الفئتين الثانية والثالثة.


@Ahmedyassin90

دار الحرب

سادت - في تاريخ الإنسانية - حضارات عدّة، ثم بادت - الصين والهند واليونان وروما، ومن قبلهم، حضارات الشرق الأوسط القديمة. كانت الحضارة الإسلامية - إبان القرون التي يسمّيها التاريخ الأوروبي باسم القرون المظلمة - الحضارة الأكثر تقدّماً في العالم دون أدنى ريب. ربما ساوت حضارتا الصين والهند حضارة الإسلام، بل ربما تفوّقتا عليها من بعض الوجوه، لكنهما ظلّتا - أساساً - محدودتين بمنطقة واحدة، ومجموعة إثنية واحدة، فكان تأثيرهما - بالتالي - على بقية العلم الباقية محدوداً. بينما كانت الحضارة الإسلامية - بالمقابل - حضارة عالمية؛ من حيث مظهرها الخارجي، وواضحة العالم في تطلّعاتها.

من الفرائض التي عهدها النبي ﷺ إلى المسلمين الجهاد. اشتقّت هذه المفردة من الجذر العربي ج - هـ - د، ومعناها الأساس الكدح، أو بذل غاية الجهد. وغالباً ما تستعملها النصوص القديمة بمعنى قريب من معنى النضال ، ولذلك تُستعمل بمعنى القتال أيضاً. وعادة ما أوردها القرآن الكريم بصيغة "جهاد في سبيل الله" (التوبة - الآية 24 والممتحنة - الآية1) مثلاً، وقد فُسِّرت

بطرق شتّى؛ لتعني الجهاد الروحي والقتال المسلّح. من السهل - عادة - فهم المعنى المقصود من هذين المعنيين اعتماداً على السياق.

كثيراً ما ترد هذه المفردة بهذين المعنيين المنفصلين المتصلين، في سور القرآن الكريم الأقدم التي تعود إلى العهد الملكي حين كان النبي ما زال يقود أقلية صغيرة، تصارع أوليغارشية وثنية مسيطرة، كان للمفردة المعنى المفضل لدى المفسرين المحدثين، أي الجهاد المعنوي. فيما أصبحت للسور اللاحقة التي نزلت في المدينة المنورة - حيث كان النبي يرأس الدولة ويقود جيشها - ظلال معنى أكثر عملية ووضوحاً. لا جدال في معناها العسكري في العديد من تلك السور. ومن الأمثلة الجيّدة على ذلك الآية 95- النساء ﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيما﴾. نجد مثل ذلك في سورة الأنفال آية (72) وسورة التوبة في الآيات (41 و81 و88) وسورة التحريم في الآية (9) وغيرها.

يفسّر بعض المسلمين المعاصرين - سيّما حين يخاطبون الأجانب - فريضة الجهاد بالمعنى الروحي والمعنوي. وفسّرت أغلبية المرجعيات الإسلامية المبكرة؛ إذ عرضت لآيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية ذات الصلة بالجهاد بالمصطلحات العسكرية. تجيز الشريعة الإسلامية شنّ الحرب على أصناف أربعة من الأعداء: الكفّار والمرتدّين والعاصين وقاطعي الطريق. وعلى الرغم من شرعية هذه الأصناف الأربعة، فإن منازلة الصنفين الأولين فحسب يُعدّ جهاداً. الجهاد - إذنْ - فرض ديني. ميّز الفقهاء المسلمون القدامى في مسألة الحرب المُقدّسة بين الحرب الهجومية والحرب الدفاعية. الجهاد في الحرب الهجومية فريضة على المجتمع الإسلامي ككلّ، لذا؛ قد يؤديها المتطوعون والمحترفون. بينما يصبح الجهاد في الحرب الدفاعية فريضة على كل قادر عليه بدنياً. هذا هو المبدأ الذي ذكّر به أسامة بن لادن في إعلانه الحرب على الولايات المتحدة.

فُسِّر الجهاد في الأعمّ أبين الشطر الأعظم من الأربعة عشر قرناً من التاريخ الإسلامي المدوّن بمعنى الصراع المسلّح دفاعاً عن السلطة الإسلامية، أو توسعها. يُقسم العالم في التقليد الإسلامي إلى دارين: دار الإسلام؛ حيث تحكم حكومات إسلامية، وتسوده الشريعة الإسلامية، ودار الحرب، وهي بقية المعمورة، والأهم أن الكفّار هم الذين يحكمونها. المفروض أن فريضة الجهاد مستمرة، لا تعطّلها إلاّ الهدنة، إلى أن يؤمن العالم كله بالإسلام، أو يخضع للحكم الإسلامي. والمجاهدون أهل للجزاء في العالَمين: الغنى في الحياة الدنيا، والجنة في الآخرة.

توضّح الأحاديث النبوية ما ورد في شأن هذه المسألة وسواها في القرآن الكريم. وتشمل السّنن النبوية أفعال الرسول (ص) وأقواله. تتناول أحاديث عدة الحرب المُقدّسة، منها ما يلي:

- الجهاد فريضة عليكم، كائناً مَن يكون الحاكم، تقيّاً أو شقيّاً.
- يوم قَتل على التخوم وليلة، يقضيان شهر صيام.
- قرصة نملة تؤذي الشهيد أكثر من طعنة سيف، ويهلّل لها أكثر من الماء العذب البارد في يوم صيف قائظ.
- مَن يمت ولم يغزُ، مات على شيء من الكفر.
- من معجزات الله على الناس (الذين دخل إليهم الإسلام بالفتح) أنهم يُجرّون إلى الجنة بالأصفاد.
- تعلّموا الرماية، فما بين الهدف والقوس المسافة إلى جنات النعيم.
- الجنة تحت ظلال السيوف.

كما وضعت السّنن النبوية بعض قواعد الحرب وسلوك المجاهدين:

- عاملوا الأسرى بالحُسنى.
- ليس النظر أحلّ من جيفة.
- حرّم الله قَتْلَ النساء والأطفال.
- المسلمون عند شروطهم على أن تكون حلالاً[1].

عادة ما تضم رسائل الفتاوى الشرعية القياسية فصلاً عن الجهاد، مفهوماً بالمعنى العسكري على أنه حرب عادية ضدّ الكفّار والمرتدّين. إلاّ أنّ هذه الرسائل توصي بالسلوك القويم واحترام قواعد الحرب في أمور مثل شنّ الهجوم ومعاملة غير المحاربين والأسرى، فضلاً عن المبعوثين الدبلوماسيين.

استُعملت مفردة الجهاد في معظم التاريخ الإسلامي المدوّن - منذ عهد النبي مُحمّد ﷺ فلاحقاً - بالمعنى العسكري أساساً. باشر النبي ﷺ رسالته في مسقط رأسه، مكة، لكنه وصحابته هاجروا إلى المدينة المنورة، بسبب ما عانوه من اضطهاد على أيدي الأوليغارشية الوثنية المسيطرة على مكة. رحّبت القبائل المحلية في المدينة المنورة بالنبي وصحابته، وأقاموا النبي ﷺ حَكَمَاً في البداية، ثم حاكماً. تُسمّى هذه الانتقالة من مكة إلى المدينة بالعربية الهجرة Hijra، ويقع الخطأ - أحياناً - في إملائها، فتأتي بصيغة Hegira، وتُرجمت خطأً بـ Flight.

تبدأ الحقبة الإسلامية ببداية سنة الهجرة. أعلن النبي ﷺ الجهاد - أولاً - على حكّام مسقط رأسه، وانتهى بفتح مكة في رمضان من السنة الثامنة للهجرة الموافق لكانون الثاني من العام 630 من الحقبة المسيحية.

استسلمت القيادة المكية دون قتال تقريباً. وفيما عدا المتّهمين بعدوان معيّن على النبي، أو على أحد المسلمين، ضُمنت سلامة حياة المكيين وممتلكاتهم، شرط التزامهم بالاتفاقية. كانت المهمة التالية توسيع سلطة الإسلام إلى البقية الباقية من الجزيرة، وفي ظل أولياء الرسول ﷺ ، الخلفاء، إلى بقية العالم.

بدت تلك المهمة محتملة، بل ممكنة في القرون الأولى من الحقبة الإسلامية. ففي مدة قصيرة قَصراً ملحوظاً، أطاحت الجيوش الإسلامية الفاتحة بالإمبراطورية الفارسية القديمة والأقاليم المتحدة معها، ونقلتْها إلى يد الخلافة، ممهّدةً سبيل غزو آسيا الوسطى والهند.

في الغرب، لم تكن الإمبراطورية البيزنطية قد سقطت بعدُ، لكنها استُلبت قسماً مهماً من أقاليمها. امتُصّت مقاطعات سوريا وفلسطين ومصر وشمال أفريقيا التي كانت

- يومئذٍ - مسيحية، وأصبحت - بمضي الوقت - إسلامية عربية، واستُخدمت هذه المقاطعات قواعد نحو المزيد من غزو أوروبا، وفتح إسبانيا والبرتغال ومعظم جنوب إيطاليا.

بحلول القرن الثامن، كانت الجيوش الإسلامية الفاتحة تتقدم فيما وراء جبل البرينية نحو فرنسا.

بعد بضعة قرون من الانتصارات الباهرة، أوقفت أوروبا المسيحية الجهادَ العربي أخيراً، وصدّتْه.

في الشرق، استمرّ البيزنطيون في المدينة المسيحية الكبرى، القسطنطينية، بالتصدّي لسلسلة من هجمات العرب. فيما باشر المسيحيون في الغرب عملية إعداد طويلة، تُعرف في التاريخ الإسباني بـ Reconquista، أي إعادة الفتح، التي أدت - في نهاية المطاف - إلى إجلاء المسلمين عن المناطق التي فتحوها في إيطاليا وشبه الجزيرة الأيبيرية. كما جرت محاولة لإعادة فتح الشرق الأوسط، واستعادة مسقط رأس السيد المسيح الذي فتحه المسلمون في القرن السابع. فشلت هذه المحاولة التي تُعرف بالصليبية فشلاً ذريعاً، وسيق الصليبيون إلى الخارج على غير هدى.

لكن الجهاد لم ينتهِ، ودُشِّنت فيه مرحلة جديدة، لا عن طريق العرب هذه المرة، وإنما عن طريق مجنّدي الإسلام المُتأخّرين: الأتراك والتّتر. استطاع هؤلاء فتح مناطق الأناضول التي كانت لمّا تزل مسيحية. وفي مايس 1453 تمكنوا من فتح القسطنطينية التي غدت - منذئذٍ - عاصمة السلاطين العثمانيين، أولياء الخلفاء في الجهاد الإسلامي. استأنف العثمانيون في البلقان والتتر الذين أسلموا في روسيا محاولة فتح أوروبا، من الشرق هذه المرة. بدى لوهلة أن النجاح في مرمى البصر.

لكن المسيحية الأوروبية كانت قادرة من جديد على إخراج المحتلّين، وأن تشنّ - من جديد - هجوماً مضاداً على العالم الإسلامي، بنجاح أكبر. أصبح الجهاد - في هذا الوقت - دفاعياً بالكامل تقريباً - مقاومة إعادة فتح إسبانيا وروسيا، والتصدّي لحركات

المسيحيين الخاضعين للإمبراطورية العثمانية التحرّرية، والدفاع، أخيراً، برأي المسلمين، عن أراضي قلب الإسلام ضدّ هجوم كافر. عُرفت هذه المرحلة بالإمبريالية.

لم يُصَر إلى التخلّي عن الجهاد قط، حتّى في مرحلة النكوص هذه. في 1896، غزا الأفغان منطقة الهندوكوش، أصبحت - اليوم - شمالي أفغانستان. لم يكن سكانها حتّى ذلك الحين مسلمين. ولذلك كانت المنطقة تُعرف لدى المسلمين كافرستان "بلاد الكَفَرَة". أُعيدت بعد الفتح الأفغاني تسميتها، وصار اسمها الجديد نورستان "بلاد النور". مُورس الجهاد خلال المرحلة ذاتها ضدّ السكان غير المسلمين في أفريقيا بوسائل شتّى. إلاّ أنّ فكرة الجهاد وتطبيقها وممارستها كانت في الجزء الأعظم من العالم الإسلامي دفاعية غالباً.

استمرّ استعمال مصطلح الجهاد بالمعنى العسكري الأكثر ذيوعاً إلى العصور الحديثة نسبياً. سمِّيت مدينة بلغراد قاعدة الإمبراطورية العثمانية المتقدمة في الحرب على النمساويين بالاسم المسجوع دار الجهاد. استحدث مُحمّد علي باشا حاكم مصر المدد، في إصلاحه قواته المسلحة وإدارتها في خطوط قتال الفرنسيين والإنكليز أوائل القرن التاسع عشر " war department" وكان اسمها بالعربية ديوان الجهادية، ورئيسها المشرف على شؤون الجهاد ناظر الجهادية. بوسع المرء تقديم أمثلة أخرى، فقدت فيها مفردة الجهاد قدسيتها، ولم تبقَ لها سوى إيماءاتها العسكرية. في العهود الحديثة، أعاد الاستعمال الحديث الحياة لكلّ من معنيي الجهاد، العسكري والمعنوي، وتستعملهما اليوم، وتفهمهما، وتطبّقهما المجموعات المختلفة بطرق متباينة. ومن الواضح أن المنظمات التي تدّعي الجهاد اليوم في كشمير والشيشان وفلسطين وفي أي مكان آخر لا تستعمل الكلمة للإشارة إلى الجهاد المعنوي.

قُدِّم الجهاد - أحياناً على أنه المكافئ الإسلامي للصليبية، ويُعدّ المصطلحان متكافئان، بهذا القدر، أو ذاك. وهذا صحيح بمعنى ما - فقد ادّعى المسلمون والمسيحيون شنّ حروب مُقدّسة في سبيل العقيدة ضدّ عدوّ كافر. ولكنْ؛ ثمة فرق. فالصليبية تطوّر لاحق في تاريخ المسيحية يؤشر - بمعنى ما - مغادرة القِيم المسيحية الأساس التي عبّرت عنها الأناجيل مغادرةً نهائية.

كانت البلدان المسيحية عرضة للهجوم منذ القرن السابع، وفقدت مناطق واسعة لصالح المسلمين. وكانت فكرة الحرب المُقدّسة أو العادلة بالمصطلح الأكثر شيوعاً، فكرة مألوفة منذ القدم. لذا؛ كانت الصليبية في تاريخ الصراع الطويل بين الإسلام والدول المسيحية مُتأخّرة ومحدودة وقصيرة العهد نسبياً. أمّا الجهاد؛ فموجود منذ بداية التاريخ الإسلامي - في الكتاب والسّنّة النبوية وأفعال صحابة النبي ﷺ وخلفائه المباشرين. وقد استمرّ عبر التاريخ الإسلامي محافظاً على جاذبيته إلى اليوم. اشتُقّت مفردة صليبي من صليب طبعاً، وتشير إلى حرب مُقدّسة دفاعاً عن المسيحية. لكنها فقدت ذلك المعنى في العالم المسيحي منذ زمن طويل، وتُستخدم - الآن - بمعنى عام، يُراد به حملة موجّهة أخلاقياً لخدمة الصالح العام. قد يشنّ المرء صليبية لخدمة البيئة، أو من أجل ماء غير ملوّث، أو في سبيل خدمات اجتماعية أفضل، أو دفاعاً عن حقوق المرأة، أو ما شابه. السياق الوحيد الذي لم تعد مفردة صليبي تُستعمل فيه اليوم هو معناها الديني الأصل حصراً. تُستخدم كلمة جهاد بمعانٍ شتّى، لكنها - بعكس الصليبية - حافظت على معناها الأول الأصل.

يُدعى الذين يُقتلون في الجهاد "martyrs: شهداء" باللغة العربية، أو في سواها من لغات المسلمين شهيد. تنحدر مفردة martyr الإنكليزية من martys اليونانية، وتعني "شاهد"، لتصف في الاستعمال اليهودي المسيحي من يعاني العذاب حتّى الموت دون أن يتنكّر لعقيدته. استشهاده - إذنْ - بيّنة، أو شهادة، على إيمانه واستعداده للمعاناة حتّى الموت في سبيله. ويعني مصطلح شهيد العربي "الشهادة" أيضاً، وعادة ما يُترجم بـ martyr، ولكن إيحاءه الدلالي مختلف. يُفسّر مصطلح الشهادة في الاستعمال الإسلامي اعتيادياً بمعنى الموت في الجهاد. وثوابه نعيم الآخرة. وقد وصفتْه النصوص الدينية المبكّرة بشيء من التفصيل. أمّا الانتحار - بالمقابل - فمن كبائر الإثم، ويستحقّ اللعنة الأبدية حتّى لو كان مقترفوه - لولاه - يستحقّون الجنة. ميّز الفقهاء القدماء بين مواجهة موت محقّق على أيدي العدوّ وقتل المرء نفسه بيديه. يؤدي أحدهما إلى الجنة، ويؤدي الآخر إلى الجحيم. عاب بعض الفقهاء الأصوليين المحدثين هذا التمييز، بل رفضوه، لكن

رأيهم لا يحظى بالإجماع أبداً. يخاطر الانتحاري - إذنْ - مخاطرة واضحة في الدقّة الإلهية.

حيث إن الحرب المُقدّسة فرض من فروض الإيمان، فقد اعتنت الشريعة بتنظيمها عناية كبيرة. يحظر على المجاهدين في غزوة قتل النساء والأطفال والشيوخ، ما لم يهاجمهم هؤلاء أولاً. ويحظر عليهم تعذيب الأسرى، أو تقطيع أعضائهم، وعليهم التحذير من استئناف الهجوم من بعد هدنة تحذيراً كافياً، واحترام الاتفاقيات.

تدارس فقهاء العصور الوسطى وعلماء الدين قواعدَ الحرب بشيء من الإسهاب. شملت دراستهم أموراً من قبيل الأسلحة التي يجوز استخدامها، والتي لا يجوز استخدامها.

في بعض نصوص العصور الوسطى مناقشات حتّى لمدى شرعية استخدام الصواريخ والحرب الكيمياوية، تتناول الأولى المنجنيق والقذّافة، فيما تتناول الثانية السهام مسمومة الرؤوس، وتسميم موارد العدوّ المائية. ثمة آراء شديدة التباين بصدد هذه المسائل. يجيز بعض الفقهاء استخدام هذه الأسلحة، ويقيّد آخرون استعمالها، ويحظر فريق ثالث استخدامها. السبب المذكور للقلق من استخدام هذه الأسلحة هو عدم تمييزها من ستصيبه الكارثة. ما من نقطة في النصوص الإسلامية تبيح الإرهاب والقتل. ولم تتناول أيّ مسألة - بقدر علمي - المجازر العشوائية لعابري السبيل.

أكّد الفقهاء على وجوب أن تكون أسلاب الحرب فائدة عارضة، لا هدفاً أساساً. وذهب بعضهم إلى حدّ القول ببطلان الجهاد، وإلغاء محاسنه، أمّا في الحياة الدنيا أو في الآخرة إذا كانت تلك الأسلاب هدفه الأساس. لكي يكون الجهاد فعالاً، ينبغي شنّه "في سبيل الله"، لا التماساً لمصالح مادية. وكثيراً ما يُسمَع التذمّر من استخدام العبيد المغيرين مصطلح الجهاد لتبرير غاراتهم الهادفة إلى التسليب وامتلاك أموال ضحاياهم ملكية شرعية. توصي الشريعة بمعاملة غير المقاتلين بالحسنى، لكنها تمنح المنتصرين حقوقاً واسعة على أموال المهزومين، وعلى أشخاصهم، وأُسَرِهم كذلك. تذهب العادة القديمة

المعروفة في أرجاء العالم كافة إلى استعباد الأعداء الذين يُؤسَرون في الحرب وأُسَرهم، ولآسريهم بيعهم والاحتفاظ بهم لاستخدامهم في أغراضهم الخاصة. عدَّل الإسلام هذه القاعدة، وحصر حقّ الاستعباد بمَن يُؤسر في الجهاد، لا في أي حرب أخرى.

تختلف قواعد محاربة المرتدّين - إلى حدّ ما - عن قواعد محاربة غير المسلمين، فالأولى أشدّ حسماً. المرتدّ أو المارق أسوأ من غير المسلم لدى المسلمين. فغير المسلم لم يعرف الحق، وثمة أمل دائماً في أنه قد يهتدي إليه خيراً. وقد يندمج - في الوقت ذاته - غير المسلم بسماحة الدولة الإسلامية، ويُسمح له بمواصلة ممارسة طقوسه الدينية، بما في ذلك تنفيذ شريعته، على أن تتوافر فيه الشروط الأخرى. المرتدّ هو مَن عرف الدين الحقّ، أياً كان قصر المدة، ثم عزف عنه. لا غفران إنساني لهذه الإساءة، لذلك تذهب الغالبية العظمى من الفقهاء إلى إباحة قتل المرتدّ، إنْ كان ذكراً. أمّا الأنثى؛ فيُكتفى - بسبب من قلة مسؤولية مفترضة فيها - بمعاقبتها عقوبة أخفّ بالجلد، أو السجن. ربما غفر الله برحمته للمارق في الآخرة، إن شاء. أمّا البشر؛ فليس لهم مسامحته. هذا التمييز على شيء من الأهمية اليوم؛ إذ يعلن قادة الميليشيات جهاداً مزدوجاً - ضدّ الأجانب الكفرة، وضدّ المرتدين في الداخل. ترى أغلبية الشعوب المسلمة - إن لم نقل كلها - أغلبية الحكّام المسلمين الذين يسرّنا في الغرب عَدّهم أصدقاءنا أو حلفاءنا خونة، بل الأسوأ من ذلك، مرتدّين.

جرى منذ عهود مبكرة التمييز شرعاً بين المناطق التي ضُمَّت بالقُوّة (بالعربية: عنوةً، المكافئة للمصطلح القانوني الروماني vi et armis) والمناطق التي ضُمَّت صلحاً؛ أي بشكل من أشكال الهدنة، أو الاستسلام دون قتال. تختلف القوانين المتعلقة بالثروات، وبصفة أشمل، بمعاملة سكان المناطق المضمومة حديثاً من بعض الوجوه. وكان يرمز إلى الفرق بينهما، استناداً إلى السّنة النبوية، في المسجد كل جمعة. فيحمل الخطيب في المناطق التي أُخذت عنوةً سيفاً، وفيما أُخذت صلحاً عصا. تظل صورة السيف مهمة. حتّى يومنا هذا، يحمل العلم السعودي شعارين في حقل أخضر: أحدهما النص العربي لعقيدة الإسلام "لا إله إلاّ الله مُحمّد رسول الله"، والآخر تمثيل لا تخطئه العين للسيف.

عرف الفقهاء - منذ عهود معينة - وضعاً وسطاً بين دار الحرب و"دار الإسلام"، هي دار الهدنة "دار الصلح"، أو دار الاتفاق "دار العهد". دار الصلح أو العهد بلدان غير إسلامية، مسيحية عادةً، توصّل حكّامها إلى نوع من الاتفاق مع حكّام المسلمين، يدفعون بموجبه نوعاً من الضريبة أو الأتاوة، تُعدّ مكافئة للجزية أو الضريبة على الأفراد، ويحتفظون بقدر كبير من صلاحيات الحكم الذاتي لشؤونهم الداخلية. كانت الاتفاقية التي عُقدت بين الخلفاء الأمويين في القرن السابع وأمير أرمينيا المسيحي أحد الأمثلة المبكّرة على ذلك. ومن الأمثلة القديمة على دار الصلح أو دار الهدنة الاتفاقية التي عُقدت مع حكّام النوبة المسيحيين التي ما كان عليهم بموجبها دفع ضريبة عن الأفراد، بل تقديم أتاوة سنوية، تتألف من عدد معيّن من العبيد. باختيارهم عدّ الهدايا أتاوات، كان بوسع الحكّام المسلمين ومشاوريهم القانونيين تعديل القانون؛ ليغطي مساحة واسعة من العلاقات السياسية والعسكرية والتجارية مع القُوّة غير المسلحة. لم يتلاشَ هذا المنهج بكامله.

أدرك المسلمون - منذ وقت مبكر - اختلافات معينة بين شعوب دار الحرب. ولم تكن معظم تلك الشعوب المشركة أو الوثنية تمثّل خطراً جدياً على الإسلام، وكان دخولهم فيه أمراً متوقّعاً. كان هؤلاء في آسيا وأفريقيا بصفة أساس. أمّا الاستثناء الرئيس؛ فكان المسيحيون الذين يعرفهم المسلمون أنهم أصحاب ديانة من نوع ديانتهم، وعليهم؛ فهم غرماؤهم الأساس في صراع الهيمنة على العالم. البلدان المسيحية والإسلامية هما الحضارتان المعرفتان دينياً اللتان اختلفتا بسبب من أوجه تماثلهما، لا اختلافهما.

اكتمل بناء أقدم أثر بيئي إسلامي خارج الجزيرة العربية ما يزال قائماً إلى اليوم، قبّة الصخرة، في القدس عام 691 أو 692. يبعث قيام هذا الأثر على مشارف الهيكل اليهودي القديم قريباً من المعالم الآثارية المسيحية، الأضرحة المسيحية المُقدّسة وكنيسة القيامة برسالة واضحة إلى اليهود، والأهم، إلى المسيحيين. أفسد أولو أمر غير مؤهّلين مواطن وحيهم، وإن كانت أصيلة ذات يوم، ولذلك كانت مؤهّلة أن يتسيّدها وحي، يتّسم بالكمال مجسّداً بالإسلام. كما غلب المسيحيون اليهودَ، وسادوهم، كذلك كان ينبغي للدين الإسلامي والخلافة الإسلامية الحلول محل نظام العالم المسيحي عندئذٍ. لتأكيد

هذه المسألة، تُدين الكتابات القرآنية في قبّة الصخرة ما يعدّه المسلمون أخطاء المسيحيين الرئيسة: (**الحَمْدُ لله آلذي لمْ يتخذ صاحبةً وَلاَ وَلَدا**) و{**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ . اللهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ**} (سورة الإخلاص). كان ذلك تحدياً واضحاً للمسيحية في عقر دارها. رأى الكثير من المسلمين، سيما أسامة بن لادن، في وجود القَطَعات العسكرية الأمريكية في الجزيرة العربية تحدياً مماثلاً. لكنه هذه المرة تحدّي المسيحيين للمسلمين.

لتأكيد التحدي القديم للبلاد المسيحية، ضرب الخليفة لأول مرة المسكوكات الذهبية، التي كانت حتّى ذلك الحين حقّاً قاصراً على الإمبراطور الروماني، وممّا له مغزى أن يكون اسم أول عملة معدنية إسلامية، الدينار اسماً مقترضاً من ديناروس **denarus** الرومانية. حملت بعض هذه المسكوكات اسم الخليفة وكنيته: أمير المؤمنين، وآيات القتال ذاتها. كانت الرسالة واضحة. مضى اليهود، ثم المسيحيون من بعد - برأي المسلمين - في طريق الضلال، وانتهجوا سبل الوَهْم، لذا؛ تفوّق الإسلام، آخر وحي إلهي متصف بالكمال على هذين الدينين، وحلّ محلهما. تدين الآيات القرآنية المرقومة على قبّة الصخرة والمسكوكات الذهبية ما هو - برأي المسلمين - أسوأ المفاسد التي لحقت الإيمان القويم. ثمّة - بطبيعة الحال - رسالة إضافية من الخليفة إلى الإمبراطور: "**فَسَدَ إيمانكَ، وأدبرَ زمانكَ. وأنا اليوم حاكم إمبراطورية الله في الأرض مكانكَ**".

إذ وعى الإمبراطورُ الرسالةَ جيّداً، ورأى المسكوكات الذهبية المضروبة، وجد فيها سبباً وجيهاً casus belli للحرب. أجّج خلفاء المسلمين - لما يزيد على الألف سنة من عواصمهم المتتالية في المدينة المنورة ودمشق وبغداد والقاهرة واستانبول - نيران الحرب ضدّ أباطرة القسطنطينية، وفينا المسيحيين، وبأسماء أخرى لاحقاً، في أقصى الغرب. كان كلّ مسمّى من هذه المسمّيات في زمانه الهدف الرئيس للجهاد.

لم يكن مبدأ تطبيق الجهاد على أرض الواقع صارماً وعنيفاً في كل حين. قد تقاطع ما كانت تُعرف أنها اتفاقات هدنة شرعية التزامات الدولة القانونية. لكن اتفاقات الهدنة تلك تختلف قليلاً عمّا يُدعى باتفاقيات السلام التي وقّعتها دول أوروبا المتحاربة في ما بينها. كانت اتفاقات الهدنة تُعقد بين النبي ﷺ وأعدائه الوثنيين، ثم أصبحت تلك

الاتفاقات أساساً لما قد يسمّيه المرء القانون الدولي الإسلامي. لم تكن مسامحة الشريعة للأديان القائمة على وحيّ سابق مِنّة، بل كانت واجباً (سورة البقرة: الآية 256: "**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**"). تفرض الشريعة الإسلامية في البلدان الخاضعة للحكم الإسلامي السماح لليهود والمسيحيين بممارسة دينيهما، وإدارة شؤونهما، لكنهم يخضعون في أمور معينة إلى نقص في الأهلية القانونية، وأهم تلك الأمور الضريبة المفروضة على كل ذَكَر بالغ، وتُدعى الجزية التي فرضها القرآن الكريم: سورة التوبة - الآية 29: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حتّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾، (أي اليهود والنصارى). جرى تفسير الكلمات القلائل الأخيرة شتّى التفسيرات على المستويين النظري والعملي.

ضمّت أوجه عدم اكتمال الأهلية القانونية مسائل أخرى؛ كاتخاذ ملبس أو شارة مُميّزة، وحظر حمل السلاح، وامتطاء الخيول، وامتلاك عبيد من المسلمين، واعتلاء أبنيتهم. لم يكن فرض هذه الأمور - باستثناء المسألتين الأخيرتين ودفع الجزية - فرضاً حاسماً دوماً. تمتّع المسامَحون غير المسلمين الخاضعين للدولة الإسلامية - بدلاً من ذلك - بمدى واسع من صلاحيات الحكم الذاتي في تدبّر أمورهم الاجتماعية الداخلية؛ منها التعليم والضرائب وفرض قوانينهم في الأحوال الشخصية، سيّما الزواج والطلاق والميراث. كانت المعاهدة أو العقد بين الدولة الإسلامية والجماعة غير المسلحة الخاضعة للدولة الإسلامية تُعرف باسم الذمة، ويُدعى أعضاء المجموعة المسامَحة باسم الذِّمّيّين؛ أي أن اليهود والمسيحيين في الدولة الإسلامية القديمة ما يمكن أن نسمّيهم باللغة الحديثة مواطنين من الدرجة الثانية، غير أن المواطنة بالدرجة الثانية التي يؤسّسها القانون والوحي، ويعترف بها الرأي العام أفضل كثيراً من انعدام المواطنة كلياً الذي كان مصير غير المسيحيين، بل حتّى بعض المسيحيين المنحرفين في الغرب.

لم يَحُل الجهاد بين الحكومات الإسلامية والتماس الحلفاء المسيحيين أحياناً ضدّ متمردين من المسلمين، حتّى أثناء الحملات الصليبية.

الفصل الثالث

من الصليبيين إلى الإمبرياليين

الصليبي شخصية طاغية الحضور في وعي كل من القوميين العرب والأصوليين الإسلاميين، في الشرق الأوسط الحديث، وفي خطابهم ، سيّما أسامة بن لادن. لم تكن الحال هكذا دائماً.

كان سقوط القدس في قبضة الصليبيين 1099 مبعث فخر للبلاد المسيحية، وكارثة بالنسبة للمسلمين واليهود الذين كانوا في المدينة كذلك. لم يؤدّ سقوط المدينة - احتكاماً إلى كتابات ذلك العهد التاريخية العربية - إلى زيادة ملحوظة في الاهتمام بالمنطقة. طلب المسلمون المحلّيون العون من دمشق وبغداد، فلم يأتِ. وسرعان ما استجابت الإمارات المسيحية حديثة التأسيس المنتشرة من أنطاكيا إلى القدس إلى لعبة السياسات الشرقية ذات التحالفات مختلفة الأديان، نمط من الندّية بين الأمراء المسلمين والمسيحيين.

لم تبدأ المناهضة القوية للصليبيين التي تمكّنت - أخيراً - من هزيمتهم، وطردهم من المنطقة نهائياً، إلاّ بعد قرن تقريباً. وكان سببها المباشر عمليات تسليب القائد الصليبي رينالد الشاتيلوني Reynald of Chátillon الذي اتّخذ من حصن الكرك - هو

اليوم جنوب الأردن - مأوى له بين عامي 1176 و1187، واستخدمه في شنّ سلسلة من الغارات على القوافل الإسلامية والتجارية في المناطق المجاورة، ومنها الحجاز. ربما كان مؤرخو الصليبية على حقّ في قولهم: إن حافز رينالد كان اقتصادياً، بالدرجة الأولى، أي، الرغبة بالنهب. إلاّ أنّ المسلمين رأوا في حملاته استفزازاً وتحدّياً ضدّ المناطق التي يقدسونها. في خرق الاتفاقية الموقّعة بين ملك القدس الصليبي والقائد المسلم صلاح الدين 1182، هاجم رينالد قوافل مسلمة، وسلّبها، ومن بين القوافل قافلة حجّاج متجهة إلى مكة. كان خطر رينالد على الجزيرة العربية - من وجهة نظر المسلمين - يفوق الخيال، سيّما وأن مجموعة من القراصنة في البحر الأحمر هاجمت سفن المسلمين وموانئ الحجاز التي تقدم خدماتها لمكّة والمدينة المنورّة. تلك الحوافز هي التي حفّزت صلاح الدين على إعلان الجهاد على الصليبيين - صورة حية عن الأهمية الكبرى في الجزيرة العربية للعقلية الإسلامية.

كانت انتصارات صلاح الدين وانتزاعه القدس من أيدي الصليبيين 1187م مصدر إلهام للقادة العرب لردح طويل من الزمن، كما هي اليوم. غالباً ما يشير صدام حسين إلى اثنين من حكّام العراق السابقين، يدّعي أنهما سلفاه في مهمته - صلاح الدين الذي وضع حداً للوعيد الغربي في زمانه بهزيمته الصليبيين وطردهم، ونبوخذ نصّر الذي عامل المشكل الصهيوني معاملة ملائمة وحاسمة.

في 8 تشرين الأول 2002 تحدث رئيس وزراء فرنسا، جان بيير رافارين، في كلمة له في الجمعية الوطنية الفرنسية عن كيفية تمكّن صلاح الدين "من إلحاق الهزيمة بالصليبيين في الجليل، وتحرير القدس. ربما كان استعمال رئيس وزراء فرنسا في وصفه انتزاع صلاح الدين القدس من أيدي الصليبيين مفردة تحرير المثيرة للاهتمام انعكاساً لإعادة التحالفات اليوم، أو الخيار الآخر، تصويباً سياسياً مُتطرّفاً. قد تُعزى هذه الصياغة - في بلد آخر - إلى الجهل بالتاريخ، أمّا في فرنسا؛ فلا".

حتّى أوروبا المسيحية، تحتفي بصلاح الدين، وتثني على فروسيته وكريم معاملته لأعدائه المندحرين. مع أن معاملته الكريمة لم تشمل رينالد الشاتلوني. يوضح المؤرخ

العربي الكبير ابن الأثير الظروف: "مرتان" يقول صلاح الدين "أقسمتُ على قتله، إن ظفرتُ به، حين أراد التوجّه إلى مكة والمدينة مرة، وأخرى حين أسر القافلة المتجهة إلى الحجاز")[1]. بعد نصر صلاح الدين الكبير حيث أُسر العديد من أمراء الصليبيين وكبارهم، أطلق صلاح الدين سراحهم، عزل رينالد الشاتيلوني عن البقية، وقتله، وفصل رأسه عن بدنه بيديه.

يبدو أن صلاح الدين ومَن والاه، بعد أن تكلّل الجهاد بالنصر المؤزّر، واستُعيدت القدس، فقدوا اهتمامهم بالمدينة، بل إن أحدهم تخلّى عنها عام 1229 للإمبراطور فريدريك الثاني كجزء من اتفاقية تسوية عامة بين حاكم المسلمين والصليبيين. ثم استُعيدت من جديد 1244، بعد أن حاول الصليبيون جعلها مدينة مسيحية بحتة. وبعد عهد طويل من الغموض النسبي، عاد الاهتمام بالمدينة في القرن التاسع عشر، أولاً بسبب اختصام القوى الأوروبية بصدد الولاية على المدن المسيحية المُقدّسة، ثم بسبب الهجرة اليهودية الجديدة.

شهدت المرحلة ذاتها أول استيقاظ للاهتمام بين صفوف المسلمين بالحملات الصليبية التي أثارت القليل من الاهتمام الملحوظ إبان وقوعها. سجّل التاريخ العربي الواسع والغني في تلك الفترة وصول الصليبيين ومعاركهم والدول التي أسّسوها، كما ينبغي، لكنه لم يُبدِ اهتماماً، أو اكتفى باهتمام محدود حول طبيعة مغامرتهم، والغرض منها. ولم تذكر الكتابات العربية في تلك الفترة حتّى كلمة حملة صليبية، أو صليبي، بل تشير إليهم بصفتهم الكفّار أو النصارى، أو في الأغلب، الفرنجة، كمصطلح عام للكاثوليك - ولاحقاً البروتستانت - نصارى أوروبا، تمييزاً لهم عن الأورثوذوكس وإخوانهم في الدين الشرقيين.

يبدو الاهتمام بالحملات الصليبية كظاهرة تاريخية مميّزة إلى القرن التاسع عشر، وترجمة كتب التاريخ الأوروبية. ثمة - منذئذٍ - مفهوم جديد للحملات الصليبية، بصفتها أنموذج أولي مبكّر لتوسّع الإمبريالية الأوروبية باتجاه العالم الإسلامي. ويقدّمهم وصف أدقّ كردّة فعل مُتأخّرة جدّاً على الجهاد، سرعان ما نستهم أراضي المسلمين، إلاّ

أن جهود الأوروبيين المُتأخِّرين في مقاومة التقدم الإسلامي نحو البلاد المسيحية، وعكس اتجاهه، كانت أكثر نجاحاً، وبدأت ما أصبحت سلسلة من الانكسارات المؤلمة على حدود العالم الإسلامي.

في ظل الخلافة العربية في القرون الوسطى، وفي ظل السلالتين الفارسية والتركية من جديد، كانت الإمبراطورية الإسلامية أغنى بقاع العالم وأكثرها سطوة وإبداعاً واستنارة، وخلال معظم عهد القرون الوسطى، كانت البلاد المسيحية في وضع دفاعي.

اتسع الهجوم المسيحي المضاد في القرن الخامس عشر. أُجلي التتر عن روسيا، والعرب عن إسبانيا، ولكنْ؛ في جنوبي أوروبا؛ حيث واجه السلطان العثماني البيزنطيين أولاً، ثم الإمبراطور الروماني المُقدّس، كانت القُوّة الإسلامية مسيطرة، وكانت هذه الانتكاسات تُعدّ صغيرة وثانوية. ظل الباشوات الأتراك حتّى القرن السابع عشر يحكمون في بودابست وبلغراد، وكانت الجيوش التركية تحاصر فينا، والقراصنة البربر يشنّون الغارات على السفن والسواحل حتّى إنكلترا وأيرلندا، وفي المحيط حتّى ماديرا وأيسلندا. ساعد الأوربيون القراصنة الذين استقروا لسبب أو لآخر في شمال أفريقيا مساعدة كبيرة، وأطلعوهم على كيفية بناء المراكب التي تمخر المحيطات وبحر الشمال، بل والمحيط الأطلسي، وكيفية إعداد طواقمها. لم يَدُم هذا طويلاً.

ثم جاء التغيّر الكبير. انتهى الحصار التركي لفينا عام 1683 بفشل ذريع، أعقبه انسحاب، ابتدأ بالقيادات أولاً - وهي تجربة جديدة تماماً على الجيوش العثمانية.

أثارت هذه الهزيمة التي تعرضت لها أكبر قُوّة عسكرية في العالم الإسلامي - يومئذٍ - جدلاً جديداً، جدلاً ظل مستمراً - بمعنى ما - منذ ذلك الحين. بدأت المسألة بين صفوف القوات المسلحة العثمانية والنخبة السياسية، ثم المثقّفة لاحقاً، كمداولة لسؤالين: لِمَ قهر العدوّ المسيحي الحقير الجيوش العثمانية المنتصرة أبداً؟ وكيف لها استعادة سالف هيمنتها؟ انتشر الجدل - بمرور الزمن - من النخب إلى حلقات أوسع، من تركيا إلى عدة بلدان أخرى، وتناول شتّى الموضوعات.

كان للاهتمام سبب وجيه. الهزيمة تلو الهزيمة. فإذا حررت القوى المسيحية الأوربية أراضيها، تعقّبت غزاتها السابقين في أراضيهم في آسيا وأفريقيا. كانت حتّى القوى الأوروبية الصغيرة كهولندا والبرتغال قادرة على بناء إمبراطوريات واسعة في الشرق، وتأسيس دور تجاري مهيمن.

سجّل عام 1593 موظف عثماني كان يدوّن الأخبار، واسمه مصطفى أفندي السلانيكي وصول السفير الإنكليزي إلى استانبول. يبدو أن السفير لم يُثِر فيه كبير اهتمام. لكن السفينة التي أبحر بها السفير صدمتْه صدمة كبيرة: "سفينة على درجة من الغرابة حتّى إن مثيلتها لم تدخل ميناء استانبول". هذا ما كتبه، مضيفاً: "لقد قطعت 3.700 ميلاً بحرياً، وحملت ثلاثة وثمانين مدفعاً، وأسلحة أخرى... كانت أعجوبة العصر التي لم يَرَ أو يذكر أحد شبيهة لها"[2]. مصدر التعجّب الآخر كان العاهل الذي بعث السفير: "حاكم جزيرة امرأة تحكم مملكتها التي ورثتْها .... بسلطة تامة".

بعض التفصيلات الأخرى التي لم يذكرها المؤرّخ مهمّة كذلك. فقد كانت الملكة إليزابيث عيّنت السفير المشار إليه رسمياً فعلاً، لكن إحدى الشركات التجارية هي التي اختارتْه، وتحمّلت نفقاته - ترتيب مفيد، في وقت كانت فيه التجارة المحور الأساس لاهتمام العالم الغربي بالشرق الأوسط. كان التوسّع الاقتصادي والتحديث التقني المتسارع في الغرب هو العامل الحقيقي، سفن الشحن الماخرة للمحيطات والشركات ذات الرساميل المشتركة - أشّر بداية حقبة جديدة.

كان بوسع السفن الأوروبية المبنية للعمل في الأطلسي أن تتفوّق في أدائها بسهولة على السفن المبنية للعمل في الأبيض المتوسط، أو في البحر الأحمر والمحيط الهندي، حرباً أم تجارة. عادتان غربيتان قدّمتا للتجارة المزيد من الدعم - التعاون والتنافس.

بحلول الثامن عشر، كانت محاصيل الشرق الأوسط التقليدية كالبنّ والسكّر تُزرع في المستعمرات الغربية الجديدة في آسيا والأمريكتين، ويصدّرها التجّار والشركات الغربية إلى الشرق الأوسط. حتّى الحجّاج المسلمين المتّجهين من جنوب آسيا وجنوب

شرقها إلى المدينتين المُقدّستين في الجزيرة، كانوا يحجزون - أحياناً - للسفر على متن سفن أوروبية؛ لأنها أسرع وأقلّ تكاليفاً، وأوفر أمناً وراحة.

تعود بداية التاريخ الحديث في الشرق الأوسط لدى أغلب المؤرّخين، شرق أوسطيين كانوا أم غربيين إلى عام 1798؛ حيث نزلت الثورة الفرنسية بشخص جنرال شاب، يُدعى نابليون بونابرت بمصر. خلال مدة، يلفت قصرها النظر، استطاع الجنرال نابليون وحملته الصغيرة فتح البلاد، واحتلالها، وحكمها. قبل هذا، كانت ثمة هجمات وتراجعات وضياع أراض على الحدود البعيدة؛ حيث واجه الأتراك والفرس النمساويين والروس. لكن احتلال قُوّة غربية صغيرة أحد بلدان قلب الإسلام كان صدمة عميقة. وكان جلاء فرنسا - بمعنى ما - صدمة أقوى. لم يجبرها على الرحيل من مصر، لا المصريون، ولا المتسلّطون عليهم الأتراك، بل قطعة صغيرة من الأسطول الملكي البريطاني، يرأسها أدميرال شاب، يُدعى هوراشيو نلسن. كان هذا ثاني درس مرّ، توجّب على المسلمين تعلّمه: ليس بمقدور قُوّة غربية أن تصل وتحتل وتحكم بإرادتها حسب، إلاّ ويكون بمقدور قُوّة غربية أخرى إخراجها.

الإمبريالية ثيمة لها أهمية خاصة في حال الشرق الأوسط، وبخصوصية أكبر في حالة القضية الإسلامية ضدّ الغرب. لكلمة الإمبريالية معنى خاص لدى الشرق أوسطيين. لم يستخدم هذه الكلمة - على سبيل المثال - مسلمو الإمبراطوريات الإسلامية الكبرى - أسّس العرب الإمبراطورية الأولى، وأسّس الإمبراطوريات المُتأخّرة الأتراك الذين ظفروا بأقاليم واسعة والكثير من السكان الذين ضمّوهم إلى دار الإسلام. كانت السيطرة على أوروبا والأوربيين، وبالتالي تمكّنهم من - لا إجبارهم على - اعتناق الدين الحق أمراً مشروعاً تماماً لدى المسلمين. وكان احتلال الأوروبيين المسلمين وحكمهم، والأدهى محاولتهم تضليلهم جريمة وإثماً.

الارتداد في الشريعة الإسلامية من الكبائر، بالنسبة للمضلِّل والمضلَّل معاً. الشريعة واضحة في هذه المسألة، ومُجمع عليها. إذا تنكّر المسلم للإسلام، بل إذا عاد

حديثُ الإسلام إلى سالف ديانته، فالعقوبة الموت. اتّسعت في الأزمان الحديثة فكرة التكفير، وممارستها - أي تشخيص المرتدّين، وشجبهم - اتساعاً كبيراً. ليس مستغرباً في حلقات المُتطرّفين والأصوليين تقرير أن سياسة ما، بل فعلاً أو قولاً، صرّح به مسلم، يبلغ حدّ الارتداد، والنطق بعقوبة الموت بحقّ المتهم. ذلك هو المبدأ الذي توسّلت به الفتوى بحقّ سلمان رشدي، وقاتل الرئيس السادات وآخرين.

مرت الفعاليات الأوروبية في أراضي المسلمين بمراحل عدّة. أولاها التوسّع التجاري، وكما يراه المسلمون، استغلالهم واستغلال بلدانهم أسواقاً ومصادر خامات. ثم جاء الغزو والاحتلال المسلّحان اللذان تمكنت بهما القوى الأوروبية من تأسيس هيمنة مؤثرة على أجزاء مهمة من العالم الإسلامي - الروس في القفقاس، ثم في آسيا الوسطى لاحقاً، والبريطانيون في الهند، وهؤلاء والألمان في ماليزيا وإندونيسيا، وفي المرحلة الأخيرة البريطانيون والفرنسيون في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا.

حكم الإمبرياليون في هذه المناطق مدداً مختلفة - في بعضها، كما في أقصى جنوب آسيا والهند لقرون، وفي مناطق أخرى، كما في البلاد العربية في الشرق الأوسط، لمدد قصيرة نسبياً.

تركوا في الحالتين بصماتهم. بدأ عهد الحكم الإمبريالي الإنكلو - فرنسي في العالم العربي بحكم الفرنسيين الجزائر (1830) والبريطانيون عدن (1839)، واستُكمل بالاحتلال البريطاني لمصر (1882)، وامتداد السيطرة الفرنسية إلى تونس (1881) والمغرب (1911)، والنفوذ البريطاني على الخليج الفارسي، وبلغ هذا العهد ذروته بتقسيم مقاطعات العثمانيين العربية في الهلال الخصيب بين إمبراطوريتين أوروبيتين غربيتين كبيرتين. لم تُلحَق المناطق الجديدة المكتسبة هذه المرة بالأسلوب التقليدي كمستعمرات، أو بلدان تابعة، بل أُنيطت ببريطانيا وفرنسا مهمة إدارتها، بصفتهما قوتين منتدبتين، بتخويل من عصبة الأمم، ومهمتهما الواضحة: إعدادهما للاستقلال. كان هذا مشهداً شديد القِصر، بدأ بعد الحرب العالمية الأولى، وانتهى بعد الحرب العالمية الثانية؛ إذ أُنهي

الانتداب، واستقلّت المناطق المنتدب عليها. بقي الشطر الأكبر من شبه الجزيرة العربية خارج الميدان الإمبريالي.

عدَّت أغلبية مسلمي المنطقة تأثير الإمبريالية الأمريكية هـائلاً ومضراً تماماً. لاشـك في كبر التأثير والضرر، لكنهما - ربما - كانا أدنى شموليةً، وأقلّ أحاديـة نظـر، مـمّا كـان للخرافـات الوطنية.

فقد كانت لهما - في النهاية - بعض الفوائد - البنية التحتية والخدمات العامة والنظام التعليمي وبعض التغييرات الاجتماعية كذلك، سيّما إلغاء الرقّ، وتقليص تعـدّد الزوجـات - لا إلغاءه. بالإمكان لمـس أوجـه التقابـل بوضـوح شـديد بمقارنـة البلـدان التـي عانـت مـن نـير الإمبريالية كمصر والجزائر بالبلدان التي لم تفقد استقلالها قطّ كجزيـرة العـرب وأفغانسـتان. تأخّر تأسيس الجامعات في السعودية، وهي اليوم قليلة، يقدّر عـدد السـعوديين اليـوم بــ 21 مليوناً، مقابل ثماني جامعات، أكثر بواحـدة مـن معاهـد التعلـيم العـالي السـبع التـي أسّسـها الفلسطينيون منذ الاحتلال الإسرائيلي لمناطق 1967. ولم تصدر السعودية قانونـاً يلغـي الـرقّ حتّى 1962، ولا يزال موضوع خضوع النساء على مداه الأرحب.

ولكنْ؛ كانت للإمبريالية - دونما شك - عواقب سلبية كبرى. بصفة أشمل، للتـأثير الأوروبي أو الغربي، حتّى على البلدان التي استطاعت المحافظة على استقلالها السـياسي كتركيا وإيران. من خلال تأثيرات التحديث خصوصـاً، دُعمـت سـلطة الدولـة في تقويـة أجهزة المراقبة والقمع والتلقين العقائدي، وأُضعفت - في الوقت ذاته - القوى الوسطى التي تحدّ في التنظيم التقليدي من سـلطة الحكّـام الـدكتاتوريين، أو قضي عليهـا تمامـاً. أدّى التغيير الاجتماعي وانحلال العلاقات والالتزامات الاجتماعية القديمة إلى ضرر كبير، لحـق بـالمجتمع، واسـتحداث مغـايرات جديـدة ومختلفـة أشـد الاخـتلاف، أوضـحتها الاتصالات الحديثة للعيان. لاحظ راصد دقيق النظـر عـام 1832، وهـو ضـابط بحريـة شاب، يُدعى أدولف سليد هذا الفرق بين ما يدعوه النبالة القديمة والنبالة الحديثـة[3].

كان النبلاء القدماء يعيشون في ضِياعهم، أمّا النبلاء الجدد؛ فالدولة ضيّعتْهم. ما يزال هذا صحيحاً في أغلب أرجاء المنطقة اليوم.

مع بدايات القرن العشرين، كان كل العالم الإسلامي تقريباً، على الرغم من محافظة تركيا وإيران على استقلال غير وطيد، ومحافظة بعض البلدان النائية كأفغانستان التي بدت حينها لا تستحقّ عناء الاحتلال على استقلالها كذلك، مندمجاً بأربع إمبراطوريات أوروبية: البريطانية والفرنسية والروسية والهولندية. أجبرت حكومات الشرق الأوسط وأحزابه على تعلّم كيفية دفع أيّ من هؤلاء الغرماء ضدّ الآخر. نجحوا في هذه اللعبة لبرهة من الزمن. وحيث إن الحليفين الغربيين، بريطانيا وفرنسا، ومن ثم؛ الولايات المتحدة، كانت تهيمن على المنطقة هيمنة مؤثرة، فقد التمس معارضو الشرق الأوسط العون طبيعياً من أعداء هذين الحليفين. فالتفتوا إلى ألمانيا في الحرب العالمية الثانية، وإلى الاتحاد السوفيتي إبان الحرب الباردة.

حاولت ألمانيا التي تحالفت - لاحقاً - مع الإمبراطورية العثمانية منذ 1914 تأجيج المشاعر الدينية بين صفوف المسلمين الخاضعين للإمبراطورية الإنكليزية والفرنسية والروسية ضدّ أسيادهم الإمبرياليين، ومما يصبّ - بالتالي - في مصلحة ألمانيا. أدّت الجهود المبذولة إلى نتائج هزيلة، سخر منها سخرية لاذعة المستشرق الألماني الكبير سنوك هيركونيه، بمقالة صحفية مشهورة، بعنوان "الحرب المُقدّسة: صُنع في ألمانيا"[4].

حيث أخفق قيصر، حقّق هتلر - لبرهة من الزمن - نجاحاً ملحوظاً. في أواخر آذار 1933، في بحر أسابيع من تسنّم هتلر السلطة، التقى مفتي القدس، الحاج أمين الحسيني القنصلَ الألماني العام في القدس، د. هاينريش وولف، وعرض عليه خدماته. أبلغ القنصل برلين بالعرض، فنصحتْه برفضه، أو غضّ الطرف عنه. طالما كان ثمة أمل بالحصول على دعم الإمبراطورية البريطانية لألمانيا، كحليف لها، فلا مبرر لمعاداة الإنكليز بإقامة صلات مع من كان حينها الحركة الأولى المناهضة لبريطانيا. لم يقبل عرض

القيادة الفلسطينية إلى ما بعد اتفاقات ميونخ 1928؛ حيث تخلّى هتلر عن أمل، ضم الإنكليز في تحالف آري مع ألمانيا. أصبحت علاقتهما - منذئذٍ فصاعداً، مروراً بأعوام الحرب - متينة جدّاً. أدى المفتي دوراً مهماً في السياسة العربية من مكتبه في القدس، فبيروت، ثم بغداد، فضواحي برلين. نجح رشيد عالي عام 1941، بمساعدة ألمانيا عبر سوريا الخاضعة لحكومة فيشي، لبرهة من الزمن في إقامة نظام عراقي مؤيّد للمحور. هزمتْه قوات الحلفاء، فهرب إلى المانيا. عمل حتّى أنور السادات، باعترافه، جاسوساً لألمانيا في مصر إبان الاحتلال الإنكليزي لها[5].

تركت هزيمة الرايخ الثالث وانهيار مؤسّساته المختلفة فراغاً مؤلماً. إنما من خلال هذا الفراغ - كما يرى البعض - كان اليهود عام 1948 قادرين على إقامة دولتهم، وإلحاق هزيمة مخزية بالجيوش العربية التي أُرسلت للحيلولة دون قيامها. كان لابد من راعٍ وحامٍ جديد، بديل عن الرايخ الثالث، على وجه السرعة، فكان الاتحاد السوفيتي.

ثم انهار الاتحاد السوفيتي؛ لتصبح الولايات المتحدة القُوّة العظمى الوحيدة في العالم. انتهت حقبة الشرق الأوسط التاريخية التي دشّنها بونابرت ونلسن بميخائيل غورباتشوف وجورج بوش الأب. بدا للوهلة الأولى أن حقبة الغريمين الإمبرياليين قد انتهت بانسحابهما - الاتحاد السوفيتي؛ لأنه لم يكن قادراً، والولايات المتحدة لعدم رغبتها بأداء دور الإمبريالي. لكن الأحداث - سيما الثورة الإيرانية وحروب الموجِّه العراقي صدام حسين - أجبرت الولايات المتحدة على الانغماس بشؤون المنطقة بمباشرية أكثر. عدّ الشرق أوسطيون ذلك مرحلة جديدة في اللعبة الإمبريالية القديمة. لم يُبدِ الأمريكان رغبةً في ذلك، وأوضحوا عدم رغبتهم وعدم استعدادهم لأداء دور إمبريالي.

كانت ردة فعل القيادات الإسلامية، في الحكومة أم في المعارضة، على هذا الوضع متباينة. فجاءت الاستجابة الطبيعية لبعضهم التماساً لراعٍ جديد-

خلفاً للرايخ الثالث والاتحاد السوفيتي؛ ليتوجهوا إليه طلباً للتشجيع والدعم والمساعدة في محاربة الغرب.

في الأثناء، انتقلت قُوّة الغرب إلى أقصاه، وبات يتكوّن من الولايات المتحدة أساساً تاركاً لأوروبا القارّية فرصة كبيرة لتسنّم دور المعارض. بل إن بعض الأوربيين ممّن يشاركون الشرق الأوسط، لأسباب خاصة، معاداته للولايات المتحدة وحقده عليها، أبدوا رغبتهم في قبول الدور، إلاّ أنّهم - مع وجود الرغبة لديهم - يفتقدون الوسيلة.

كان انهيار الاتحاد السوفيتي الذي أعقبتْه هزيمة صدام حسين في حرب الخليج 1991 ضربة مدمّرة للحركات القومية العَلمانية، سيّما حركات الفلسطينيين الذين وجدوا أنفسهم، مرة أخرى كما كانوا عام 1945، محرومين من رعاية قُوّة وعون كبيرين لهم في قضيتهم. ولّى الحامي السوفيتي. وتوقّف حتّى أنصارهم المموّلون من العرب في الكويت والعربية السعودية، وقد أغضبهم الدعم الفلسطيني المتحمّس لصدام حسين، لبرهة من الزمن عن الوقوف إلى جانبهم، تاركين الفلسطينيين عزلاء، مُستلَبين ضعفاء. إنّ هذا الموقف هو الذي جعلهم يفكّرون بما لا يمكن التفكير فيه، فدخلوا عملية السلام مع إسرائيل. أنقذ الأمريكان والإسرائيليون منظمة التحرير الفلسطينية إنقاذاً مخزياً، بنظر الأصوليين، وشُجِّعت على الدخول في حوار مُذلّ مع إسرائيل.

أضفى هذا كله مصداقية كبيرة على رؤية الأصوليين للعالم، وتمسكاً كبيراً بقضيتهم. إنهم - ولاسيّما أسامة بن لادن - يفسّرون انهيار الاتحاد السوفيتي بطريقة مختلفة. فالاتحاد السوفيتي - من وجهة نظرهم - هو الذي ربح الحرب، لا أمريكا. ولم يكن الاتحاد السوفيتي - برأيهم - المساعد الكريم في مجمل الصراع ضدّ اليهود والإمبريالية الغربية، بل أصل الشرك والكفر، مضطهد ملايين المسلمين الخاضعين له، ومحتل أفغانستان. ويرون - وهذا غير معقول - أنّ نضالهم في أفغانستان هو الذي هزم الجيش الأحمر الجبار، وساق

السـوفييت إلى الانـدحار والانهيـار. وإذ تخلصـوا مـن أعظـم القـوتين العظيمـين ضرراً وخطـراً، غـدت مهمـتهم التاليـة التعامـل مـع الأخـرى، الولايـات المتحـدة، ووسـيلتهم لحسـم هـذه الحـرب أدوات العـدو الكـافر وعملائـه. اعتقـد الأصـوليون الإسـلاميون - لأسـباب شـتّى - أن محـاربتهم أمريكـا سـتكون مهمـة أبسـط وأسـهل. فقـد أصـبحت الولايـات المتحـدة - مـن وجهـة نظـرهم - فاسـدة أخلاقيـاً، ومتفسّـخة اجتماعيـاً، ومـن ثمّ؛ ضعيفة سياسياً وعسكرياً. لهذا التصوّر تاريخ مثير للاهتمام.



اكتشاف أميركا

من الملاحظ أن ما كان معروفاً عن أميركا في بلاد المسلمين - لمدة طويلة - شيئاً يسيراً.

أثارت رحلات الاستكشاف شيئاً من الاهتمام في البداية - النسخة الوحيدة الباقية من خارطة كريستوفر كولومبس لأميركا، وهي نسخة مترجمة إلى التركية، محفوظة في متحف توبكابي باستانبول.

كتب أحد جَغرافيي القرن السادس عشر كتاباً بعنوان The History of Western India: تاريخ الهند الغربية عن اكتشاف العالم الجديد، وكان من بين أولى الكتب التي طُبعت في تركيا - في القرن الثامن عشر. إلاّ أن الاهتمام كان متواضعاً، ولم يُكتب الكثير عن أميركا بالتركية، أو العربية، أو بسواهما من لغات المسلمين حتّى وقت مُتأخّر نسبياً. بعكس الثورة الفرنسية، لم يلاحظ أحد الثورة الأميركية، إن كان ثمة مَن لاحظها أصلاً، بعد مضي بضع سنوات عليها، إلاّ بصفتها نوعاً من العصيان العسكري المألوف. كتب سفير المغرب لدى إسبانيا ما ينبغي أن يكون أقدم وثيقة عربية عن الثورة الأميركية:

غادر السفير الإنكليزي إسبانيا؛ لأن الحرب شبّت بين إسبان والإنكليز. سبب ذلك هو أن الشعب الأميركي كان يخضع لملك بريطانيا الذي كان - بفضل ما يجنيه منهم من

عوائد - أقوى من كل الشعوب المسيحية الأخرى. يقال إنه زاد من عبء الضرائب المفروضة عليهم، أرسل لهم سفينة موسوقة بالشاي، وألزمهم بشرائه بثمن أعلى. فرفضوا ذلك، وطلبوا منه تقبّل المال المستحقّ له بذمتهم، وأن لا يزيد الضرائب المفروضة عليهم. فرفض ذلك، فتمرّدوا عليه مطالبين بالاستقلال. وأعانهم الفرنسيون، في عصيانهم على الإنكليز آملين من ذلك جرح ملك الإنكليز، وإضعافه؛ لأنه كان الأقوى بين شتّى أعراق الحقبة المسيحية[1].

وقّع سلطان المغرب اتفاقية صداقة مع الولايات المتحدة 1787، وبات لدى الجمهورية الجديدة تعاملات عدة، بعضها ودّي، وبعضها عدائي، وأكثرها تجارية، وكلها محدودة، مع دول إسلامية أخرى.

ورد أول ذكر مدوّن لأميركا بصفتها رمزاً سياسياً في العالم الإسلامي باستانبول في 14 تموز 1793؛ حيث أقام سفير الجمهورية الفرنسية الذي وصل استانبول مؤخّراً حفلاً عاماً، كانت ذروته تحية عسكرية، بإطلاقات مدفعية من سفينتين راسيتين في سيراغلو. كانت السفينتان - كما ذكر تقرير السفير - ترفعان رايات الإمبراطورية العثمانية والجمهوريتين الفرنسية والأمريكية و"رايات قلة من القوى التي لم تلوّث أيديها مع عصبة العاقّين من الطغاة"[2]. وكان سفير فرنسي لاحق لدى استانبول، هو الجنرال أوبيردي بيات "لاحقاً: دي بيات" الذي وصل استانبول 1796، هو نفسه أميركياً بمعنى ما؛ إذ كان قد وُلد في نيو أورليانز، وحارب ضمن صفوف الجيش الأمريكي. كرّس هذا السفير شيئاً من جهوده لنشر أفكار الثورة الأميركية في تركيا.

لكن هذه الأنشطة كانت فرنسية، لا أميركية، وفيما كانت أصداء الثورة الفرنسية تتردّد بالتركية والعربية، كما تردّدت أصداء أفكار وكتابات أخرى في القرن التاسع عشر، ظلّت الثورة الأميركية والجمهورية الأمريكية اللتان ولّدتا تلك الأفكار متواريتين، بل مجهولتين، لم يستثر حتّى الحضور الأمريكي المتزايد - تجّار وقناصل وبعثات تبشيرية ومعلّمين - سوى القليل من الفضول، تكاد كتابات ذلك الزمن وصحافته ألاّ تذكره. ولم

تضم كتب الجَغرافية المدرسية، وأغلبها مترجم أو منقول من أصول أوروبية، سوى مختصرات وقائعية عن نصف الكرة الغربي، ولم تأتِ الصحف إلاّ على إشارات قليلة ومتناثرة لما يقع في الولايات المتحدة التي عادةً ما أُشير إليها بالصيغة الفرنسية لاسمها Etats Unis، وفي العربية Itâzûnî: الومتحدة، أو ما شابه. أضاف كتاب مدرسي نُشر في مصر 1833، ترجمه عن الفرنسية، واعتمده الكاتب والمترجم المعروف الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي (1801- 1873) وصفاً للـ الومتحدة بأنها "دولة تتألف من أقاليم عدة، تجتمع في جمهورية واحدة في أميركا الشمالية. سكانها قبائل، نزحت من ... إنكلترا، واستولت على تلك الأرض. ثم حرّرت تلك القبائل نفسها من قبضة الإنكليز، فباتوا أحراراً مستقلّين في بلادهم. وتُعدّ هذه البلاد إحدى البلدان المتقدمة حضارياً في أميركا. تسمح هذه البلاد لمختلف الجاليات الدينية بممارسة طقوسها. أمّا مقرّ حكومتها؛ فمدينة تُدعى واشنطن"[3].

في أواخر القرن التاسع عشر وبواكير القرن العشرين، أولت الكتب المدرسية والموسوعات من جهة، والصحافة من جهة أميركا مزيداً من الاهتمام، بيد أنه لم يزل اهتماماً محدوداً.

يبدو أن أميركا كانت ما تزال محدَّدة عموماً في إطار الأقليات غير المسلمة. كانت الإشارات إلى أميركا في مجمل الكتابات أو إيجابية أو غير سلبية عموماً، لكنها مقتضبة الوصف.

لم تكن البعثات التبشيرية - بطبيعة الحال - محبّذة في الأوساط المسلمة، لكنّها لم تكن مكروهة إلاّ بالحدّ الأدنى، وبالمقابل؛ بدا أنه لا شيء من عدم الثقة. بل تمكّن بعض الأمريكان العاطلين عن العمل من أن يجدوا لهم - بعد نهاية الحرب الأهلية - فرصاً للعمل في خدمة الحكّام المسلمين، مقدّمين لهم يد العون في تحديث جيوشهم. كان بوسع البعثات التبشيرية الأميركية - على الرغم من مَنَعها تغيير ديانة المسلمين - تحويل بعض المسيحيين من شتّى طوائف الأورثوذكسية إلى البروتستانتية، والأهم، إعداد تعليم ثانوي

وعالي حديثين لأعداد متزايدة من البنين، ثم البنات لاحقاً، لأبناء الأقليات بداية، ولأبناء المسلمين في خاتمة المطاف.

بل إن بعضاً من خريجي هذه المدارس سافر إلى الولايات المتحدة؛ ليواصل تعليمه في كليات وجامعات أميركية. وقد جاء هؤلاء - في البداية أيضاً - من الأقليات المسيحية أساساً، وَتَلَتْهُم - بمرور الوقت - أعداد متزايدة من مواطنيهم المسلمين، بل إن بعضهم كان يتلقى التمويل من حكومات بلدانهم.

جاءت الحرب العالمية الثانية والصناعة النفطية، وتطورت ما بعد الحرب، بأعداد متزايدة من الأميركان إلى البلدان الإسلامية، كما جاءت أميركا أعداد متزايدة من المسلمين، في البداية، بصفتهم طلاباً، ثم كمعلّمين ورجال أعمال وزائرين، وأخيراً؛ كمهاجرين.

قدَّمت السينما، ثم التليفزيون لاحقاً طريقة الحياة الأميركية، أو نمطاً منها، في أقل تقدير لملايين لا حصر لها ممّن لم يكن اسم أميركا يعني لهم شيئاً فيما سبق، ولم يكونوا يعرفونه. ووصلت أبعد أسواق المسلمين شتّى المنتجات الأميركية، سيّما في السنوات التي أعقبت الحرب مباشرةً، حيث تقلّصت المنافسة الأوروبية تقلّصاً كبيراً، ولم تكن المنافسة اليابانية قد ظهرت بعد. كاسبةً زبائناً جدداً، وربما - وهو الأهم - مستحدثةً أذواقاً وتطلّعات جديدة. مثّلت أميركا للبعض الحرية والعدالة والفرصة. فيما مثّلت لشريحة أوسع الثروة والسلطة والنجاح، ولم تعد - في ذلك الوقت - هذه الأمور إثماً، أو حراماً.

ثم جاء التحول الكبير؛ حيث التمس قادة التجديد الديني واسع الانتشار أعداءهم، وشخَّصوهم بصفة أعداء الله، وأطلقوا عليهم "استيطاناً واسماً مكانياً" سكان غربي الكرة الأرضية. بدا - بغتة أو نحوها - أن أميركا غدت العدوّ الأول، تجسيد الشرّ، النقيض الشيطاني لكل ما هو خير، سيّما بالنسبة للإسلام والمسلمين، لِمَ؟

كان من بين مكوّنات حالة معاداة أميركا تأثيرات ثقافية قادمة من أوروبا، وإحدها من ألمانيا، هي التي شكلّت رؤية أميركا بمنظور سلبي. وهي مكوِّن من مكوِّنات مدرسة

فكرية، ضمّت كتّاباً شديدي التباين، منهم رينيه ماريا رلكه، وأوزوالد شبنغلر، وايرنست جنكلر، ومارتن هدجر. كانت أميركا - بمنظور هؤلاء - المثال الجلي على حضارة بلا ثقافة، ثريّة رخيّة البال، ومتقدمة مادياً، لكنها بلا روح، مصطنعة، مجموعة جمعاً، أو في أفضل الفروض، متبنّاة، لم تتنامَ، آلية لا عضوية، معقّدة تقنياً، لكنها تخلو من روح الإنسان وحيويته المتجذرتين، لا أثر فيها لثقافات الشعوب الجرمانية، وسواها من الشعوب "الحية".

حظت الفلسفة الألمانية - سيما فلسفة التربية - برواج واسع بين المثقّفين العرب وبعض المثقّفين المسلمين الآخرين في الثلاثينيات ومطلع الأربعينيات، وكانت معاداة أميركا الفلسفية هذه جزءاً من الرسالة. وكانت النسخة النازية من الأيديولوجيات الألمانية مؤثرة في الأوساط القومية، سيّما بين مؤسّسي حزب البعث في سوريا، وأتباعهم في العراق.

بعد استسلام فرنسا لألمانيا في حزيران 1940، ظلّت المناطق التي سبق انتداب فرنسا عليها في سوريا ولبنان تحت سلطة حكومة فيشي، ولذلك كان وصول ألمانيا إليها سهلاً، فكانت قاعدة لأنشطتهم في العالم العربي. ومن بين تلك الأنشطة محاولة - نجحت لبرهة من الزمن - تأسيس نظام موالي للنازية في العراق.

يعود تأسيس البعث إلى هذه المرحلة. انتهت هذه الأنشطة بالاحتلال البريطاني، واحتلال فرنسا الحرة سوريا ولبنان في تموز 1941، ولكن حزب البعث وأيديولوجياته المتميّزة ظل باقياً.

يتكرّر ورود ثيمة اصطناعية أميركا وافتقارها للهوية القومية الأصيلة كهوية العرب في كتابات حزب البعث، وغالباً ما يثيرها صدام حسين، كما في خطابه في كانون الثاني 2002 مثلاً، وفيما تواصلت الحروب، الحرب العالمية الثانية، ثم الحرب الباردة - اتضحت أكثر القيادة الأمريكية للغرب، وكبرت حصة أمريكا من الكراهية الناجمة عن الحرب.

بعد انهيار الرايخ الثالث، وانتهاء النفوذ الألماني، احتلّت مكانهما قُوّة وفلسفة أخرى أكثر معاداة للأميركان من سابقتيهما - النسخة السوفيتية من الماركسية، بتنديدها،

بالرأسمالية الغربية، وبأميركا، بصفتها الشكل الأكثر تقدماً وخطراً منها. ولم تَحل واقعة معاناة الـروس مـن قسـاوة قبضـة الحكّـام عـلى الإمبراطوريـة التـي فتحهـا القيـاصرة أولاً، ثـم أعـاد السوفييت فتحها، من اتخـاذهم - بنجـاح سـابق - هيـأة المـدافعين عـن الحركـات المناهضـة للإمبريالية التي اكتسحت العالم بعد الحرب العالمية، ورعـاة تلـك الحركـات، لاسـيّما في الشرق الأوسط، لا حصرياً فيه.

بدا في عام 1945 أن الاشـتراكية موجـة المسـتقبل. انـتصر الاتحـاد السـوفيتي في سـوح القتال في أوروبا الشرقية.

في أوروبا الغربيـة، هُـزم حـزب العـمال البريطـاني، بـل وونسـتون تشرشـل العظـيم في انتخابـات 1945. اعتنقـت الحكومـات والحركـات في شـتّى أصـقاع العـالم ضروبـاً شـتّى مـن الاشتراكية على حين غرّة.

بيد أنه، على الرغم من تقديم الرعاة الأجانـب والفلسـفات المسـتوردة العـون المـادي والمعنوي لمعاداة الغرب وأميركا، فإنهم ليسوا السبب في نشوء تلك المعاداة، ومن المؤكد أنهـم لا يفسّرون شيوع موجة معاداة الغرب التي أدّت بالكثيرين في الشرق الأوسط، وفي كـل بقـاع العالم الإسلامي الأخرى إلى تقبّل أفكار كتلك.

لابد أن يكون واضحاً أن ما يحظى بدعم مذاهب مختلفة كل ذلـك الاخـتلاف لم يكـن النظرية النازية العنصريـة التـي لم تسـتهوِ سـوى قلّـة مـن العـرب، ولا الشـيوعية السـوفيتية الكافرة التي لم تجتذب المسلمين، وإنما هو ميلهم الأساس إلى معـاداة الغـرب. كانـت النازيـة والشيوعية القوتين المعارضتين للغرب، كمـنهج حيـاة، أم كقُـوّة مـن قـوى العـالم، وبصـفتيهما هاتين، كان بإمكانهما الاعتماد على تعاطف مَن كان يرى في الغرب عـدوّه الأسـاس، بـل حتّـى التعاون معهم.

لكنْ؛ لِمَ؟ لو انتقلنا من العام إلى الخاص، فليس من نقيصة بعينها في السياسات أو الإجـراءات التـي انتهجتْهـا حكومـات الغـرب هـي التـي أثـارت غضـب الشرق أوسـطيين والشعوب الإسلامية الأخرى المتَّقد الذي عبّروا عنه في شـتّى مواجهـاتهم - الاسـتقلال عـن

الحكم أو الهيمنة الأجنبية وتحرير الموارد - سيما النفط، من الاستقلال الأجنبي، وإقصاء الحكومات والحكّام الذين يُعدّون عملاء للغرب، أو مقلّدين له. ومع ذلك، فإن التخلي عن هذه السياسات وحلّ المشكلات، لن يؤدي - في أفضل الأحوال - إلاّ إلى تلطيف محلي مؤقّت.

غادر الإنكليز مصر، وخرج الفرنسيون من الجزائر، ورحلت كلتاهما عن المناطق العربية الأخرى التي كانت تحت يدها.

أُطيح بالملكية في العراق ومصر، وغادر الشاه الموالي للغرب إيران، وتخلّت شركات النفط الغربية عن سيطرتها على آبار النفط التي كانت اكتشفتها، وطوّرتها، وأقنعت نفسها بأفضل الترتيبات الممكنة مع حكومات هذه البلدان، ومع ذلك، ظل استياء الأصوليين وسواهم من المُتطرّفين من الغرب عموماً مستقراً متزايداً، لا يهدأ.

ربما كان المثال الأكثر شيوعاً على التدخّل الغربي وعواقبه الإطاحة بحكومة مصدَّق في إيران 1953. بدأت الأزمة حين قرّر القائد الوطني الشعبي، بدعم واسع من عموم البلاد، تأميم شركات النفط، سيما شركة النفط الإنكلو - إيرانية الأكثر أهمية بينها. لاشك أن الشروط التي كانت تعمل بها هذه الشركة والشركات النفطية الأخرى صاحبة الامتياز كانت شروطاً غير عادلة، وغير مقبولة حقاً. فقد كانت شركة النفط الإنكلو - إيرانية مثلاً تدفع إلى الحكومة البريطانية من الضرائب أكثر ممّا تدفعه منها إلى الحكومة الإيرانية.

بدأ اهتمام الولايات المتحدة بالموضوع - أولاً - بصفتها حليفاً لبريطانيا، ثم تزايد اهتمامها تدريجياً خوفاً من تدخّل السوفييت في المسألة، لصالح حكومة مصدَّق. لذا؛ قررت الحكومتان البريطانية والأمريكية التخلّص من مصدَّق بانقلاب عسكري عن طريق الاتفاق مع الشاه. لم تَسِر أمور الانقلاب - في البداية - كما ينبغي. فقد ألقى مصدَّق القبض على مبعوث الشاه، وأمر بإلقاء القبض على الجنرال زاهدي قائد الانقلاب والرئيس المرتقب لحكومة الشاه الجديدة. قاد مؤيّدو مصدَّق وأعضاء حزب تودة

الشيوعي لمدة من الزمن تظاهرات شعبية في الشوارع مندِّدين بالشاه وأبيه، هـاتفين "عـودوا إلى بلادكم، أيها اليانكيون". هرب الشاه نفسه وزوجته إلى العراق؛ حيث اجتمـع سراً بالسـفير الأمريكي، ثم طار إلى روما.

في الأثناء، تغيّرت طبيعة التظاهرات في طهران. كانت كلهـا - في البدايـة - ضـدّ الشـاه، بينما بدأ الناس - الآن - يتظاهرون تضامناً معه، سيّما العسـكريون الـذين نزلـوا إلى الشـوارع مؤيّدين للشاه. بعد سلسلة من التظاهرات، أُطيح بمصدَّق؛ ليحل محله زاهدي رئيساً للوزراء.

في 19 آب 1953 أرسلت الأسوشـييتد بـريس برقيـة إلى الشـاه، تحمـل الأنبـاء: "أُطـيح بمصدَّق. القَطَعات العسكرية الإمبريالية تسيطر على طهران. زاهدي رئيس للحكومة". سرعان ما عاد الشاه إلى طهران؛ ليستعيد عرشه.

كانت العواقب - بمعايير المنطقة - معتدلة إلى حدّ بعيد. أُعدم وزير خارجيـة حكومـة مصدَّق، وسُجن عدد من مؤيّديه. أمّا مصـدَّق نفسـه؛ فحـوكم، وعوقـب بالإقامـة الجبريـة في منزله ثلاث سنين. وبعد الإفراج عنه في آب 1956، ظل تحـت مراقبـة الدولـة إلى عـام 1967. عدَّت شريحة واسعة من الموالين للشـاه الشـاه نفسـه صـيغة لبريطانيـا أولاً، ثـم ألعوبـة بيـد الأمريكـان، بسـبب التـدخّل الفعّـال لوكالـة المخـابرات المركزيـة الأميركيـة CIA والمخـابرات البريطانية MI6 في الإطاحة بالنظام وعودة الشاه.

إن كان الأمر كذلك، فإن محركي الدمى لا هم بالذين يعتمد عليهم، ولا هم بالكفوئين. فحين جاءت الثورة الإيرانية 1979 لم يفعل، لا الإنكليز، ولا الأمريكان شيئاً لنجدة الشـاه مـن السقوط. لم تكتفِ الإدارة الأميركية بعدم تقديم المساعدة، بل وأوضحت رأيهـا برغبتهـا في ألاّ تفعل شيئاً. الأكثر درامية، لأنّ الإدارة الأميركية رفضـت - لبرهـة مـن الـزمن - السـماح للشـاه وأسرته باللجوء إلى الولايات المتحدة.

هرب الشـاه مـن طهـران في أواسـط كـانون الثـاني طـائراً إلى المغـرب عـن طريـق القاهرة، وأقام في المغرب مدة قصيرة ضيفاً لدى الملك. غير أن الملك كـان منشـغلاً بـأمور

أخرى، سيّما اجتماع منظمة المؤتمر الإسلامي الذي كـان عليـه استضـافته في الربـاط في أوائـل نيسان. وبناءً على ذلك، فقد طلب الملك الحسن من الشاه مغادرة المغـرب قبـل الثلاثـين مـن آذار. أبلغ الشاه السفير الأمريكي بأنه بات - الآن - راغباً بقبول عرض الـرئيس كـارتر موافقتـه على لجوء الشاه إلى الولايات المتحدة، لا لشي إلاّ ليكتشف أن ذلك العرض قد سُحب، ويبـدو أن سحب العرض كان يقوم على الاعتقاد بأن إقامـة علاقـات طيبـة مـع حكّـام إيـران الجـدد يتقدم على قبول لجوء الشاه وأسرته. لم تَلِن الولايات المتحدة إلاّ حين بات الشاه يحـتضر، وفي أمس الحاجة إلى الرعاية الطبية. أُبلغ الشاه في 22 تشرين الأول 1979 أن بإمكانه التوجّـه إلى الولايات المتحدة. فوصل نيويورك باكورة صباح اليوم التالي متجهاً إلى المستشفى مباشرة. بات يدرك أن وجوده يسبّب مشاكل خطيرة للولايات المتحدة، فغادر البلاد، على الرغم من مرضـه إلى بنما، ونجا - بالكاد - من تسـليمه إلى إيـران، ومـن بـنما، عـاد إلى مصر؛ حيـث تـوفي عـام 1980.

خلصـت مجموعـات شـتّى المنطقـة مـن هـذه الأحـداث إلى درسـين - الأول هـو أن الأميركان كانوا راغبين باستخدام القُوّة والمكر معاً في إقامة حكّام دمـى في الشرق الأوسـط، أو في المحافظة عليهم، أمّا الدرس الثاني؛ فإنهم ليسوا موضع ثقة، يُعتمد عليهم حين تتعرّض تلك الدمى إلى مهاجمة شعوبها مهاجمة خطـيرة؛ إذ يتخلّـون عـنهم بمنتهـى البسـاطة. أثـار أحـد الدرسين الحقد والضغينة، فيما أثار الآخر اشمئزازاً، ربما خطيراً.

من الواضح أن ثمة ما هو أعمق من هذه المآسي المحددة، فأيّاً كان عـدوّها وأهميتهـا، ثمة ما هو أعمق، يجعل كل عدم اتفاق مشكلة، وكل مشـكلة أمـراً يسـتعصي حلّـه. لـيس مـا نواجهه - الآن - محض شكوى من هذه أو تلك من السياسات الأمريكيـة، بـل رفـض وتنديـد، وغضب من كل ما تمثله أميركا في العالم الحديث واحتقاره.

من الشخصيات المهمة في تطور هذه المواقف الحديثة سيّد قطب، المصري الذي أصبح قائداً أيـديولوجياً للأصـوليين المسـلمين، وعضـواً ناشـطاً في المنظمـة الأصـولية المعروفـة باسـم الأخوان المسلمين.

وُلد سيد قطب في إحدى قرى صعيد مصر 1906. ودرس في القاهرة. وعمل مدرّساً لبضع سنين، ثم موظفاً في وزارة التربية المصرية. ونظراً لإمكانيته، فقد أوفد في بعثة دراسية خاصة إلى الولايات المتحدة؛ حيث أقام بها للمدة من تشرين الثاني 1948 إلى آب 1950. بدأت نشاطاته وكتاباته الأصولية بعد وقت قصير جدّاً من عودته من الولايات المتحدة إلى مصر.

بعد انقلاب تموز (يوليو) العسكري 1952، حافظ سيد قطب في البداية على علاقات متينة مع ما يسمّى بالضباط الأحرار، لكنه ابتعد عنهم عندما اصطدمت تعاليمه الإسلامية مع سياستهم العَلمانية. وبعد مناوشات عدّة مع السلطات، حُكم عليه عام 1955 بالسجن لمدة خمسة عشر عاماً. ونتيجة لتوسّط الرئيس العراقي عارف، أُطلق سراحه عام 1964، ونشر واحداً من أعماله المهمة، "معالم في الطريق" في وقت لاحق من ذلك العام.

أُلقي عليه القبض مجدداً في 9 آب 1965. هذه المرة بتهمة الخيانة، وتحديداً، التخطيط لاغتيال الرئيس ناصر. بعد محاكمة قصيرة، حُكم عليه بالإعدام في 21 آب 1966، ونُفّذ الحكم به بعد ثمانية أيام.

يبدو أن إقامة سيد قطب في الولايات المتحدة مرحلة حاسمة في تطوّر أفكاره فيما يتعلق بالعلاقات بين الإسلام والعالم الخارجي، بدقّة أكثر، بعلاقات الإسلام بذاته.

كانت دولة إسرائيل قد تأسّست للتو، وتمكنت من البقاء بالقتال والانتصار في أول حرب من سلسلة الحروب العربية الإسرائيلية. اهتم العالم في هذه الحقبة بالقضاء شبه التام على اليهود في أوروبا التي يحكمها النازيون، وكان الرأي العام في أميركا - كما في الكثير من مناطق العالم - إلى جانب إسرائيل، بصورة ساحقة. كانت أخبار علاقات مرحلة الحرب مع الرايخ الثالث والقادة العرب البارزين كمفتي فلسطين ورشيد عالي العراق ما تزال متداولة، واتجه التعاطف الشعبي؛ ليقف طبيعياً إلى جانب مَن بدوا

كأنهم ضحايا هتلر في نضالهم للخلاص من دمار شركاء هتلر في جرائمه. صدم سيد قطب الدعم الأمريكي لما عدّه انقضاضاً يهودياً على المسلمين، بمشاركة مسيحية في الجريمة.

كانت ردة فعله المصدومة على الحياة الأميركية أكثر إثارة - بصورة أساس آثامها وانحلالها الجنسي وإدمانها ما عدّه تشوّشاً جنسياً. سلّم سيد قطب بالتباين ما بين الروحانية الشرقية والمادية الغربية، ووصف أميركا بأنها صورة مُتطرّفة من الأخيرة. كتب قائلاً إن كل شيء في أميركا، حتّى الدين، يُقاس بمصطلحات مادية. ولاحظ أن ثمة الكثير من الكنائس، لكنه حذّر قرّاءه من فهم عددها فهماً مغلوطاً؛ لأنه لا يعبّر عن مشاعر دينية أو روحية حقة. الكنائس في أميركا - والقول له - تعمل كما تعمل الشركات، تتنافس على الزبائن والشعبية، وتستخدم أساليب المحّال التجارية أو المسارح لجذب الزبائن والجمهور. والنجاح بالنسبة لراعي الكنيسة - أسوةً بمدير شركة تجارية أو مسرح - هو المهم، ويُقاس بالحجم، الضخامة والأعداد. تعلن الكنائس - دون حياء، بهدف جذب الزبائن - عن تقديم أكثر ما يلتمسه الأمريكان - "وقتاً طيباً a good time"، أو "مَرَحاً fun" (أورد الكلمات الإنكليزية في نصّه العربي). النتيجة إقامة صالات الاستجمام الكنسية، بمباركة الرهبان، الرقصات التي يلتقي فيها الجنسان، ويختلطان، ويتلامسان. ويمضي الرهبان إلى ما هو أبعد: يخفتون الإضاءة تمهيداً لزيادة حمّيا الرقص. "ترفع نغمات الغرامافون من لهيب الرقص". هذا ما يلاحظه ويتقزّز منه بوضوح، "تغدو قاعة الرقص دوّامة مضطربة من الأشياء، أذرع تطوّق الأوراك، تلتقي الشفاه والصدور، ويضطرم الجوّ شهوةً". كما اقتبس سيد قطب تقارير كنزي بصدد السلوك الجنسي؛ ليوثّق وصفه وإدانته الفسوق الأمريكي الشامل[4]. قد تفسّر هذه الرؤية للغرب ومناهجه سبب عدّ الإرهابيين المتديّنين قاعات الرقص والنوادي الليلية وسواها من الأماكن التي يلتقي فيها الشبّان والشابات هدفاً مشروعاً. كانت إدانة سيد قطب من الشدة

أنهـا اضـطُرته عـام 1952 إلى تـرك وظيفتـه في وزارة التربيـة. ومـن الواضـح أنّـه انضـمّ - بعد هذا - إلى الأخوان المسلمين.

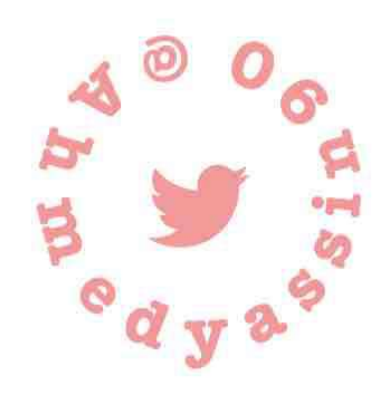
اتجه هجوم كتابات سيد قطب ومواعظه إلى العدوّ الداخلي - مـا أسـماه عصر الجهـل الجديد، بالعربية: الجاهلية، وهذا مصطلح إسلامي قديم، يُطلق على العصر الوثني الذي ساد جزيرة العرب قبل البعثة النبوية والإسلام. يرى سيد قطـب أن جاهليـة جديـدة قـد ابتلعـت الشعوب الإسلامية والفراعنة الجدد - تلميحاً إلى الأنظمة السياسية القائمـة - التـي تحكمهـم، إلاّ أن خطر التهديد الخارجي كان قوياً ومتزايداً.

افترِض أن معاداة سيد قطب لأميركا هي - ببساطة - نتيجـة واقعـة أنـه حـدث أن زار أميركا، وأن ردة فعله كانت لتأتي مشابهة، أو لو كانت وزارته أوفدتْه إلى أي بلـد أوروبي. لكـن أميركا هي المهمة حينئذٍ. وكان يجري المزيد من التعرّف على قيادتها، خيراً أو شراً، للعـالم غـير الإسلامي، ومناقشته. وأصبحت آثام أمريكا وتحلّلها ومـا يترتّـب عـلى ذل مـن تهديـد للإسـلام والشعوب الإسلامية مقالات عقائدية في أوساط الأصوليين الإسلاميين.

يكاد يوجد - اليوم - دعاء قيـاسي باعتـداءات أمريكـا، يُـتلى في بـلاد المسـلمين، في وسائل الإعلام والكـراريس والمـواعظ والخطـب العامـة. مـن الأمثلـة البـارزة عـلى ذلـك، خطاب أحد الأسـاتذة المصريـين في الاجـتماع المشـترك للاتحـاد الأوروبي ومنظمـة المـؤتمر الإسـلامي الـذي عُقـد في اسـتانبول في شـباط 2002. تعـود ورقـة التجـريم إلى التسـوية الأصلية في أميركا الشمالية، وما وصف بتجريد السكان السابقين من ملكياتهم، وإبادتهم، ودوام المعاملة السيئة لمن ظل منهم على قيد الحيـاة، وتواصـل مـروراً باسـتعباد السـود والمهاجرين إلى الولايات المتحدة، واستيرادهـم، واسـتغلالهم (اتهـام مـن الغريـب أن يـأتي من ذلك المصدر تحديداً). وأتى الخطاب على جـرائم الحـرب ضـدّ اليابـان في هيروشـيما وناغازاكي وفي كوريا وفيتنام والصومال وفي كل مكان. ومن بين جرائم العـدوان الإمبريـالي هـذه العمليـات الأميركيـة في لبنـان والخرطـوم وليبيـا والعـراق، ودعـم إسرائيـل ضـدّ

الفلسطينيين طبعاً. وتضمّنت ورقة الاتهام - بصورة أعمّ - دعم طغاة الشرق الأوسط ضدّ شعوبهم؛ كشاه إيران، وهيلاسي لاسي في إثيوبيا، أمّا قائمة الطغاة العرب؛ فقابلة للتعديل، حسب الظروف.

غير أن الاتهام بتحلّل مناهج الحياة الأميركية وتفسّخها وما يشكّله ذلك من خطر على الإسلام هو الأقوى من بين هذه الاتهامات. أصبح هذا التهديد الذي شكلّه تاريخياً سيد قطب جزءاً اعتيادياً من قاموس الأصوليين الإسلاميين، وأيديولوجيتهم، وأوضح ما يكون في لغة الثورة الإيرانية. هذا هو المقصود بمصطلح الشيطان الأكبر الذي أطلقه المرحوم آية الله خميني على الولايات المتحدة. ليس الشيطان في التصوير القرآني إمبريالياً، أو استغلالياً. إنه غويّاً، **(الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس)** "سورة الناس - الآيتين 3-4".



تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

الشيطان والسوفيت

أوضح حادث الباكستان عام 1979، دور أمريكا الجديد، وتفهّم الشرق الأوسط له، بجلاء.

في العشرين من تشرين الثاني 1979، اعتصمت مجموعة، قوامها ألف مسلم متديّن راديكالي في الحرم المكي، وعصت فيه لمدة من الزمن على قوات الأمن السعودية. كان هدفها المعلن "تطهير الإسلام"، وتحرير أراضي الجزيرة المُقدّسة من "العصبة الملكية الكافرة" والقيادات الدينية الفاسدة التي تدعمهم. ندّد قائد المجموعة في حديث له عبر مكبّرات الصوت بالموالين للغرب قائلاً: إنهم يدمّرون القِيم الإسلامية الأصولية، وبالحكومة السعودية، بصفتها شريكتهم في الجريمة. ودعا إلى العودة إلى التقاليد الإسلامية القديمة في "العدالة والمساواة". بعد شيء من القتال الضاري، قُمع المتمرّدون. وأُعدم قائدهم في 9 كانون الثاني 1980 مع اثنين وستّين من أتباعه، بينهم مصريون، وكويتيون، ويمنيون، ومواطنو بلدان عربية أخرى.

في الأثناء، انطلقت تظاهرات مؤيّدة للعصاة في العاصمة الباكستانية إسلام آباد. وجرى تناقل إشاعة - جيّرها آية الله خميني الذي كان يومها يعمل

على تنصيب نفسه قائداً ثورياً لإيران - تقول إن قوات أميركية شاركت في مصادمات مكة. هاجم حشد من المتظاهرين السفارة الأميركية، وقُتل أميركيان ومستخدمان باكستانيان. لماذا ساند خميني تقريراً، لم يكن زائفاً، حسب، بل ومستبعداً جدّاً؟

وقعت هذه الأحداث في سياق الثورة الإيرانية 1979. في 4 تشرين الثاني، احتُلّت السفارة الأميركية في طهران، وأُخذ اثنين وستين أمريكياً رهائن. أُطلق سراح عشرة منهم، نساء وأميركان أفارقة، فوراً. واستمر احتجاز بقية الرهائن لمدة 444 يوماً حتّى أُطلق سراحهم في 20 كانون الثاني 1981. أصبحت دوافع ذلك - وقد حيَّرت الكثيرين حينها - أكثر وضوحاً، بفضل بيانات المحتجزين وسواهم اللاحقة. من الواضح اليوم أن أزمة الرهائن لم تقع لأن العلاقات بين إيران والولايات المتحدة كانت تتدهور، بل لأنها كانت تتحسّن. في خريف 1979، كان رئيس وزراء إيران المعتدل نسبياً، مهدي برزكان قد مهَّد للقاء مستشار الأمن القومي زبغنيو بريجنسكي، برعاية الحكومة الجزائرية. التقى الرجلان في الأول من تشرين الثاني، وذُكر أنه جرى تصويرهما، وهما يتصافحان. بدا أن ثمة احتمالية حقيقية - برأي الراديكاليين خطر حقيقي - في أن يحدث بين البلدين ترتيب ما. اقتحم المحتجّون السفارة، وأخذوا الدبلوماسيين الأمريكان رهائن، ليقضوا أي أمل بلقاءات أخرى. كانوا - حينها في الأقل - ناجحين تماماً.

كانت الولايات المتحدة - لدى خميني - العدوّ الأساس الذي عليه شنّ حربه المُقدّسة ضدّه دفاعاً عن الإسلام. كان عالم غير المؤمنين، يُعدّ - كما في الماضي - القُوّة الوحيدة التي تعترض القضاء السماوي، وتحول دون انتشار الإسلام ونصره المؤزّر. لم يكرّر خميني في كتاباته المبكرة، لاسيّما في كتابه "الحكومة الإسلامية"، 1970 ذكْر الولايات المتحدة كثيراً، ثم، في سياق الإمبريالية أساساً، كمساعدة للإمبراطورية البريطانية الأكثر ألفةً أولاً، ثم وريثةً لها. ثم أصبحت الولايات المتحدة - في وقت الثورة والمواجهة المباشرة التي دعمتها، بالنسبة لخميني - العدو الرئيس، والهدف المركزي لغضبة المسلمين، واستيائهم.

يبدو أن عداء خميني الخاص للولايات المتحدة يعود إلى تشرين الأول 1964، حين ألقى خميني خطبة في محلّ إقامته، قُمْ، ندّد فيها - بشدة - بالقانون الأمريكي الذي سُلِّم إلى السفارة الإيرانية، وقرّر خضوع المبعوثين العسكريين الأمريكان وأفراد أسرهم ومساعديهم ومستشاريهم وخدمهم في الخارج لسلطان قوانين بلادهم وحصانتهم من الخضوع لسلطان القضاء الإيراني. ويظهر أنه لم يكن مطّلعاً على طلب الولايات المتحدة حصانات مماثلة، أمّنتها لها بريطانيا، بصفتها مسألة طبيعية للقوات الأميركية التي وضعت في بريطانيا أثناء الحرب العالمية الثانية. غير أن مسألة ما يُدعى بالامتيازات الأجنبية وحصانات امتداد السلطان الإقليمي لقانون البلاد؛ بحيث يبقى مواطنو البلد خاضعين له، ولو كانوا في أقاليم دولة أخرى، جرى تأمينها في السابق لتجّار ومسافرين غربيين آخرين في البلاد الإسلامية، كانت مسألة حسّاسة، وقد لعب فيها خميني بنجاح. "لقد هبطوا بمستوى الإيراني إلى ما هو أدنى من مستوى الكلب الأمريكي. فإذا دعس أحدهم كلباً لأميركي، جرت مقاضاته، وإن كان الشاه نفسه. أمّا لو دعس طاهٍ أميركي الشاه، رأس الدولة؛ فليس لأحد أن يتدخّل"[1].

بعد مشكلة مباشرة مع السلطات بسبب خطابه، نُفي خميني من إيران في 4 تشرين الثاني. عاد إلى هذه المسألة في عدد من خطبه وكتاباته اللاحقة، ساخراً من الأميركان، موبّخاً إياهم على إسهامتهم المزعومة في حقوق الإنسان، وعدم أخذهم تلك الحقوق، بنظر الاعتبار في إيران، وفي أماكن أخرى، من بينها أميركا اللاتينية "في نصف الكرة الرضية الذي يعيشون فيه ذاته". واشتملت التهم الأخرى نهب ثروات إيران، ودعم الملكية الإيرانية.

طالت - في خطبه بعد عودته إلى إيران - قائمة الشكاوى وقائمة الأعداء على حدّ سواء، لكن أميركا تتصدّر القائمة الآن. ولم يقتصر الأمر على إيران. ففي خطبة له في قمْ في أيلول 1979، تذمّر من تشبّث أميركا، بالعالم الإسلامي، بأسره، ودعا مسلمي العالم إلى الاتحاد بوجه عدوّهم.

في هذا الوقت تقريباً، بدأ الحديث عن أميركا، بوصفها "الشيطان الأكبر". وفي هذا الوقت كذلك، ندّد بكل من الرئيس المصري أنور السادات والرئيس العراقي صدام حسين بصفتهما خادمين لأمريكا وعميلين لها.

خدم السادات أميركا بالتوصّل إلى السلام مع إسرائيل، ونهض صدام حسين بعمل أميركا، بإقدامه على محاربة إيران. أكّدت المواجهة مع أميركا - في أزمة الرهائن، والغزو العراقي والعديد من المعارك الدبلوماسية والاقتصادية - حكم خميني، بمركزية موقع أميركا، في الحرب بين الإسلام والغرب.

أميركا - منذ الآن فصاعداً - "الشيطان الأكبر"، وإسرائيل، بصفتها عميل أميركا "الشيطان الأصغر"، و"الموت لأميركا" هو جدول أعمال اليوم. كان هذا هو الشعار الذي رفعتْه تظاهرات 1979 المعادية لأميركا، ونادت به. أُضيفت على هذا الشعار لاحقاً سمة شعائرية، تكاد تكون طقوسية، فامتصّت معظم معناه الحقيقي.

حاول المراقبون الأميركان - وقد نبّهتْهم بلاغة الثورة الإيرانية إلى وضعهم الجديد كشيطان أكبر - التوصل إلى أسباب معاداة أميركا التي اشتدّت في العالم الإسلامي بعض الوقت.

من التفسيرات، تفسير حظي بقبول واسع لبرهة من الزمن، سيما في أوساط السياسة الأميركية الخارجية، وهو أن الحروب والتحالفات المستمرة مع قوى أوروبا الاستعمارية السابقة، نال من بريق صورة أميركا السابقة. فيما أشار معلّقون أميركان - دفاعاً عن بلدهم - إلى أن أميركا - بخلاف إمبرياليي أوروبا الغربية - كانت - هي نفسها - ضحية للاستعمار، وكانت الولايات المتحدة أول بلد ينال استقلاله عن الحكم البريطاني. لكن الكتّاب العرب سرعان ما أشاروا إلى المغالطة الأساس التي أُقيم عليها أمل تقبّل الشرق أوسطيين الذين كانوا خاضعين للإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية السابقتين الثورة الأميركية أنموذجاً لنضالهم المعادي للإمبريالية. لم يخُض الثورة الأميركية - كما يشير الكتّاب العرب غالباً - أميركان ذوو جنسية أميركية أصلاً، بل

مستوطنون إنكليز، وهي أبعد ما تكون نصراً على الاستعمار. تمثّل الثورة الأميركية ذروة مجد الاستعمار؛ إذ نجح الإنكليز في استعمار أراضي شمال أميركا؛ بحيث لم يعودوا بحاجة لمساعدة البلد الأم ضدّ المستوطنين الأصليين.

ليس من المعقول أن ترى مستعمرات الشرق الأوسط السابقة أميركا، وقد عاثت بها إمبريالية فاسدة فساد إمبريالية أوروبا الغربية. بيد أن استياء الشرق أوسطيين من القوى الإمبريالية ليس مضطرداً. احتفظ الاتحاد السوفيتي بالأراضي التي فتحها قياصرة روسيا، ووسّعها، ولم تكن قبضته خفيفة على عشرات ملايين المسلمين الخاضعين له في آسيا الوسطى والقفقاس. ومع ذلك، لم يعانِ الاتحاد السوفيتي من جَلدٍ مماثل من غضب المجتمع العربي، وكراهيته.

ليست مصالح روسيا في الشرق الأوسط جديدة. فقد توسّع القياصرة جنوباً وشرقاً لقرون، وضمّوا مناطق مسلمة واسعة إلى إمبراطوريتهم، على حساب تركيا وفارس ودول أواسط آسيا المسلمة المستقلة سابقاً. جاء اندحار المحور عام 1945 بتهديد سوفيتي جديد.

يتخندق السوفييت بقُوّة - الآن - في البلقان، وهم قادرون على تهديد تركيا من حدودها الشرقية والغربية معاً. وهم في إيران - أصلاً - باحتلالهم مقاطعة أذربيجان الفارسية. كانوا يهددون إيران دوماً.

كسب الروس في حربي 1804 - 1813 و1826 - 1828 الروسية الإيرانية الجزء الشمالي من أذربيجان، وأصبح إحدى مقاطعات الإمبراطورية القيصرية، ثم إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتي.

في الحرب العالمية الثانية، احتلّ السوفييت - إلى جانب الإنكليز - إيران، لتأمين خطوط المواصلات فيها خدمةً لمصلحتهما المشتركة.

انسحب الإنكليز عند انتهاء الحرب، فيما بقي الروس بقصد إضافة ما تبقّى من أذربيجان إلى الاتحاد السوفيتي.

جرى التصدي لهم في ذلك الوقت، وللدعم الأميركي أكبر الفضل في ذلك، فتمكّن الأتراك من رفض الطلب السوفيتي، بإقامة قواعد في المضائق التركية، فيما فكّك الإيرانيون دولةَ الدمى الشيوعية التي أقامها السوفييت المحتلّون في أذربيجان الفارسية، واستعادوا سيادة إيران على كامل إقليمها.

حاول السوفييت - لبرهة من الزمن - تحقيق حلم عمر القياصرة، ولكن تركيا وإيران قاومتاه، ودخلت كلتاهما في تحالف غربي، إلاّ أنّ اتفاقية السلاح الروسية المصرية 1955 أعادت روسيا إلى لعبة الشرق الأوسط مجدداً، ولكنْ؛ بدور قيادي هذه المرة.

كان لدى الأتراك والإيرانيين خبرة طويلة بالإمبريالية الروسية، وكانا قلقين على السواء. كانت تجربة الدول العربية للإمبريالية قاصرة على الإمبريالية الغربية، وكانت الدول العربية ميّالة إلى النظر إلى السوفييت نظرة أفضل. وكان الروس قادرين على تخطّي الحاجز الشمالي والتعامل مع الدول العربية حديثة الاستقلال مباشرةً، وتأسيس موقع قوي جدّاً في وقتٍ قصير. تقدموا - بدايةً - بطريقة، تشبه طريقة أسلافهم الأوروبيين الغربيين إلى حدّ كبير - قواعد عسكرية، تسليح، "مشورة" عسكرية وتغلغل اقتصادي وثقافي. لكن هذه الأمور - بالنسبة للنمط السوفيتي - لم تكن سوى بداية، والغايات - كما هو واضح - أبعد من ذلك بكثير. ثمة خيط رفيع من الشك في أن ذلك - لولا تصدّي أميركا والحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفيتي - كان سيؤدي بالعرب إلى مصير كمصير بولندا وهنغاريا، بل الأرجح مصير أوزبكستان. ليس هذا كل شيء. ففيما كان السوفييت يسعون إلى جعل حلفائهم الشرق أوسطيين محميّات لهم، تبيّن أنهم حلفاء غير فعّالين. لم يرغب السوفييت - ولم يستطيعوا - إنقاذ من تحت حمايتهم في الحرب العربية - الإسرائيلية 1967 و1973 من الهزيمة والعار. أفضل ما وسعهم القيام به الاشتراك مع الولايات المتحدة دعوة إسرائيل إلى وقف التقدم.

لم يعد الوجود السوفيتي في مطلع السبعينيات غير فعّال، فحسب، وإنما أصبح عبئاً ثقيلاً كذلك. أسّس السوفييت - شأن أسلافهم الإمبرياليين الغربيين - قواعد

عسكرية على التراب المصري، يتعذّر على أي مصري دخولها، وواصلوا التقدم باتجاه مرحلة المعاهدات الكلاسية غير المتكافئة.

تعلّم بعض قادة الشرق الأوسط الدرس، والتفتوا بقليل أو كثير من التردد صوب الغرب. كان من البارزين منهم الرئيس المصري أنور السادات، الذي ورث العلاقات مع السوفييت من سلفه، الرئيس ناصر أقنع الرئيس السادات بتوقيع "معاهدة صداقة وتعاون مع اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية"، وهي معاهدة غير متكافئة إلى حدّ بعيد في مايس 1971[2].

في تموز 1972، أمر مستشاريه العسكريين السوفييت بمغادرة البلاد، وأقدم على أولى خطوات التقارب مع الولايات المتحدة والسلام مع إسرائيل. ويبدو أن الرئيس السادات كان وحيداً - تقريباً - في تقويمه وسياساته، ويبدو أن هذه السياسات لم تَنَل من حسن النية إزاء السوفييت، ولم تَزِد بحُسن النية إزاء الولايات المتحدة.

لم يتعرض السوفييت للعقوبة، بل حتّى للاستهجان لقمعهم المسلمين في آسيا الوسطى وجمهوريات القفقاس؛ حيث أُجيز مئتا مسجد بتقديم خدماتها الدينية لخمسين مليون مسلم. ولم يُندِّد في هذا المجال بالصينيين، لمعاركهم ضدّ المسلمين في سنكيانغ، ولم يُثن أحد على جهود الأميركان في إنقاذ مسلمي البوسنة وكوسوفو وألبانيا. من الواضح أن ثمة اعتبارات أخرى كانت تُراعى.

ربما كان أوضح تمثيل درامي لهذا التباين الغزو السوفيتي لأفغانستان أواخر كانون الأول 1979، وإقامة حكومة دُمى هناك. من العسير العثور على حالة أوضح من العدوان والاحتلال والهيمنة الإمبريالية. ومع ذلك، فقد كانت استجابة العرب - بل بصفة أشمل، العالم الإسلامي - خرساء، إلى مدى بعيد. بعد تأخّر طويل، استطاعت الجمعية العامة للأمم المتحدة في 14 كانون الثاني تمرير قرار بصدد هذا الحادث، لا يندّد بالعدوان السوفيتي، كما كان متوقّعاً، بل "يأسف أشدّ الأسف على التدخّل العسكري الأخير في أفغانستان". لم تُستخدم كلمة عدوان، ولم يُسمَّ "المتدخّل" باسمه. وكانت نتيجة التصويت

على القرار 104 صوتاً مقابل 18 صوتاً. من بين الدول العربية التي امتنعت عن التصويت سوريا والجزائر، وصوّت اليمن الجنوبي ضدّ القرار، وتغيّبت ليبيا، ودافعت منظمة التحرير الفلسطينية - العضو المراقب الذي ليس له حق التصويت - دفاعاً قوياً عن الحركة السوفيتية. ولم تفعل منظمة المؤتمر الإسلامي ما هو أفضل.

في 7 كانون الثاني، استطاعت منظمة المؤتمر الإسلامي - بعد الكثير من المناورات والمباحثات - أن تعقد اجتماعاً في إسلام آباد لمناقشة المسألة السوفيتية - الأفغانية. قاطعت الاجتماع دولتان عضوان، اليمن الجنوبي وسوريا. قدّم الوفد الليبي خطاباً هجومياً على الولايات المتحدة الأميركية، فيما امتنع ممثل منظمة التحرير الفلسطينية - وهي عضو كامل العضوية في منظمة المؤتمر الإسلامي - عن التصويت على قرار ضدّ السوفييت، وقدم تحفّظاته تحريرياً.

كان ثمة شيء من رد الفعل على الغزو السوفيتي في العالم الإسلامي - بعض المال السعودي، وشيء من الأسلحة المصرية، وكثير من المتطوعين العرب. وتُرِك لأميركا تنظيم هجوم إسلامي مقابل - يحقّق شيئاً من النجاح - على الإمبريالية السوفيتية في أفغانستان. أمّا منظمة المؤتمر الإسلامي؛ فلم تقدّم لمساعدة الأفغان إلاّ النزر اليسير، مفضّلةً تركيز اهتمامها على مسائل أخرى - بعض الأقليات المسلمة، في مناطق لم تستقل عن الاستعمار بعد، والصراع الإسرائيلي الفلسطيني، بطبيعة الحال.

إسرائيل مسألة من مسائل عدة يواجهها العالمان الإسلامي وغير الإسلامي - نايجيريا والسودان والبوسنة ومقدونيا والشيشان وسنكيانغ وكشمير وتيمور ومندناو...إلخ. يرى المعنيون - بأي موضوع من هذه المواضيع - موضوعهم هو الأساس، فيما يراه الآخرون استطراداً مزعجاً. يميل الموالون للغرب - بالمقابل - إلى إسباغ أهمية كبرى على الشكاوى التي يأملون حلّها على حساب آخرين.

من المؤكد أن النزاع الإسرائيلي - الفلسطيني، استقطب من الانتباه، ما يفوق سواه إلى حدّ بعيد، لأسباب عدة، أولها أنه نظراً إلى أن إسرائيل دولة ديمقراطية ومجتمع

مفتوح، فمن السهولة بمكان التطرق - أو الإساءة - إلى ما يجري فيها. ثانياً، أن المسألة تعني اليهود، وبإمكان ذلك - عادة - استقطاب جمهور كبير بين مؤيد ومعارض لهم، لهذا السبب، أو ذاك. من الأمثلة الجيّدة على هذا الفرق الحرب العراقية - الإيرانية التي اشتعلت على مدار ثماني سنين 1980- 1988 وتسبّبت بموت ودمار واسعين، يفوق كثيراً ما حدث في مجموع الحروب العربية الإسرائيلية، لكنها لم تَحظَ إلاّ بالنزر الضئيل من الاهتمام، لسبب وحيد هو أنه لا العراق ولا إيران بلد ديمقراطي، وبالتالي؛ فإن التطرق إلى ما كان يجري أكثر صعوبة وخطراً. ولسبب آخر، هو أن اليهود لم يكونوا مَعنيّين بهذه الحرب، لا كضحايا لها، ولا العكس، لذلك كانت الإشارة إلى ما يجري أقل إثارة للاهتمام.

السبب الثالث الأكثر أهمية في أولوية القضية الفلسطينية هو أنها - يمكن القول - الهمّ المصرّح به - القضية الوحيدة التي بوسع المرء التعبير عنها بحريّة وأمان في البلدان الإسلامية التي تسيطر فيها الحكومات على وسائل الإعلام كليةً، أو تشرف عليها إشرافاً صارماً. تؤدي إسرائيل دور الملام في الشكاوى من الحرمان الاقتصادي والكبت السياسي اللذين تعيش في ظلالهما معظم الشعوب الإسلامية ودور وسيلة التنفيس من الغضب الناجم عن ذلك. يساعد في ذلك المشهد الإسرائيلي الداخلي مساعدة كبيرة؛ حيث يجري الكشف عن أي خطأ ترتكبه الحكومة أو الجيش والمستوطنون أو كائناً مَن يكون فوراً، ويعرض النّقّاد الإسرائيليون، يهوداً كانوا أم عرباً أي كذبة في وسائل الإعلام الإسرائيلية والبرلمان الإسرائيلي. يعاني أكثر المناوئين لإسرائيل من عدم وجود عقبة كهذه في دبلوماسيتهم العامة.

إذ تلاشت الإمبراطوريات الأوروبية الغربية، عُزيت معاداة أميركا في الشرق الأوسط لأسباب أخرى أكثر تحديداً: الاستغلال الاقتصادي الذي غالباً ما يُوصف بنهب ثروات البلدان الإسلامية، ودعم الطغاة المحلّيّين الفاسدين الذين يخدمون أهداف أميركا بقَمع شعوبهم، وسرقتها، والكثير الكثير. سبب آخر: الدعم الأمريكي لإسرائيل في صراعها مع العرب الفلسطينيين أولاً، ثم في نزاعها مع الدول العربية المجاورة والعالم

الإسلامي الأوسع. ثمة - بالتأكيد - ما يدعم هذه الفرضيات في تصريحات العرب والفرس، غير أن قضية لولا هذه أو تلك من المعوقات، لكانت الأمور - على خير ما يرام - تبدو غير مقبولة في السياسات الأميركية في الشرق الأوسط. لقد تسبّبت القضية الفلسطينية بغضب كبير متزايد، تجدّده، وتفاقمه بين الآونة والأخرى سياسات الحكومات والأحزاب الإسرائيلية، وتصرّفاتهما. لكنْ؛ أ يمكن أن يكون هذا السبب الرئيس لمشاعر معاداة الغربيين، كما يرى البعض؟

تظهر بعض الاختلافات في التاريخ، وتتكرر. كانت سياسات ألمانيا النازية في الثلاثينيات السبب الرئيس للهجرة اليهودية إلى فلسطين، ثم الانتداب البريطاني، والدعم التالي للمجتمع اليهودي هناك. لم يسمح النازيون بهذه الهجرة، فحسب، بل سهّلوها حتّى اندلاع الحرب، بينما فرض الإنكليز - في أصل ميؤوس منه، إلى حدّ كبير - كسب ودّ العرب، قيوداً على الهجرة، وشدّدوها. ومع ذلك، فإن القيادة الفلسطينية والعديد من القادة العرب دعموا الألمان الذين أرسلوا اليهود إلى فلسطين، لا الإنكليز، الذين حاولوا صدَّهم.

يمكن الوقوف على نوع التناقض ذاته في الأحداث التي أدت إلى تأسيس إسرائيل 1948، وأعقبتها. أدى الاتحاد السوفيتي دوراً مهماً في التوصل إلى الأغلبية في تصويت الأمم المتحدة على تأسيس دولة يهودية في فلسطين، واعترافه بها فوراً اعترافاً قانونياً. كانت الولايات المتحدة أكثر تردّداً، ولم تعترف بها إلاّ اعترافاً واقعياً. الأهم من ذلك أن الحكومة الأميركية التزمت بفرض حصار جزئي على تسليح إسرائيل، فيما أرسلت تشيكوسلوفاكيا مباشرةً - بتخويل من موسكو - شحنة من الأسلحة، مكّنت الدولة الجديدة من الصمود.

لم يكن سبب تلك السياسات السوفيتية - حينئذٍ - شعوراً بالودّ تجاه اليهود، أو كراهيةً إزاء العرب، وإنما كان - أساساً - معتقداً موهوماً - ولكنه كان شائعاً يومها - بأن بريطانيا كانت ما تزال القُوّة الرئيسة في الغرب، وبالتالي؛ غريم موسكو الرئيس. انطلاقاً

من هذه القاعدة، فإن كل ما يسبّب المشاكل لبريطانيا - كما فعل اليهود إبان السنوات الأخيرة من الانتداب البريطاني - كان جديراً بالدعم السوفيتي. أدرك ستالين - فيما بعد - ووجّه انتباهه لأميركا، لا إنكلترا.

في العقد الذي أعقب تأسيس إسرائيل، استمرت التعاملات الأميركية مع دولة اليهود على ما هي عليه من محدودية وحذر. وبعد حرب السويس 1956، تدخّلت الولايات المتحدة - بقُوّة وحسم - لتأمين انسحاب القوات الإسرائيلية والبريطانية والفرنسية. أدرك القائد السوفيتي خروتشيف - الذي ظلّ في المراحل السابقة من الحرب صامتاً بحذر - أن تصريحاً مؤيّداً للعرب لن يعرّض تحالفاً مع الولايات المتحدة للخطر، وعندئذٍ؛ فحسب، برز إلى جانب العرب بقُوّة. حتّى وقت مُتأخّر، حرب 1967، كانت إسرائيل تعتمد على تسليحها على الأوروبيين، مجهّزين فرنسيين أساساً، لا على الولايات المتحدة.

لكن عودة الإمبريالية الروسية، بهيأة الاتحاد السوفيتي الآن، إلى دور أكثر فاعلية في شؤون الشرق الأوسط، واجه ردة فعل متحمّسة في العالم العربي. بعد شيء من الزيارات الدبلوماسية وسواها من الأنشطة، أعلنت العلاقة الجديدة بتصريح رسمي في أواخر أيلول 1955 من توقيع صفقة أسلحة بين الاتحاد السوفيتي ومصر، صارت بالتدريج خلال الأعوام اللاحقة صواريخ سوفيتية. كان المثير، حتّى أكثر من صفقة الأسلحة، ترحيب العالم العربي بها، وتجاوز الخلافات والهموم المحلية. اجتمعت مجالس النواب في سوريا ولبنان والأردن فوراً، وصوتت على قرارات تهنئة ناصر، الذي كان حينها رئيساً للوزراء. حتّى نوري سعيد، حاكم العراق الموالي للغرب وغريم ناصر في زعامة العرب، وجد نفسه مضطرّاً لتهنئة زميله المصري. وأعربت كل الصحافة العربية - تقريباً - عن تأييد متحمّس.

لِمَ هذه الاستجابة؟ من المؤكد أن العرب لا يضمرون لروسيا حباً خاصاً، ولا رغبة لدى المسلمين في العالم العربي، أو في أي مكان آخر، لا بجلب لأيديولوجية الشيوعية، ولا

القُوّة السوفيتية إلى أوطانهم، ولا هي مكافأة لموسكو على سياساتها إزاء إسرائيل، وقد كانت وديّة نوعاً ما. أفرحت العرب رؤيتهم صفقة الأسلحة - ولاشك في صحة رؤيتهم - على أنها صفعة على وجه الغرب. قُوّة الصفعة، والارتباك الغربي الواضح، خصوصاً ردة الفعل الأميركية حالة كراهية الغرب والنكاية، وشجّعت مؤيّديها.

شجّع انتشار النفوذ السوفيتي في الشرق الأوسط وردة الفعل المتحمّسة له الولايات المتحدة على بذل المزيد في سبيل رعاية إسرائيل، التي بدت - الآن - أكثر أهلية للاعتماد عليها، وحليفاً، تحتمل إفادة منه في منطقة أغلبها معادٍ. غالباً ما يُنسى اليوم أن العلاقة الاستراتيجية بين الولايات المتحدة وإسرائيل كانت نتيجة للتغلغل السوفيتي، لا سبباً له.

الهمّ الأول لدى أي حكومة أميركية بطبيعة الحال الدفاع عن مصالح الولايات المتحدة، وابتكار سياسات حمايتها، وتقدّمها. سيطرت على السياسات الأميركية في الشرق الأوسط - كما في أي مكان آخر، في الحقبة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية - الحاجة إلى الحيلولة دون التغلغل السوفيتي. تخلّت الولايات المتحدة - للأسف - عن التفوق على الحدود مركزاً اهتمامها على المراحل: أولاً دعم موقف بريطانيا المتعثّر، وعندما أصبح ذلك أمراً متعذّراً، تدخّلت مباشرةً، ثم حلّت - أخيراً - محل بريطانيا مدافعاً عن الشرق الأوسط ضدّ الهجوم الخارجي، سيما من جانب الاتحاد السوفيتي.

كانت الحاجة التي أعقبت الحرب مباشرةً، مقاومة الضغط السوفيتي على الحد الشمالي - تأمين الانسحاب السوفيتي من أذربيجان الإيرانية، والتصدي إلى مطالبة تركيا بها. كانت هذه سياسة واضحة ومفهومة، وهي - إجمالاً - ناجحة في المحافظة على تركيا وإيران. إلاّ أن محاولة توسيعها إلى العالم العربي عن طريق حلف بغداد أدى إلى نتائج عكسية كارثية، وأثار بغضاء مَن كانت تسعى إلى اجتذابهم. وإذ رأى الرئيس المصري جمال عبد الناصر في الحلف تهديداً لزعامته، التفت إلى السوفييت، وأُطيح بالنظام العراقي الموالي للغرب، وهدّدت المخاطر النظامين الصديقين في الأردن ولبنان إلى درجة احتاجا فيها إلى دعم عسكري غربي؛ ليظلا قائمين. منذ عام 1955؛ حيث

تخطّى السوفييت الحدّ الشمالي وصولاً إلى العالم العربي، تغيّر كل من التهديد ووسائل مقاومته تغييراً جذرياً. وفيما صمد الحدّ الشمالي، أصبح العالم العربي معادياً - وفي أحسن الفروض - محايداً غير مستقرّ. بهذا الوضع، دخلت العلاقة الأميركية بإسرائيل دوراً جديداً.

شكّل العلاقةَ لمدى طويل من الزمن اعتباران مختلفان تمام الاختلاف: ربما سمّى المرء أحدهما الاعتبار الأيديولوجي أو العاطفي، أمّا الثاني؛ فاستراتيجي. يمكن للأميركان - وقد تتلمذوا على الكتاب المُقدّس، وعلى تاريخهم - رؤية إسرائيل الجديدة رأساً خروجاً جديداً، وعودة إلى الأرض الموعودة، وأن يجدوا التعاطف مع شعب، يبدو أنه يكرّر تجربة الآباء الحجاج والروّاد ومَن تبعهم أمراً سهلاً. لا يرى العرب الأمر بهذه الطريقة طبعاً، ويشاركهم رؤيتهم الكثير من الأوروبيين.

الآصرة الأخرى بين الولايات المتحدة وإسرائيل علاقة استراتيجية، بدأت في الستينيات، وازدهرت في السبعينيات والثمانينيات، وتذبذبت في التسعينيات، واكتسبت أهمية جديدة حين واجهت الولايات المتحدة تهديد مطامع صدام حسين الحالية، باحتلال دول أخرى، وإرهاب القاعدة الأصولي، وعدم القناعة عميق الجذور المتنامي لدى حلفاء أميركا العرب. نوقشت كثيراً قيمة إسرائيل بالنسبة لأميركا، بصفتها مصدر قُوّة استراتيجياً. في الولايات المتحدة، يرى البعض في إسرائيل حليفاً استراتيجياً كبيراً في المنطقة، حليفاً يضمن موقعاً متقدماً ضدّ الأعداء الخارجيين والمحليين معاً. فيما يذهب آخرون إلى أن إسرائيل - بصرف النظر عن أنها مصدر قُوّة استراتيجي - مسؤولة تاريخياً عن تكدير علاقات الولايات المتحدة، بالعالم العربي، والتسبّب بإخفاق سياسات الولايات المتحدة في المنطقة.

لكنْ؛ لو قارن أحدهم تاريخ السياسة الأميركية في الشرق الأوسط بتاريخها في مناطق أخرى، فإنه سيصعق، لا بإخفاقاتها، بل بنجاحاتها. فليس - في النهاية - من فيتنام في الشرق الأوسط، ولا كوبا، أو نيكاراغوا، أو السلفادور، ولا حتّى أنغولا. بالعكس،

كان ثمة دائماً - عبر الأزمان التي هزّت المنطقة - حضور سياسي واقتصادي وثقافي أميركي مفروض، في بضعة أقطار عادة، ولم يكن هذا - حتّى حرب الخليج 1991 - بحاجة إلى أي تدخّل عسكري مهم. كان وجود الأميركان - حتّى ذلك الحين - مطلوباً لإنقاذ ضحايا اعتداء العرب على بعضهم، ممّا لا علاقة له بالإسرائيليين ولا بالفلسطينيين. إن الذين لا ينظرون لغير الشرق الأوسط قلقون - دائماً - من مصاعب السياسة، وإخفاقاتها، في المنطقة، لكنْ؛ لو نظر المرء إلى الصورة بمنظار أوسع، فلن يسعه إلاّ الاندهاش من فاعلية السياسة الأميركية في الشرق الأوسط، بالمقارنة مع أقصى جنوب آسيا وأمريكا الوسطى أو جنوبي أفريقيا.

ظهرت - منذ انهيار الاتحاد السوفيتي - سياسة أميركية جديدة في الشرق الأوسط، تهتم بموضوعات مختلفة. هدفها الحيلولة دون ظهور أطماع إقليمية في المنطقة- قُوّة إقليمية جديدة، تسيطر على المنطقة، وتفرض - بالتالي - سيطرة احتكارية على نفط الشرق الأوسط. هذا هو الاهتمام الرئيس للسياسات الأميركية المتوالية إزاء إيران، أو العراق، أو أي تهديد مستقبلي في المنطقة.

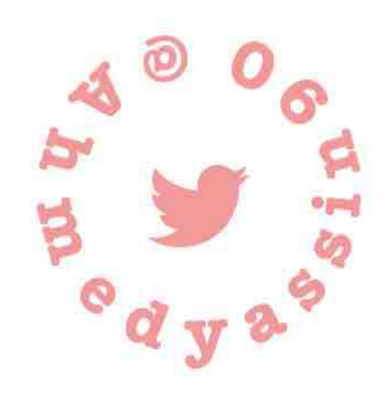
السياسة التي اعتمدت - لحد الآن - للحؤول دون أطماع إقليمية كهذه هي تشجيع وتسليح، وعند الضرورة، دعم حلف أمني إقليمي، وبالتالي؛ عربي أساساً. لابد لسياسة كهذه أن تثير ذكريات مرّة لمحاولات سابقة، كان ضررها أكبر من نفعها. ربما كانت فرصة الحلف المقترح أفضل هذه المرة. لم يعد الاتحاد السوفيتي - العدوّ الرهيب - موجوداً، والحكّام الإقليميون يتخذون من العالم وموقعهم فيه مواقفاً أكثر اعتدالاً. لكن حلفاً كهذا أساسه أنظمة غير مستقرة، تحكم مجتمعات متقلبة، سيكون حلفاً قلقاً بطبيعته. وليست السلسلة بأقوى من أضعف حلقاتها. يوضح تاريخ العراق المعاصر شتّى المجالات التي قد تخطئ فيها سياسة كهذه. باعتناقنا الملكية، أطحنا بها، وبرعايتنا صدام حسين، أقمنا قُوّة مهدّدة. من السهولة بمكان تكرار أحد هذين الخطأين القاتلين، أو كليهما، مع المخاطرة بالمصالح الغربية في المنطقة مخاطرة كبيرة، والتسبّب بعواقب وخيمة للسكان المحليين.

في هذا السياق، تصبح رغبة بعض الحكومات العربية بالتفاوض مع إسرائيل من أجل السلام واهتمام أميركا بدفع عملية السلام إلى أمام مفهومة. بدأ الكثير من العرب يدركون أن إسرائيل - بأعلى تقدير لقوتها، وأسوأ تقدير لنواياها - ليست أخطر مشكلاتهم، ولا الخطر الأعظم الذي يجابههم. ستكون إسرائيل المتحاربة مع جيرانها خطراً داهماً والأُلهية التي سيستعملها صدام حسين الجديد - بل والحالي - لكنها حال السلام مع جيرانها ستقدم - في أقل تقدير - عنصر ديمقراطية مستقراً في المنطقة.

هناك نوعان من التحالفات، بصفة عامة، أحدهما استراتيجي، وقد يكون ترتيباً مؤقّتاً تماماً، يقوم على أساس من المخاطر المشتركة. من الممكن التوصل إلى ترتيب كهذا مع أي نوع من الحكّام - لا علاقة لنوع الحكومة التي يديرها، أو المجتمع الذي يحكمه بتاتاً. وقد يغيّر طرف التحالف الآخر رأيه في أي وقت، وأن يتغيّر الحلف، بالنسبة له، إذا ما أُطيح به، واستُبدل. وعليه؛ فإن الحلف قد ينتهي بتغيّر النظام، أو تغيّر قائده، بل بتغيّر شكل النظام. يمكن التمثيل لما قد يحدث بأحداث من ليبيا وإيران والعراق والسودان؛ حيث نجم عن التغيّرات السياسية تغيّر كلي في السياسة، أو بمعنى آخر، ما حصل في مصر؛ حيث تمكن الحكّام، حتّى من دون تغيير النظام، الانتقال من الغرب إلى السوفييت، ثم العودة إلى الصف الغربي مجدداً.

يتمتع الجانب الأميركي بالمرونة ذاتها. فكما يمكن للحلفاء التخلي عن الولايات المتحدة في أي وقت، فللولايات المتحدة حرية التخلي عن حلفاء كهؤلاء، إذا ما أصبح الحلف مزعجاً، أو لم يعد يفي بتكاليفه؛ كما في فيتنام الجنوبية وكردستان ولبنان مثلاً. للمرء إذا تخلى عن حلف، ليس فيه أكثر من ترتيب استراتيجي، المواصلة - دون وخز ضمير ودون مخاطر - النقد الجاد في الداخل.

النوع الآخر من الأحلاف هو الذي يقوم على تقارب أصيل بين المؤسّسات والتطلّعات ومناهج الحياة، وهو أقل عرضة للتغيير من سابقه، إلى حدّ بعيد. كان السوفييت في أوجهم منتبهين تماماً لهذا، وحاولوا إقامة دكتاتورية شيوعية أينما حلّوا. إقامة الديمقراطيات أشدّ صعوبة. لكن تدميرها أصعب كذلك.



تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

معايير مزدوجة

تداول الشرق أوسطيون - على نحو متزايد في العقود الأخيرة - شكوى أكثر حساسية. شكوى جديدة من السياسة الأمريكية: ليست المشاركة الأمريكية في جرائم الإمبريالية والصهيونية، بل ما هو أقرب إلى الداخل، وأكثر مباشرة - مشاركة أمريكا في جرائم حكّامهم الطغاة. لا ترد هذه الشكوى كثيراً في الخطاب العام لأسباب واضحة، ولا يحتمل التطرق إليها في مباحثات وزارات الخارجية والدبلوماسيين. طوّرت حكومات الشرق الأوسط، كحكومات العراق وسوريا والسلطة الفلسطينية مهارة كبيرة في السيطرة على وسائل إعلامها، وفي التعامل مع وسائل إعلام الدول الغربية. ولا تطرح، لأسباب على القدر ذاته من الوضوح في المفاوضات الدبلوماسية. لكنها تطرح بمزيد من الألم والإلحاح في النقاشات الخاصة مع الثقات من المستمعين، بل أصبحت تطرح مؤخّراً علناً، ولم تعد قاصرة على الراديكاليين الإسلاميين، وتشكّل لديهم موضوعاً، بل الموضوع الكبير.

من اللافت أن الثورة الإيرانية 1979 حدثت في وقت، كان يجري فيه التعبير علانية عن هذا الغضب. اتُّهم الشاه بتقديم العون لأمريكا، وهُوجمت أمريكا - كذلك -

لفرض ما عدّه الثوريون قائداً فاسقاً وطاغية ودمية بيد أمريكا. اكتشف الإيرانيون - في السنوات اللاحقة - أن الطغاة الورعين قد يساوون الطغاة الفاسقين سوءاً، أو يتفوقون عليهم، وأنه يتعذر لوم الرعاة الأجانب على هذا النمط، أو الأنموذج من الطغاة.

ثمة شيء من الحق في إحدى التهم الموجّهة إلى الولايات المتحدة، وإلى الغرب عموماً، غالباً ما يجري تصعيده: تتزايد شكوى الشرق أوسطيين من أن الغرب يحكم عليهم بمعايير مختلفة، أدنى من المعايير التي يحكم بها على الأوروبيين والأمريكان، سواء فيما يتوقّعونه منهم، أو في ما يتوقّعونه هم بمصطلحات رفاهيتهم الاقتصادية، وحريتهم السياسية. ويؤكدون على أن الناطقين باسم الغرب يغضّون النظر دائماً، بل ربما دافعوا عن تصرفات حكّام ما كانوا ليتحمّلونهم في بلدانهم هم، ودعموا أولئك الحكّام.

قلة نسبية من سكان العالم العربي تفكر بأنها مَعنية بالمواجهة مع الإسلام. ومع ذلك، ثمة تفهّم واسع للفروقات المهمة بين العالم الغربي المتقدّم والبقية، سيما الشعوب الإسلامية، وهذه الأخيرة مختلفة فيما بينها، مع الافتراض الضمني بأنهم أدنى موقعاً. يجري تجنّب أو تحاشي الكلام على أوضح خروقات الحقوق المدنية والحريات السياسية، بل حرمة الإنسان، وتُعدّ الجرائم ضدّ الإنسانية التي من شأنها إثارة عاصفة من الاحتجاج في البلدان الأوربية والأمريكية، وكأنها اعتيادية، بل ومقبولة. لا يتم تقبّل أنظمة تمارس اختراقات كهذه حسب، بل وتنتخب لعضوية مفوضية الأمم المتحدة لحقوق الإنسان التي تضم في عضويتها العربية السعودية وسوريا والسودان وليبيا.

المعنى الضمني لهذا كله هو أن هذه الشعوب غير قادرة على توجيه مجتمع ديمقراطي، وليس لديها لا الرغبة ولا القدرة على احترام حرمة الإنسان. وأنه لابد - في كل الأحوال - من أن يتولى حكمهم حاكم فاسد مستبّد. ليس من واجب الغرب إصلاح حالهم، بل ولا تغييرهم. المهم الوحيد أن يكون الحكّام المستبدّون أصدقاء، لا أعداء، للمصالح الغربية. من الخطر، من هذا المنظور، العبث بالنظام الموجود، ويستحقّ بمَن يبحث عن حياة أفضل لنفسه ولأبناء وطنه، وغالباً ما تثبَّط عزيمته. استبدال طاغية

مشاغب بطاغية مذعان أسهل وأرخص وأكثر أمناً من مواجهة تغيير نظام غير معروفة، خصوصاً التغيير الذي يأتي بإرادة الشعب معبّراً عنها بانتخابات حرّة.

يبدو أن مبدأ (الشر - الذي - تعرفه) وراء السياسات الخارجية للعديد من الحكومات الغربية تجاه شعوب العالم الإسلامي - يجري تقديم هذا الموقف، بل وتقبّله - أحياناً - على أنه تعاطف مع العرب، ودعم لتطلّعاتهم، بالإيمان بأنه إذا استثنينا الحكّام والقادة العرب من قواعد السلوك المتحضّر الاعتيادية، أنعمنا على الشعوب العربية نعمة عظيمة. هذا الاستثناء - في الواقع - لا شيء؛ لأنه في أفضل الأحوال التماس لتحالف مؤقت، قوامه مصالح ذاتية مشتركة، وموجّه إلى عدو مشترك، يديمه، هو كذلك ظلم مماثل أحياناً. والتعبير - عند مستوى أعمق من الواقعية - تعبير غير محترم، وغير مسؤول - عدم احترام لماضي العرب وعدم المسؤولية عن حاضرهم ومستقبلهم.

يقتضي هذا المنهج شيئاً من الدعم في الأوساط الدبلوماسية والأكاديمية في الولايات المتحدة، وشيئاً من التوسّع في أوروبا. بإمكان الحكّام العرب، قتل عشرات الآلاف من أبناء شعبهم، كما في سوريا والجزائر، أو مئات الألوف، كما في العراق والسودان، وحرمان الرجال من معظم حقوقهم المدنية، والنساء منها كلها، وتلقين الأطفال في مدارسهم التعصّب الأعمى، وكراهية الآخرين دون أي احتجاج مؤثر من الأوساط والمؤسّسات الليبرالية في الغرب، بل ولا التلميح إلى أي عقوبات من قبيل المقاطعة أو التعرية أو الاتهام في بروكسل. ألحَقَ هذا الموقف الدبلوماسي من الحكومات العربية ضرراً بليغاً بالشعوب العربية التي باتت تعي هذه الحقيقة بألم.

موقف الحكومات الأوروبية والأمريكية الأساس، كما يراه الشرق أوسطيون هو "أننا لا نبالي بما تفعلونه بشعوبكم، في بلادكم، طالما تعاونتم معنا في تلبية حاجاتنا، وحماية مصالحنا".

خانت الحكومة الأمريكية أحياناً، حتّى بوجود المصالح الأمريكية، مَن وعدتهم بالدعم، وأقنعتهم بالتعرّض للمخاطر. من الأمثلة البارزة على ذلك، ما حدث عام 1991؛

حيث دعت الولايات المتحدة الشعب العراقي إلى الثورة على صدام حسين. ثار الكرد في شمال العراق، والشيعة في جنوبه، وراحت قوات الولايات المتحدة المنتصرة تراقب، فيما قمعهم صدام حسين، وقتلهم باستخدام المروحيات التي سمحت له اتفاقية وقف إطلاق النار بالاحتفاظ بها، مجموعة إثر مجموعة، ومنطقة بعد منطقة.

ليس من الصعب رؤية الأسباب وراء ذلك الفعل - الأصح لا الفعل - لاشك في رغبة الائتلاف المنتصر في حرب الخليج بتغيير الحكومة في العراق، لكنه كان يأمل انقلاباً عسكرياً، لا ثورة. ووجد في انتفاضة شعبية أصيلة خطراً كبيراً - قد يقود المنطقة إلى المجهول، بل ربما الفوضى. وقد تؤدي إلى دولة ديمقراطية. هذا وضع تحذيري لـ"حلفاء" أمريكا في المنطقة. التنبؤ بالانقلاب العسكري أسهل، ويمكنه تحقيق المطلوب: استبدال صدام حسين بآخر، دكتاتور أكثر تعاوناً، يتخذ موقعه بين الحلفاء في الائتلاف. أخفقت هذه السياسة تماماً، وفسرّتها المنطقة شتّى التفسيرات، بصفتها غدراً، أو ضعفاً، أو غباء، أو نفاقاً.

المثال الآخر على المعايير المزدوجة ما حدث في مدينة حماه السورية 1982. بدأت المشاكل هناك بانتفاضة، ترأسها الأخوان المسلمون الراديكاليون. كانت ردة فعل الحكومة السورية خاطفة، وقوية. لم تستخدم مدفعية ماء، وطلقات مطاطية، ولم ترسل جنودها لمواجهة القنّاصين ومصائد المغفلين، والبحث من بيت إلى بيت، للعثور على الأعداء، وتشخيصهم من بين السكان المدنيين. كانت طريقة الحكومة أبسط وأوفر أمناً ونشاطاً. هاجمت المدينة بالدبابات والمدفعية والطائرات المقاتلة، وأعقبوا ذلك بالجرارات لإتمام التدمير. حوّلوا جزءاً من المدينة - في وقتٍ قصير جدّاً - إلى حجارة متناثرة. خمّنت وكالة العفو الدولية عدد القتلى بين عشرة آلاف إلى خمسة وعشرين ألفاً.

لم تلفت العملية التي أمر بها وأشرف عليها الرئيس السوري حافظ الأسد سوى القليل من الانتباه إليها في حينها. باينت ردة الفعل الهزيلة تلك إلى حدّ كبير مجزرة أخرى وقعت بعد بضعة أشهر من السنة ذاتها في مخيّم صبرا وشاتيلا للاجئين الفلسطينيين في

لبنان. قتلت المليشيات المسيحية الحليفة لإسرائيل في تلك المجزرة حوالي سبعمئة فلسطيني، أو ثمنمئة. أثارت المجزرة تنديداً قوياً وواسعاً بإسرائيل، ما زالت أصداؤه تتردد حتّى اليوم. لم تَحُلْ مجزرة حماه دون تودّد الولايات المتحدة إلى الأسد الذي تلقّى سلسلة من زيارات وزير الخارجية الأمريكي جيمز بيكر (إحدى عشر زيارة بين أيلول 1990 وتموز 1992) ووارن كريستوفر (خمسة عشر زيارة بين شباط 1993 وشباط 1996) ومادلين أولبرايت (أربع مرات بين أيلول 1997 وكانون الثاني 2000) بل والرئيس كلنتون زيارة واحدة (زيارة واحدة إلى سوريا ولقاءان في سويسرا بين كانون الثاني 1994 وآذار 2000). يكاد لا يُحتمل توق الأمريكان إلى استرضاء حاكم، ارتكب جرائم كهذه على التراب الغربي بحقّ ضحايا غربيين. لم يحالف حافظ الأسد أمريكا يوماً، ولم يكن - كما يقول البعض - دمية أمريكية، لكنه كان عبئاً على الدبلوماسية الأمريكية، بالتأكيد.

إلاّ أن ما يعني الأصوليين تباين مختلف - حالة أخرى من ازدواج المعايير، ليست أقل إثارة. كان الأخوان المسلمين وأسرهم وجيرانهم هم الذين لم تُثِر مجزرتهم في حماة سوى النزر اليسير من الاهتمام في الغرب.

بدا للغربيين أن حقوق الإنسان لم تُطبَّق على الضحايا المسلمين الأتقياء، ولم تُطبَّق قيود الديمقراطية على قَتَلَتِهِم "العَلمانيين".

ظهر عدم ثقة الغربيين بالحركات السياسية الإسلامية ورغبتهم في المحافظة على مَن حال بين هذه الحركات والسلطة، بل ودعم الدكتاتوريين ضدّ الإسلاميين على نحو أكثر إثارة في حالة الجزائر؛ حيث اعتمد دستور ديمقراطي جديد بالاستفتاء العام في شباط 1989، وأسّس نظام التعددية الحزبية رسمياً في تموز من تلك السنة. أبلت جبهة الإنقاذ الإسلامي في الجولة الأولى من انتخابات الجمعية الوطنية في كانون الأول 1991 بلاءاً حسناً، وبدا أن فوزها بأغلبية ساحقة في الجولة الثانية أكثر من محتمل. كانت جبهة الإنقاذ قد تحدّت القوات المسلحة الجزائرية متهمة إياها باستعدادها للتصدي إلى أبناء شعبها أكثر من استعدادها لمساعدة أخيهم المحتاج للمساعدة. كان الأخ المحتاج

للمساعدة صدام حسين الذي أثار غزوه الكويت واستخفافه بالغرب حماسة كبيرة بين صفوف الأصوليين المسلمين في شمال أفريقيا، وأقنعهم بتحويل ولائهم من رعاتهم السعوديين إلى بطلهم العراقي الجديد.

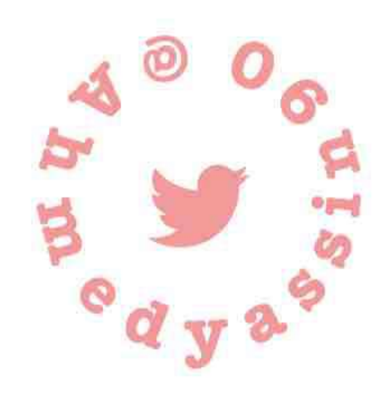
في كانون الثاني 1992، بعد فاصل من التوتر المتزايد، ألغت القوات المسلحة الجولة الثانية من الانتخابات. وجرى في الأشهر التي أعقبت ذلك حلّ جبهة الإنقاذ الإسلامي، وتأسيس نظام "عَلماني"، في الواقع دكتاتورية، لا رحمة فيها، بإيماءات موافقة من باريس وواشنطن وعواصم غربية أخرى. أعقب ذلك صراع مرير دام، واتهامات متبادلة بارتكاب المجازر - اتهام الجيش والمؤسّسات الحكومية الأخرى الأدنى موقعاً بمجازر الأصوليين، واتهام هؤلاء بارتكاب مجازر بحق العَلمانيين ودعاة التحديث، وآخرين غير مَعنيين بالصراع. خمّنت هيأة العفو الدولية 1997 عدد الضحايا منذ بداية الصراع بثمانين ألفاً معظمهم من المدنيين.

حمّلت القاعدةُ الولاياتِ المتحدة مسؤولية واضحة عن تولّي القوات المسلحة السلطة في الجزائر. وُجِّه اللوم هذا - بطبيعة الحال، كما في أي مكان آخر - إلى أمريكا، بصفتها القُوّة المهيمنة على عالم الكفّار، وبشكل خاص؛ على قمع الحركات الإسلامية، وتذبيح أعدائها، وإقامة ما عُدّ دكتاتوريات معادية للإسلام بدعم غربي ،بتحديد أدقّ، أمريكي. وُجِّه اللوم - هنا أيضاً - إلى أمريكا - لعدم احتجاجها على اختراق الحريّات الديمقراطية، كما يرى البعض، ولتشجيعها ودعمها الأنظمة العسكرية، كما يرى البعض الآخر. ثارت مشاكل أخرى مماثلة في مصر والباكستان ومعظم البلدان الإسلامية؛ حيث بدا أن انتخابات أصيلة وحرة وعادلة ستؤدي إلى فوز الإسلاميين.

وإلى هذا؛ فإن الديمقراطيين يتضرّرون طبعاً. تتطلّب منهم أيديولوجيتهم، حتّى إنْ كانوا في السلطة، منح المعارضة الإسلامية الحرية والحقوق. حين يكون الإسلاميون في السلطة، فإنهم غير مُلزمين بالتزام كهذا. بل بالعكس، تتطلّب منهم مبادئهم قمع ما يعدّونه أفعالاً فاسقة وهدّامة.

إنّ الديمقراطية، التعبير عن إرادة الشعب - برأي الإسلاميين - طريق إلى السلطة، لكنه طريـق، باتجـاه واحـد، لا ردّ عـلى سـيادة اللــه، كـما يمارسـها ممثلـوه. اخـتصرت سياسـتهم الانتخابية - تقليدياً - بصيغة (رجل واحد "الرجال حسب"، صوت واحد، مرة واحدة).

من الواضح - في العالم الإسلامي، كما في أوروبا - أن الانتخابات الحـرة العادلـة، تتـويج لعملية التطور الديمقراطي وذروة، لا تدشين لها واستهلال، لكن هذا لـيس سـبباً لـدكتاتوريين مدلّلين.



تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

إخفـاق الحداثـة

العالم الإسلامي برمته - تقريباً - مُبتلى بالفقر والطغيان. يعزو المشكلتين كلتيهما، سيما ذوي الغـرض في إبعـاد الانتبـاه عـنهم، إلى أمريكـا - ويـردّون أولى المشـكلتين إلى الهيمنـة والاستغلال الاقتصادي والأمريكي الذي يستتر اليوم بـ"العولمة" المهلهلة، فيما تُعزى ثانيتهما إلى الدعم الأمريكي، لما يسمّى الطغاة المسلمين الذين يخدمون أغراضها.

أصبحت العولمة موضوعة كبرى في وسائل الإعلام العربية، ويكاد يرتبط ذكرها مع التغلغل الاقتصادي الأمريكي. يغذي الوضع الاقتصادي - الذي يتفاقم بؤسه في معظم البلـدان الإسـلامية، لا بالمقارنة مع الغرب حسب، بل ومع اقتصادات شرق آسيا سريعة النهـوض - خيبـات الأمـل هـذه. تؤشّر مكانة أمريكا الاتجاه الذي ينبغي للّوم والعداء الناجم أن يتخذه.

يؤدي تدنّي الإنتاجية وارتفاع معدلات الولادة في الشرق الأوسط إلى خليط غير مسـتقرّ مع الازدياد المضطرد للعاطلين عن العمل وغير المتعلّمين والشباب المحبط. وفقاً لكل مؤشّرات الأمم المتحدة والبنك الدولي والمرجعيات الأخرى تتخلف الدول العربية في مسائل؛ مثل خلـق فرص العمل والتعليم والتكنولوجيا والإنتاجية عن الغرب تخلّفاً كبيراً. الأسوأ من ذلك أن الأمة العربية تتخلّف عن أحدث الجماعات السائدة باتجاه التحديث على الـنمط الغـربي، ككوريـا وتايوان وسنغافورة.

تصيب الحسابات المقارنة فيما يتعلق بأداء البلدان الإسلامية - كما تعكسها هذه الإحصائيات - المرء بصدمة. في تصنيف الاقتصادات - بحسب الإنتاج المحلي الإجمالي - تأتي تركيا أعلى بلد ذي أغلبية مسلمة، بسكانه البالغ عددهم 64 مليوناً، بالمرتبة الثالثة والعشرين بين النمسا والدانمارك وسكان كل منهما 5 ملايين. ثم تأتي إندونيسيا ذات 212 مليون نسمة في المرتبة الثامنة والعشرين، بعد النرويج ذات 4.5 ملايين، تليها السعودية ذات 21 مليون نسمة. في القُوّة الشرائية المقارنة، تأتي إندونيسيا كأول بلد مسلم بالمرتبة الخامسة عشر، وتليها تركيا في المرتبة التاسعة عشر. أمّا أعلى بلد عربي؛ فالسعودية التاسعة والعشرين، وتليها مصر. في مستوى المعيشة كما يعكسه الإنتاج المحلي الإجمالي للفرد، تأتي قطر أول بلد مسلم في المرتبة الثالثة والعشرين، تليها الإمارات العربية المتحدة في المرتبة الخامسة والعشرين، والكويت بالمرتبة الثامنة والعشرين.

في التصنيف على أساس الإنتاج الصناعي تأتي السعودية في مرتبة أعلى بلد مسلم بالتسلسل الحادي والعشرين، تليها إندونيسيا مع النمسا وبلجيكا في المرتبة الثامنة والعشرين، ثم تركيا مع النرويج في المرتبة السابعة والعشرين. أمّا في التصنيف على أساس التجميع الصناعي؛ تأتي مصر أعلى البلدان العربية مرتّبةً في التسلسل الخامس والثلاثين، مع النرويج. أمّا في التصنيف على أساس ضمان المستقبل؛ فتأتي الكويت أول دولة عربية في المرتبة الثانية والثلاثين، بعد الدانمارك، تليها كوبا. في ملكية خط هاتفي لكل مئة فرد، كانت الإمارات العربية أول بلد مسلم في القائمة في المرتبة الثالثة والثلاثين، بعد مكاو، وتليها رئينون. في ملكية كل مئة فرد حاسوباً، تأتي البحرين أول بلد مسلم بالمرتبة الثالثة عشر، تليها قطر بالمرتبة الثانية والثلاثين، والإمارات العربية المتحدة في المرتبة الرابعة والثلاثين.

تقدم مبيعات الكتب صوراً أكثر تجهّماً. ففي تصنيف ضمّ سبعة وعشرين بلداً، تصدّرته الولايات المتحدة، وانتهى بفيتنام، لم يرد اسم أي دولة مسلمة. في فهرس تطور الإنسان، جاءت بروناي في التسلسل 32، والكويت 36، والبحرين 40، وقطر 41، والإمارات العربية المتحدة 44، وليبيا 66، وكازاخستان 67، والعربية السعودية مع البرازيل بالتسلسل 68.

ويكشف تقرير عن تطور الإنسان العربي عام 2002 أعدّته لجنة من المثقفين العرب ونُشر برعاية الأمم المتحدة عن تناقضات صارخة. "يترجم العالم العربي سنوياً حوالي 330 كتاباً، خمس ما تترجمه اليونان. وجميع الكتب التي تُرجمت منذ زمن الخليفة المأمون (القرن التاسع) يبلغ حوالي 100.000كتاب؛ أي حوالي ما تُترجمه أسبانيا في عام واحد". وليس الوضع الاقتصادي بأفضل حالاً: "بلغ الإنتاج الداخلي الإجمالي لكل الأقطار العربية 531.2 بليون دولار عام 1999 - أدنى ممّا حقّقه بلد أوربي واحد، إسبانيا "595.5 بليون دولار". يبيّن الجدول التالي وجهاً آخر من أوجه قصد التطور، إذ يبيّن "العلماء الباحثون العاملون وعدد مرات الاستشهاد بالمقالات وبأوراق العمل لكل مليون من السكان، 1987"[1].

البلد	العلماء الباحثون	مقالات استشهد بها 40 مرة فأكثر	تكرارات الاستشهاد بأوراق علمية لكل مليون إنسان
الولايات المتحدة	466.211	10.481	42.99
الهند	29.509	31	0.04
أستراليا	24.963	280	17.23
سويسرا	17.028	523	79.90
الصين	15.558	31	0.03
إسرائيل	11.617	169	36.63
مصر	3.782	1	0.02
جمهورية كوريا	2.255	5	0.12
العربية السعودية	1.915	1	0.07
الكويت	884	1	0.53
الجزائر	362	1	0.01

قلما يسبب هذا أي دهشة، إذا أخذنا أرقام المقارنة في مجال الأمية.

في تصنيف 155 بلداً على أساس الحرية الاقتصادية، أبلت دول الخليج العربي بلاء حسناً، فجاءت البحرين رقم 9، والإمارات العربية المتحدة 14، والكويت 24. لكن الأداء الاقتصادي للعالم العربي - وبصورة أعم العالم الإسلامي - يظل متواضعاً نسبياً. استناداً إلى البنك الدولي، كان معدل الدخل السنوي عام 2000 للبلدان الإسلامية من المغرب إلى بنغلادش نصف المعدل العالمي، لا أكثر. وفي التسعينيات، كان الإنتاج القومي الإجمالي للأردن وسوريا ولبنان - ثلاث دول مجاورة لإسرائيل - أقل كثيراً من الإنتاج القومي الإجمالي لإسرائيل وحدها. أمّا الأرقام على مستوى الفرد الواحد؛ فأسوأ. استناداً إلى إحصائيات الأمم المتحدة، كان الإنتاج القومي الإجمالي لإسرائيل على أساس الفرد الواحد ثلاثة أضعاف ونصف نظيره اللبناني، واثنا عشر ضعف نظيره الأردني، وثلاثة عشر ونصف ضعف نظيره المصري.

أمّا المقارنة بالغرب، وكذلك بالشرق الأقصى الآن، فأكثر إحباطاً. ربما مرّت مثل هذه التفاوتات في الأوقات السابقة دون أن تلحظها الأغلبية الواسعة من السكان. أمّا اليوم؛ فقد بات حتّى أفقر الناس، وأكثرهم جهلاً، بفضل وسائل الإعلام والاتصالات الحديثة، يعي الفروق بينه وبين الآخرين، ويتألم لها، سواء على المستوى الفردي، أم الأسري، أو المحلّي، أو الاجتماعي.

لم تحقّق الحداثة في السياسة أفضل ما هو أفضل ممّا حقّقته في الرفاهية الاجتماعية والاقتصادية، بل ربما كانت أسوأ. كان للعديد من البلدان الإسلامية تجارب مع هذا النوع أو ذاك من المؤسّسات الديمقراطية. سبقت تلك التجارب في بعض البلدان كتركيا وإيران، إصلاحات وطنية تجديدية، بينما أسّسها في بلدان أخرى، كما في العديد من الأقطار العربية، الإمبرياليون، وخلّفوها وراءهم عندما رحلوا. يكاد تاريخ هذه التجارب - عدا تجربة تركيا-

أن يكـون تاريخـاً تقـوم لـه قائمـة. انتهـت - تقريبـاً - كـل الأحـزاب والبرلمانـات ذات الـنمط الغـربي إلى حكومـات اسـتبدادية فاسـدة، يحـافظ عـلى بقائهـا القمـع والتلقـين الفكـري. الأنمـوذج الأوروبي الوحيـد الـذي نجـح، بمعنـى تحققيـه أهدافـه، هـذا أنمـوذج دكتاتوريـة الحـزب الواحـد. جمـع حـزب البعـث بقسـميه المختلفـين اللـذان حكـما العـراق وسـوريا بـين أسـوأ أنموذجيـه النـازي والسـوفيتي. لم يسـتطع أي قائـد عـربي منـذ وفـاة الـرئيس المصري نـاصر 1970 أن يحظـى بتأييـد قـوي خـارج بـلاده. ولم تكـن لـدى أي قائـد عـربي الرغبـة، بـترك تطلّعـه للسـلطة إلى انتخابـات حـرة. القائـدان اللـذان اقتربـا مـن الفـوز بتأييـد عـربي شـامل هـما الـرئيس الليبـي معمـر القـذافي في السـبعينيات، وصـدام حسـين في وقـت أحـدث. أن يكتسـب هـذا الاثنـان مـن بـين كـل الحكّـام العـرب شـعبية واسعة كهذه أمر مرعب وكاشف معاً بذاته.

لهذا؛ قلما يُدهش أن يتحدث كثير مـن المسـلمين عـن إخفـاق الحداثـة، ويسـتجيبون لتشخيصات شتّى، لعلل مجتمعاتهم، وشتّى وصفات علاجهم.

الحل - بالنسبة للبعض - أن مزيـداً مـن الحداثـة والأفضـل مـن صـيغها يضـع الشرق الأوسط في خط واحد مع العالم الحديث الآخذ بأسبابها. والحداثة ذاتهـا، بـرأي آخـرين، هـي المشكلة، ومصدر ولايتهم كلها.

يتزايـد وعـي شـعوب الشرق الأوسـط، بعمـق الأخـدود، وسـعته بـين فـرص العـالم الحـر خـارج حـدود بلـدانهم، والقمـع الرهيـب داخلهـا. ومـن الطبيعـي أن يُوجَّـه الغضـب النـاجم عـن ذلـك إلى حكّـامهم، وإلى مَـن يعـدّونهم عـاملين عـلى المحافظـة عـلى أولئـك الحكّـام في السـلطة لأسـباب أنانيـة. لاشـك أن مـمّا لـه مغـزاه أن يكـون كـل الإرهـابيين الـذين تـم التعـرّف علـيهم في هجـمات 11 أيلـول عـلى نيويـورك والبنتـاغون قـد جـاؤوا من العربية السعودية ومصر - أي من حكّام، يُعدّ حكّامها أصدقاء للولايات المتحدة.

قدّم أحد ناشطي الحركة تفسيراً لهذه الواقعة المثيرة للتساؤل، وهو أن أغلب الإرهابيين من الدول الصديقة، لا يواجهون سوى القليل من المصاعب في الحصول على سمة دخول إلى الولايات المتحدة. السبب الأهم هو العدوانية الأعمق في البلدان التي تتحمّل فيها الولايات المتحدة مسؤولية المحافظة على أنظمة طاغية. الحالة الخاصة التي تخضع لتدقيق متزايد هي حالة العربية السعودية؛ حيث يبدو أن عناصر مهمة من النظام نفسه تشترك في هذه العدوانية، وترعاها أحياناً.

<u>الفصل الثامن</u>

زواج السلطة السعودية والتعاليم الوهابية

لرفض الحداثة، وتفضيل الرجوع إلى الماضي المُقدّس تاريخ حافل ومتشعّب في المنطقة، وقد أدى إلى ظهور عدة حركات. لاشك أن الوهابية - نسبةً لمؤسّسها - أهم تلك الحركات.

كان مُحمّد عبد الوهاب (1703- 1792) عالماً دينياً من منطقة نجد في الجزيرة العربية التي تولى شيوخ محليين من آل سعود. شنّ عبد الوهاب في 1744 حملة للتطهير والتجديد. كان هدفه المعلن العودة إلى إسلام المؤسِّس النقي الحقيقي، وإزالة مَن ألحق به من الإضافات والتشويهات، وعند الضرورة، تحطيمها.

اعتنق الحركة الوهابية حكّام نجد السعوديين، وروّجوا لها - بنجاح، لبرهة من الزمن - بقُوّة السلاح. وسّعوا دائرة حكمهم، ونشروا عقيدتهم - عبر سلسلة من الحملات - إلى الكثير من مناطق وسط الجزيرة، وشرقها، بل أغروا على أراضي الهلال الخصيب التي كانت خاضعة للإدارة العثمانية المباشرة. بعد سلب كربلاء، الموقع الشيعي المُقدّس في العراق، وجهوا همّهم إلى الحجاز ، وفي 1804- 1806 احتلوا - بمصطلحاتهم - طهّروا المدينتين المُقدّستين مكة

والمدينة المنوّرة. واجهوا - عندئذٍ - تحدي السلطان العثماني بوضوح، ونددّ به آل سعود، بصفته مرتدّاً عن عقيدة الإسلام، وغاصباً لدولة المسلمين.

كانت الإمبراطورية العثمانية - حتّى في مرحلة التردي تلك - قادرة على التصدي لتمرّد الجزيرة. وبعون من باشا مصر وقواته، انتهت المهمة في 1818؛ حيث احتُلّت العاصمة السعودية، وأُرسل الأمير السعودي إلى استانبول، وضُربت عنقه. لم يعد للدولة السعودية وجود عندئذٍ، أمّا المذهب الوهابي؛ فظل موجوداً، ومنذ عام 1823 تقريباً، كان أحد أفراد آل سعود قادراً على إعادة تشكيل البلدية السعودية، وعاصمتها الرياض. ومرة أخرى، ساعد انصهار المذهب الوهابي آل سعود، وساعدهم هؤلاء.

كان ظهور الوهابية في جزيرة عرب القرن الثامن عشر في مقياس المغزى ردة فعل على تحديات تلك المرحلة. من تلك الظروف - بطبيعة الحال - تراجع الإسلام، وما يقابله من تقدّم المسيحية. كان ذلك يجري منذ أمد طويل، لكنها كانت عملية بطيئة وتدريجية، وقد ابتدأت في الأطراف النائية من العالم الإسلامي. أصبحت بحلول القرن الثامن عشر واضحة حتّى في المركز. كان انسحاب العثمانيين الطويل البطيء في البلقان وتقدم الإنكليز في الهند ما يزالان بعيدين عن الجزيرة العربية، لكن تأثيرهما كان محسوساً من خلال العثمانيين، من جهة، ومن خلال خليج فارس، من جهة أخرى، ومن المؤكد أنه انعكس من خلال الحجّاج الذين يأتون الجزيرة العربية من شتّى أصقاع العالم الإسلامي كل عام. لم يكن سخط الوهابيين موجّهاً نحو الخارج أساساً، بل صوب مَن عدّوهم خونة للإسلام، ومنتقصين منه في الداخل: من عالج أي نوع من الإصلاح التحديثي من جهة، ومن جهة أخرى - وكان هذا الهدف أكثر مباشرية - مَن عدّه الوهابيون مفسداً ومنتقصاً من قيمة التراث الإسلامي الحق للنبي (ص) وصحابته. واجهت الوهابية معارضة قوية من المدارس والرؤى الإسلامية الأخرى، سُنّيّة كانت أم شيعية. وعارضوا - خصوصاً - التصوّف الإسلامي، غير منددين بصوفيته وتسامحه، حسب، بل عدّوا الصوفية وثنية متّحدة بتقديس الفرد.

فرض الوهابيون - حيثما تمكنوا - معتقداتهم بأبلغ صور العنف والقُوّة، مهدمين المراقد المُقدّسة، منتهكين حرمة ما أسموه الأماكن المُقدّسة الزائفة، ومواضع تقديس الأشخاص حدّ الوثنية، مطيحين بأعناق أعداد كبيرة من الرجال والنساء والأطفال الذين أخفقوا في بلوغ متطلّباتهم للنقاء والأصالة الإسلاميين. الممارسة الأخرى التي قدّمها ابن عبد الوهاب هي التنديد بالكتب، وحرقها. شملت هذه الكتب الأعمال الإسلامية في الإلهيات والشريعة، ممّا عدّه الوهابيون مناقضاً لمذهبهم. وغالباً ما رافق إحراق الكتب إعدام مؤلّفيها وناسخيها والقائمين على تعليمها.

جرى التحالف الثاني بين المذهب الوهابي وآل سعود في السنوات الأخيرة للإمبراطورية العثمانية، واستمر إلى اليوم الحاضر. حوّل تطوّران - في بواكير القرن العشرين - الوهابية إلى قُوّة كبرى في العالم الإسلامي، وخارجه. أولهما توسّع المملكة العربية السعودية، وتوحدّها؛ إذ لعب الشيخ عبد العزيز بن سعود (وُلد حوالي 1880، وحكم 1902- 1953) في السنوات الأخيرة للإمبراطورية العثمانية، بمهارة، بالصراع بين العثمانيين من جهة، والقُوّة البريطانية في شرقي الجزيرة العربية الآخذة بالتوسّع، من جهة أخرى. في كانون الثاني 1915، وقّع اتفاقية مع بريطانيا، يظل بموجبها متمتّعاً باستقلاله الداخلي، ويحصل على مساعدة مالية، ووعد بالإسناد، إذا هُوجم. انتهت هذه المرحلة بنهاية الحرب، وتقسيم الإمبراطورية العثمانية، وظل ابن سعود وحيداً مع الإنكليز وجهاً لوجه. تحسّنت أحواله جدّاً بهذا الوضع الجديد، وصار قادراً على توسيع ملكه، بمراحل متوالية. وهزم - أخيراً - خصمه الدائم ابن رشيد عام 1921 في شمالي نجد، وضم مقاطعاته، واتخذ لقب سلطان نجد.

استوجبت المرحلة - الآن - صراعاً أكثر حسماً، للسيطرة على الحجاز. تولى حكم هذه المنطقة التي تضم المدينتين المُقدّستين مكة والمدينة المنورة أفراد من السلالة الهاشمية، نسل النبي ﷺ لأكثر من ألف سنة، وقد خضعت في القرون الأخيرة لسلطان عثماني متراخٍ. وبدت إقامة ملكيات، ترأسها بطون مختلفة من الأسرة الهاشمية في العراق وشرقي الأردن، وكأنها إعادة بناء لمقاطعات العثمانيين السابقين العربية بعد الحرب

العالمية الأولى، ورآها ابن سعود تهديداً لملكه. بعد سنوات من العلاقات المتردّية، قدّم الملك حسين في الحجاز ذريعتين: الأولى ادّعاؤه الخلافة لنفسه، وثانيهما رفضه السماح للحجّاج الوهابيين بأداء مناسك الحج إلى المدينتين المُقدّستين. كانت ردّة فعل ابن سعود احتلاله الحجاز 1925.

أصابت حرب آل سعود في سبيل الفتح نجاحاً مؤزّراً. احتلّت قواتهم مكة بدايةً، ثم استسلمت المدينة المنورة في 5 كانون الثاني 1925 بعد عشرة أشهر من الحصار استسلاماً سلمياً. بعد أسبوعين، طلب الملك علي، الذي كان قد خلف أباه حسين، من نائب القنصل البريطاني في جدة، إخبار ابن سعود، بانسحابه من الحجاز، بتأثيراته الشخصية. أصبح ممهّداً - الآن - أمام ابن سعود لادّعاء الملوكية لنفسه على الحجاز، والسلطنة على نجد وتوابعها في 8 كانون الثاني 1926.

اعترفت القوى الأوروبية بالنظام الجديد، سيما الاتحاد السوفيتي، بمذكرة دبلوماسية في 16 شباط إلى ابن سعود: "على أساس من مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها، وبناء على احترام إرادة الشعب الحجازي، كما عبّر عنها باختياركم ملكاً عليهم"[1]. وقعت معاهدة بين ابن سعود وبريطانيا العظمى، تعترف باستقلال المملكة استقلالاً تاماً في 20 مايس 1927. اقتفت هذا المنهج دول أوروبية أخرى.

كان اعتراف المسلمين - بالمقابل - أبطأ، وأكثر تردّداً. زارت بعثة إسلامية من الهند جدة، وطالبت الملك بتسليم السيطرة على المدينتين المُقدّستين إلى لجنة من الممثلين، تتولى البلدان الإسلامية كافة تعيينها. لم يستجب ابن سعود للبعثة، وأعادها بحراً إلى الهند.

في حزيران من العام نفسه، أقنع ابن سعود مؤتمراً لعموم المسلمين في مكة، استضاف ملوك الدول الإسلامية المستقلة ورؤساءها، وممثلين من المنظمات الإسلامية في الدول التي لا يحكمها المسلمون. حضر المؤتمر تسعة وستين شخصاً من أنحاء العالم الإسلامي كافة. خاطبهم ابن سعود موضحاً أنه بات - الآن - حاكماً على الحجاز، وأنه

سينفّذ التزاماته، بصفته قيّماً على المواقع المُقدّسة وحامٍ للحجيج، وأنه لن يسمح بتدخّل خارجي في أدائه تلك المهام.

أضاف ابن سعود في ضيوفه ردود أفعال متباينة حينها. خالف البعض رأيه، وغادر، وتقبّل آخرون الوضعَ الجديد، وأقرّوه. من البارزين بين الأخيرين، رئيس وفد مسلمي الاتحاد السوفيتي الذي أعلن قائده - في مقابلة مع وكالة الأنباء السوفيتية TASS - أن المؤتمر الإسلامي اعترف بابن سعود قيّماً على المواقع المُقدّسة، كما أن المؤتمر دعا إلى تحويل أجزاء من الأردن إلى مملكة الحجاز الجديدة، وعبَّر - عموماً - عن دعم ابن سعود. اقتضى اعتراف الدول الإسلامية، بل العربية، زمناً أطول نوعاً ما. وقِّعت اتفاقيتا صداقة مع تركيا وإيران 1929 ومع العراق 1930 ومع الأردن 1933، ولم تعترف مصر رسمياً بضم السعودية للحجاز حتّى اتفاقية مايس 1936.

في الوقت ذاته، واصل ابن سعود - بسرعة الاعتراف به - إعادة بناء أجنحة دولته النائبة، وطالب في أيلول 1932 بتسمية الدولة الاتحادية الجديدة باسم المملكة العربية السعودية. في السنة التالية، عيّن أكبر أبنائه، سعود، وليّاً للعهد.

شهد العام نفسه تطوّراً مؤثراً كبيراً آخر، بتوقيع اتفاقية بين وزير المالية السعودي وممثل ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا في 19مايس 1933: استندت السياسات السعودية والعقائد الوهابية على أساس اقتصادي رصين.

يعود تاريخ المصالح الغربية في نفط الشرق الأوسط إلى بدايات القرن العشرين، وكانت الشركات الإنكليزية والألمانية والفرنسية تتولى إدارتها، بصفة أساس. أمّا المصالح الأمريكية؛ فقد بدأت في أوائل العشرينيات؛ إذ تزايد الاهتمام باحتمال نفاد مصادر النفط الداخلية، والتخوف من احتكار أوروبي لنفط الشرق الأوسط. دخلت الشركات الأمريكية - بدايةً - سوق نفط الشرق الأوسط كشريك صغير في اتحادات تجارية أوروبية. وكانت ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا أول شركة أمريكية، تتولى عمليات استكشاف النفط، بصورة جادة. بعد شيء من الجهود غير المثمرة في دول الخليج، عادت

ستاندرد أويل - أخيراً - إلى السعوديين 1930، وطلبت إذناً بالبحث الجيولوجي في المنطقة الشرقية. رفض الملك ابن سعود الطلب بدايةً، لكنه وافق - بعدئذٍ - على مباحثات، تُوّجت باتفاقية 1933. لاشك أن من بين أسباب تغيير الملك رأيه الكساد الاقتصادي الذي بدأ عام 1929، وأدى إلى تدهور متزايد في مالية المملكة.

بعد أقل من أربعة أشهر على توقيع الاتفاقية، وصل أول جيولوجي أمريكي إلى المنطقة الشرقية من الجزيرة العربية. بنهاية العام، استقرت البعثة الاستكشافية على أفضل حال، في نهاية السنة التالية، بدأت الفِرق الأمريكية، استخراج النفط، وتصديره. قاطعت الحرب العالمية الثانية عملية التطوير، لكنها استُئنفت مع نهاية الحرب. يمكن التمثيل لبعض مؤشرات مقياس تطور استخراج النفط في الجزيرة العربية بالأرقام، بملايين البراميل: 1945: 21.3، 1955: 356.6، 1965: 804.8، 1975: 2.582.5.

أدى تدفّق النفط نحو الخارج، وما قابله من تدفّق المال نحو الداخل إلى تغييرات هائلة في المملكة العربية السعودية، وفي بنيتها ومنهج حياتها الداخلي، ودورها الخارجي، وتأثيرها في البلدان المستهلكة للنفط، ودور أقوى في العالم الإسلامي. كان أكثر المتغيّرات أهمية، تأثير الوهابية، ودور أنصارها الأوائل. أصبحت الوهابية المذهب الرسمي الذي تدعمه الدولة لإحدى أقوى الحكومات تأثيراً في كل المسلمين - سلطة على أقدس موضعين إسلاميين والمضيّف السنوي للحج الذي يأتي بملايين المسلمين من أرجاء العالم كافة؛ ليشاركوا في شعائره، وطقوسه. في الوقت ذاته، بات تحت تصرّف معلّمي الوهابية ووعّاظها مصادر تمويل ضخمة، استعملوها في الترويج لاتجاههم الإسلامية، ونشره. قد تكون مراكز الدعوة الوهابية - حتّى في البلدان الغربية في أوروبا وأمريكا - المراكز الوحيدة المتيسّرة لحديثي الإسلام، أو للآباء المسلمين الراغبين بتقديم شيء لأبنائهم من الأساسيات في أصولهم الدينية وتقليدهم الثقافي. يُقدَّم هذا التلقين في مدارس خاصة، وفي دورات دينية، وفي مدارس المساجد ومخيمات العطلة، وفي السجون، بصورة متزايدة.

يشير مصطلح مدرسة في الاستعمال الإسلامي التقليدي إلى مركز للتعليم العالي والمنح الدراسية والتدريب والبحث. كانت المدرسة الإسلامية سلفاً لعديد من جامعات العصور الوسطى الأوروبية، وأنموذجاً لها في أكثر من وجه. اكتسبت كلمة مدرسة - في الاستعمال الحديث - معنىً سالباً: باتت تشير إلى مركز لتلقين التعصّب الأعمى والعنف. يمكننا الوقوف على مثال فاضح في خلفيات عدد من الأتراك الذي أُلقي عليهم القبض، للشكّ باشتراكهم في أنشطة إرهابية. وُلد كلّ منهم في ألمانيا، وتعلّم فيها، ولم يُولد أي منهم في تركيا، أو يتعلّم فيها. لا تشرف الحكومة الألمانية على التعلم الديني للأقليات. بينما ترصد الحكومة التركية أموراً كهذه. لا تشرف السلطة نهائياً في أوروبا وأمريكا، بسبب من تردّد الدولة في الانغماس في الأمور الدينية، على تدريس التربية الإسلامية في المدارس، أو في أي مكان آخر. من الواضح أن هذا الوضع يصبّ في مصلحة الجاليات الصغيرة وذوي الإيمان الراسخ والأوفر مالاً.

ربما أمكن التنبّؤ بالصورة من خلال موازاة خيالية. تخيّل أن كوكلاكس كلان أو مجموعة مماثلة أخرى تمكّنت من السيطرة التامة على ولاية تكساس ونفطها، وبالتالي؛ على عوائد النفط، واستعملت المال - بعدئذٍ - لتأسيس شبكة من المدارس والكليات حسنة التمويل في طول البلاد المسيحية وعرضها ناشرةً ضربها المميّز من المسيحية. هذا المثال أدنى جرأة من الواقع علّة نحو ما؛ حيث إن معظم الأقطار المسيحية تدير أنظمة تعليمية خاصة بها. ليست الحال على ذلك في بعض البلدان المسلمة؛ حيث تمثل المدارس والكليات التي ترعاها الوهابية التعليم الوحيد المتاح. بهذه الوسائل، حمل الوهابيون رسالتهم إلى أرجاء العالم الإسلامي كافة، وإلى الأقليات المسلمة في البلدان الأخرى، بصورة متزايدة، سيّما في أوروبا وشمال أمريكا. يموّل الوهابيون حياةَ المسلمين الاجتماعية المنظّمة والتعليم، بل والعبادة، إلى حدّ، ينذر بالخطر، ويوجّهونها، وتسيطر المبادئ والمواقف الوهابية على ضرب الإسلام الذي يمارسونه. للقيّم على الحرمين الشريفين وعائدات النفط تأثير عالمي، كان لولاه طرفاً بعيداً في بلدٍ ناء.

أتى استغلال النفط بثروة واسعة جديدة، وجاء معها بتوترات اجتماعية متزايدة. كان تفاوت الثراء في المجتمع القديم محدوداً، وتأثيراته مقيّدة بالأواصر والالتزامات الاجتماعية التقليدية التي كانت تربط بين الأغنياء والفقراء من جهة ،وبخصوصية حياة المسلمين الداخلية، من جهة أخرى. وعلى حين غِرة، وسَّع التحديث فجوة، ودمّر تلك الأواصر الاجتماعية، وجعل التفاوتات الناجمة - من خلال عالمية وسائل الإعلام الحديثة - واضحة للعيان على نحو مؤلم. أدّى هذا كله إلى خلق جمهور جديد متلهف لتلقّي تعاليم الوهابية وتعاليم المجموعات ذات التوجّهات الفكرية المناسبة، ومن بين هؤلاء الأخوان المسلمون في مصر وسوريا، وطالبان في أفغانستان.

وكان للثروة النفطية تأثيرات سياسية سالبة. يمثل حظر تجول المؤسّسات التمثيلية "لا ضرائب دون تمثيل" خطوة حاسمة في تطور الديمقراطية الغربية. من سوء الحظ أن العكس صحيح كذلك - لا تمثيل دون ضرائب.

لا تحتاج الحكومات ذات الثروة النفطية إلى مجالس شعبية، لفرض الضرائب، وتحصيلها، ويمكنها أن تتحمّل - لبعض الوقت، في الأقل - التغاضي عن الرأي العام. ليس حتّى لمصطلح الرأي العام إلاّ القليل من المعنى في مجتمعات كهذه. وبغياب أي متنفّس آخر، تجد عدم القناعة المتنامية التعبير عنها في الحركات الدينية المُتطرّفة.

بات من المعتاد - الآن - وصف هذه الحركات بأنها مُتطرّفة. المصطلح غير سارّ، لأسباب عدّة. كان هذا المصطلح - أصلاً - مصطلحاً أمريكياً بروتستانتياً، استُخدم في وصف كنائس بروتستانتية معينة، تختلف من بعض الوجوه عن كنائس التيار العام. كان الاختلافان الرئيسان الليبرالية اللاهوتية والنقد الكتابي، وكان كلاهما قابلاً للاعتراض عليه. إلهية القرآن وعصمته معتقد إسلامي أسلس، ومع أن البعض ربما شكّ فيهما، فإنّ أحداً لم يتحداهما. ما من شبه بين هذه الاختلافات والاختلافين الآنفين؛ إذ لا يختلف

الأصوليين الإسلاميين الإلهيين عن التيار الإسلامي العام. لذا؛ قد يكون المصطلح مُضلِّلاً. لكنه غدا مصطلحاً شائع الاستعمال، بل وتُرجم حرفياً إلى العربية والفارسية والتركية.

أتاح أفول التيار العروبي فرصة للأصولية الإسلامية؛ لتتخذ مظهر البديل الأقوى جاذبية لكل الذين شعروا بوجوب وجود ما هو أفضل وأكثر صدقاً وعوناً من طغيان حكّامهم العاجزين، وإفلاس الأيديولوجيات المدسوسة عليهم من الخارج. تتغذّى هذه الحركات على الحرمان والازدراء، وعلى ما تثيره هذه من حنق وسخط، بعد إخفاق كل العلاجات السياسية والاقتصادية، أجنبية مستوردة كانت، أم محاكاة محلية لها. لقد جرى - كما يرى الكثيرون في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا - تجريب كلّ من الرأسمالية والاشتراكية، وقد أخفقتا، ولم يؤدِّ الأنموذجان الغربي والشرقي إلاّ إلى الفقر والطغيان. قد يبدو من الظلم توجيه اللوم، في جزائر ما بعد الاستقلال، إلى الغرب على السياسات الستالينية الكاذبة للحكومات المعادية للغرب، وعن إخفاق إحداهما، وعجز الأخرى. لكن الاستياء الشعبي ليس مغلوطاً بالكامل في رؤيته العالم الغربي والأفكار الغربية، بصفتهما المصدر النهائي للتغيّرات الكبيرة التي حوّلت العالم الإسلامي في القرن الأخير، وما ينوف عليه. نتيجة لذلك، يُوجّه الكثير من الغضب إلى الموالين للغرب؛ إذ يُعدّون أعداء الإسلام القدامى والدائمين، منذ الصدامات الأولى بين الخلفاء المسلمين والأباطرة المسيحيين، وإلى المنادين بالاتجاه نحو الغرب، الذين يُعدّون أدوات الغرب وشركاءه وخونة لعقيدتهم وشعبهم.

تتمتّع الأصولية الدينية بمزايا عدة، بالمقارنة مع الأيديولوجيات المنافسة. فهي مفهومة لدى المسلمين، متعلّمين كانوا، أم غير متعلّمين. وتقدم منظومة من الموضوعات والشعارات والرموز المألوفة بعمق، ولذلك؛ فهي مؤثرة في حشد التأييد، وفي تشكيل كل من نقد ما هو مغلوط، ووضع برنامج لتصحيحه. وتتمتع الحركات الدينية بميزة عملية أخرى في مجتمعات الشرق الأوسط وشمال أفريقيا التي تخضع للقليل أو الكثير من الحكم الأوتوقراطي: بوسع الحكّام الدكتاتوريين حظر الأحزاب السياسية، حظر

الاجتماعات، لكنْ؛ لا يسعهن حظر العبادة، ولا يمكنهم - إلاّ إلى مدى محدود - السيطرة على المواعظ الدينية.

النتيجة هي أن المجموعات الدينية المعارضة هي المجموعات الوحيدة التي لديها أماكن اجتماعات منتظمة، يمكنهم الاجتماع فيها، وتحت تصرفهم شبكة خارج سيطرة الدولة، أو في الأقل، لا تخضع للدولة بالكامل. وكلما كان النظام أشدّ قمعاً، كلما ساعد ذلك الأصوليين في احتكارهم المعارضة حصرياً.

ليست الراديكالية الإسلامية المقاتلة جديدة. فمنذ بدايات التأثير الغربي في القرن الثامن عشر، عبّرت حركات المعارضة - في أحيان عدّة - بصيغ دينية مقاتلة. وقد أخفقت - حتّى الآن - جميعها. أخفقت - أحياناً - بطريقة سهلة، تخلو من المعاناة، بسبب هزيمتها، وقمعها، وفي هذه الحالة، يقدّم لها تاج الشهادة شيئاً من النجاح. وأخفقت - أحياناً - بطريقة قاسية، باستحواذهم على السلطة، ثم وجوب مواجهتهم مشاكل اقتصادية واجتماعية عويصة، ليست لديهم حلولاً واقعية لها. ما حدث - عادةً - هو أنهم أصبحوا - بمرور الوقت - من الظلم والنفعية الذاتية على حساب الغير أسوةً بأسلافهم الذين نحّوهم. هذه هي المرحلة التي يباتون فيها خطراً حقاً؛ إذ تدل الثورة، بالطوبولوجيا الأوروبية، المرحلة النابليونية، بل ربما علينا القول، المرحلة الستالينية. تتمتع هذه الحركات، في برنامج عدواني توسعي، شأن أسلافها اليعاقبة والبولشفيك بمزايا الطابور الخامس في كل بلد ومجتمع، وتشاركه خطاباً شاملاً عاماً.

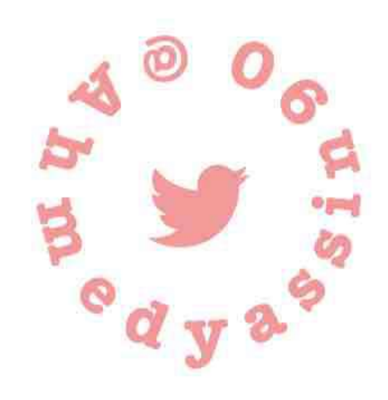
الأصوليون الإسلاميون - عموماً - هم الذين يحسّون أن مشاكل العالم الإسلامي حالياً، ليست بسبب عدم كفاية التحديث، بل نتيجة فرط التحديث الذي يعدّونه خيانةً للقِيَم الإسلامية الحقّة. والعلاج برأيهم، العودة إلى الإسلام الحق، ويشمل ذلك إلغاء كل القوانين والاستعارات الاجتماعية الأخرى التي اقترضت من الغرب والعدة مجدداً إلى القانون الإسلامي المُقدّس، بصفتها القانون الأرضي الفعّال. والصراع النهائي برأيهم، ليس مع الدخيل الغربي، وإنما مع الخائن الموالي للغرب في الداخل. وأكثر أعدائهم

خطورة، كما يرون، المسلمون الزائفون والخارجون من الإسلام الـذين يحكمـون بلـدان العـالم الإسلامي، واستوردوا مناهج كافرة، فرضوها على شعوبهم المسلمة.

أوضح هذه النقطة عبد السلام فرج، وهو مصري، أُعـدم مـع آخـرين في نيسـان 1982 بتهمة التخطيط والتحريض على اغتيـال الـرئيس السـادات. تشـير ملاحظاتـه التـي ذكرهـا في كرّاسه له إلى الحافز على تلك العملية، وتلقي عليه الضوء:

> إن قاعدة وجـود الإمبرياليـة في أراضي المسـلمين هـي هـؤلاء الحكّـام أنفسـهم. بدايةً، ليست مصارعة الإمبريالية بالعمل الجيّد أو المفيد، إنها مضيعة للوقـت، لا أكثر. واجبنا التركيز على قضيتنا الإسلامية، فهي الأسـاس - أولاً - لكـل قـوانين الـلـه في بلادنـا التـي ترفـع كلمـة الـلـه. لاشـك أن أول معـارك الجهـاد هـي استئصال هؤلاء القادة الكَفَرَة، واستبدالهم بنظام إسلامي، يتسم بالكمال. ومـن هذا، تتحرّر طاقاتنا[2].

في اللحظات القلائل التي مرَّت بين قاتل الرئيس السـادات واعتقالـه مـع بقيـة القتلـة، هتف قائدهم بفخر: "لقد قتلتُ فرعون! لستُ خائفاً من الموت". لو كانت خطيئة السـادات - في نظر القتلة، كما افترض في العالم العربي على نطاق واسع - إقامة السلام مع إسرائيل، لكان اختيار فرعون لقبـاً اختيـاراً غـير ملائـم. مـن الواضـح أن إشـارته لم تكـن إلى فرعـون الكتـب المدرسـية المصريـة الحديثـة، ممثـل عظمـة مصر القديمـة ومجـدها. إنـه فرعـون "الخـروج"، الطاغية الوثني، في القرآن، كما في الكتاب المُقدّس، الذي قمع شعب الـلـه. ولاشـك أن أسـامة بن لادن تكلم بهذا المعنى على الرئيس بوش، بصفته فرعون يومنا الحـاضر. في زمـن الخـروج، كان أطفال إسرائيل شعب الـلـه. لا يعترف أغلب مسلمي اليوم بدولة إسرائيل الحديثة وريثـاً شرعياً لأطفال إسرائيل القدامى -في القرآن بنو إسرائيل- ولم يوافق مغتالو السادات - بالتأكيـد - على تعامله مع هذه الدولة. ولكنه، كما أوضح استجواب القتلـة وشركـائهم في الجريمـة، أن السلام مع إسرائيل كان - في نظرهم - ظاهرة صغيرة نسبياً، علامة، لا سبب، على الإثـم الأكـبر بالتخلّي عن دين الـلـه، وقمع شعبه، ومحاكاة مناهج الكافرين.



تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

الفصل التاسع

ظهـور الإرهــاب

أغلب المسلمين ليسوا أصوليين، وأغلب الأصوليين ليسوا إرهابيين، لكن أغلـب إرهـابيي اليوم مسلمون، وهـم فخـورون بتعريـف أنفسـهم، بصـفتهم هـذه. مـن المفهـوم أن يشـكوا المسلمون من وسـائل الإعـلام، وهـي تتحـدث عـن الحركـات والعمليـات الإرهابيـة، بصـفتها "إسلامية"، ويتساءلون عن سبب عدم تعريف وسائل الإعلام - بالمثل - بالإرهابيين الأيرلنديين، أو الباسكيين، بصفتهم "مسيحيين". الإجابة بسيطة وواضحة - فهم لا يصـفون أنفسـهم بتلـك الصفة. شكوى المسلمين مفهومة، لكنها ينبغي أن تخاطب صنّاع الأخبار، لا نَقَلَتها. قد لا يمثل أسامة بن لادن وأتباعه من القاعدة الإسلامَ، والكثير من تصريحاتهم وأفعالهم تنـاقض مبـادئ الإسلام وتعاليمه مباشرة، لكنهم ظهروا في إطار الحضارة الإسلامية، كظهور هتلـر والنـازيين في إطار المسيحية، وتجب رؤية هؤلاء -أيضاً- في سياقهم الحضاري والديني والتاريخي.

ثمـة بضـعة أنـواع مـن التطـرف الإسـلامي اليـوم، أكثرهـا راديكاليـةً القاعـدة الهدّامـة والمجاميع الأخرى التي تمثلها في عموم العالم الإسلامي، والأصولية التـي بـادرت السـعودية إلى تأسيسها، والمؤسّساتية الهرمية للثورة الإيرانية الحاكمة. لكـل مـن هـذه - بمعنـى مـا - أصـل إسلامي، لكن بعضها انحرف بعيداً جدّاً عن أصوله.

كل من هذه المجموعات المُتطرّفة المختلفة تضفي على أفعالها القدسية بالاستشهاد بنصوص إسلامية مُقدّسة، لاسيما من القرآن والأحاديث النبوية، ويزعم كل من الثلاثة تمثيله إسلاماً أكثر صحة ونقاء وحقيقة من الإسلام الذي تمارسه الأغلبية الواسعة من المسلمين، وتؤيّدها أغلبية القيادات الإسلامية، لا كلها. لكن هذه الفئات الثلاثة انتقائية جدّاً في اختيار النصوص المُقدّسة، وتفسيرها. ففي ما يتعلق بأقوال النبي ﷺ مثلاً، يطرحون الطرق المعتبرة على امتداد الزمن، والتي طوّرها الفقراء وعلماء الدين في اختبار صحة الأحاديث التي نُقلت شفاهاً، وواقعيتها، ويتقبّلون، أو يرفضون، بالعكس، حتّى النصوص المُقدّسة اعتماداً على ما يؤيّد أوضاعهم العقائدية، أو العسكرية، أو يعارضها. بل يذهب البعض إلى رفض بعض الآيات القرآنية، بصفتها "ملغاة"، أو "منسوخة". المقولة التي استُخدمت لتبرير هذا هي أن الآيات القرآنية التي أُنزلت في سنوات البعثة الأولى، نسختها آيات أخرى، من المحتمل أنها تنزيل أكثر نضجاً.

من الأمثلة الإيضاحية على انحراف كهذا الفتوى الشهيرة التي أصدرها آية الله خميني في 14شباط 1989 بحقّ الروائي سلمان رشدي، بسبب روايته الموسومة "الآيات الشيطانية". أبلغ آيةُ الله في الفتوى "كل مسلمي العالم الغيورين بأن دم كاتب هذا الكتاب ... الذي أُلّف وطُبع ونُشر معاداةً للإسلام والنبي والقرآن ودماء المعنيين بنشره الذين كانوا يعرفون محتوياته، مهدورة. إنني أدعو المسلمين الغيارى إلى قتلهم، أينما كانوا، لئلا يجسر أحد على النيل من مُقدّسات المسلمين ثانيةً. وكان مَن يُقتل في هذا السبيل، فهو شهيد"[1]. الإكمال تعويض الجنة، وثواباها، أعلن اتحاد خيري في طهران عن تقديم هدية لمن يقتل سلمان رشدي مقدارها 20 مليون تومان (بحدود 3 مليون دولار في ذلك الحين، بالسعر الرسمي، أو بحدود 170 ألف دولار بسعر السوق المفتوحة، إنْ كان إيرانياً، ومليون دولار إن كان أجنبياً. رفع الاتحاد - بعد بضع سنوات - من قيمة الهدية التي لم يطالب بها أحد).

ليس من المفاجئ أن يعني إصدار فتوى للكثير من القرّاء الغربيين الذين لا يلمّون بالأمور، المكافئ الإسلامي لـ"طرح عقد" - أي استهداف ضحية وتقديم مكافأة عالمية لمن

يقتله. اكتسبت الفتوى شأن المدرسة - بسبب الاستعمال الشائع - ظلال معاني بالكامل. هذه - حقيقةً - لا معقولية مهولة. الفتوى مصطلح فني في الفقه الإسلامي للرأي أو الحكم الشرعي في قضية شرعية. تكافئ الفتوى في الشريعة الإسلامية مصطلح responsa prudentium في القانون الروماني. ويُدعى الفقيه المستشار المخوّل بإصدار الفتوى، المفتي. المفتي صياغة لاسم الفاعل من الجذر نفسه. كان آية الله منحرفاً جدّاً في إصدار فتوى بحكم الموت، وتجنيد القتلة عن معايير العمل الإسلامي.

لم يقتصر الانحراف على الحكم والعقوبة، حسب، بل شمل طبيعة الاتهام كذلك. من المؤكد أن الإساءة إلى النبي - التهمة التي وُجّهت إلى سلمان رشدي - إساءة في الشريعة الإسلامية، وقد ناقشها الفقهاء في شيء من التفصيل. تكاد كل تلك النقاشات تتعلق بغير المسلم الخاضع للدولة الإسلامية الذي يسيء إلى النبي.

كرّس الفقهاء عناية كبيرة لتعريف الإساءة، وقواعد الإثبات والعقوبة المناسبة. وأظهروا اهتماماً كبيراً بوجوب عدم اللجوء إلى الاتهام بالإساءة تحقيقاً لشيء من الانتقام الشخصي، وأكدوا على أهمية تمحيص الأدلة بتأنّ، من قبل النطق بأي حكم، أو عقوبة. ذهبت الأغلبية إلى أن الجلد ومدة من السجن عقوبة كافية. وتعتمد شدة الجلد وطول مدة السجن على قُوّة الإساءة. لا تكاد تُذكر حالة المسلم الذي يسيء إلى النبي. لابد أنها حالة شديدة الندرة. وإذ تُناقش هذه الحالة، فمن المعتاد الارتقاء بالفعل إلى مستوى الارتداد عن الإسلام.

كانت تلك تحديداً التهمة الموجّهة إلى سلمان رشدي. الارتداد في الشريعة الإسلامية من الكبائر، وعقوبته - بالنسبة للرجال - القتل. الكلمة المهمة في هذه الجملة القانون (الشريعة). الفقه الإسلامي نظام قانون وعدل، لا إرهاب وإعدام من دون محاكمة. وضع الفقه الإسلامي إجراءات، توجب إحضار المتهم بالإساءة إلى المحكمة، ومواجهة مَن يتهمه، وإعطاءه فرصة الدفاع عن نفسه، ينطق القاضي - بعدئذٍ - بالحكم، فإنْ كان المتهم مذنباً، حُكم بالعقوبة.

لكن ثمة رؤية أخرى، تقول بها أقلية من الفقهاء، وهي أن جريمة الإساءة إلى النبي من الكِبَر أنها تتيح للمرء - في الحقيقة - توجب عليه تجاوز شكليات الإحضار إلى المحكمة، والتقاضي، وتوجيه الاتهام، والتوجه إلى الإعدام مباشرةً. أساس هذا الرأي حديث منسوب إلى النبي ﷺ، لكنه حديث غير مُجمَع على صحته "إنْ أساء إليَّ أحد، فعلى كل مسلم سمع بذلك، قتله فوراً". حتّى بين الفقهاء الذين يقبلون صحة هذا الحديث، شيء من عدم الاتفاق. فيصرّ البعض على وجوب وجود شكل ما من الإجراءات والإباحة، وأن القتل العاجل دون إباحة كهذه جريمة قتل تستوجب العقوبة بصفتها هذه. ويذهب آخرون إلى أن نص الحديث - كما رُوي - يوضح أن الإعداد العاجل والفوري للمسيء ليس شرعياً، حسب، بل وملزماً، وأن الذين لا يفعلون ذلك يرتكبون بأنفسهم إثماً. حتّى أكثر المُتشدّدين والمُتطرّفين من الفقهاء القدامى، لا يطلب من المسلم سوى قتل مَن يسيء إلى النبي، بحضوره، وبمسمع منه. ولا يقولون شيئاً عن القتل المأجور، بسبب إساءة منقولة من بلد بعيد.

يظهر إضفاء القدسية على جريمة قَتْل، مثّلتْها فتوى خميني، بصيغة أكثر تقدماً في ممارسة انتحار القاتل - والإعجاب بها.

لن يجد المرء - إذ يتأمل التاريخ - فرقاً كبيراً بين مقاربة المسلمين الحرب ومقاربة المسيحيين أو اليهود إياها، سواء في حقب التاريخ القديمة، أو الحديثة حين يُتاح لهم هذا الخيار. فيما شنّ المسلمون - ربما أكثر من المسيحيين - الحرب ضدّ أتباع الديانات الأخرى؛ ليأتوا بهم إلى حظيرة الإسلام، كان المسيحيون - باستثناء الصليبيين - أكثر ميلاً إلى خوض حروب دينية داخلية ضدّ مَن عدّوهم منشقّين، وهراطقة. يتخذ الإسلام - بفضل اهتمامات مؤسّساته السياسية والعسكرية - ما قد يُوصف بأنه موقف أكثر عملية من موقف الأناجيل، وأقرب إلى الوقائع الاجتماعية، وعلاقات الدول. موقف الإسلام أقرب إلى موقف الكتب الأولى من العهد القديم، وإلى مذهب الانقضاض على العمالقة منه ، إلى مواقف الأنبياء والأناجيل. لم يوجّه المسلمون بإدارة الخدّ الآخر، **ولا هم بالذين يُحتمَل أن تتحوّل سيوفهم إلى سكك محراث، ورماحهم مناجلاً (اشعيا 2: 4).** لم

تُمنع هذه النصائح المسيحيين من شَنّ سلسلة من الحروب الدموية في البلدان المسيحية، وحروباً عدوانية خارجية.

تثير هذه المسألة موضوعاً واسعاً عن موقف الدين من القُوّة والعنف، بدقة أكثر، من الإرهاب، تزرع أتباع ديانات عدة، بين الحين والحين لممارسة القتل سواء بالمفرد أو بالجملة. دخلت الإنكليزية كلمتان منحدرتان من حركات دينية شرقية كهذه، thug من الهند وassassin من الشرق الأوسط، وكلتاهما تُذكّر بطوائف دينية متعصّبة، كان من مقتضيات العبادة، فيها قتل من تعدّه عدواً لعقيدتها.

ظهرت ممارسة الاغتيال، ثم نظريته في العالم الإسلامي منذ وقت مبكر جداً، إثر الاختلافات، بصدد القيادة السياسية للمجتمع الإسلامي. من أول أربعة خلفاء مسلمين، قتل ثلاثة. قَتَلَ الخليفةَ الثاني عبدٌ مسيحيّ ناقمٌ، وَقَتَلَ الخليفتين الثالث والرابع مسلمان مؤمنان متمرّدان، وجدا في نفسيهما مُنفّذين لإرادة الله. طُرح السؤال على نحو حادّ منذ عام 656م إثر قتل متمرّدين مسلمين الخليفة الثالث، عثمان. وانطلقت أول حرب أهلية في سلسلة من هذه الحروب، بصدد السؤال عمّا إذا كان القَتَلَة ينفذون أمر الله، أم يتحدّونه. الشريعة الإسلامية والسّنّة واضحتان تماماً في وجوب طاعة الحاكم المسلم. ولكنْ؛ نُسب إلى النبي ﷺ كذلك قولان: "لا طاعة في منكر"، و"لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق". إذا أمر الحاكم بما يناقض شريعة الله، حلّ واجب عدم الطاعة محلّ واجب الطاعة. لم تكن فكرة قتل الطاغية - إزالة الطاغية إزالة مشروعة - من المستحدثات الإسلامية، وإنما هي فكرة قديمة مألوفة لدى اليهود والإغريق والرومان على السواء. وغالباً ما كان ينادي بمَن يؤدّيها بطلاً.

يبدو أن عدداً من أعضاء الفرقة الإسلامية المعروفة بالحشّاشين (من مفردة حشيشة العربية) قد نشط في إيران، ثم في سوريا، من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر، حوّلوا الفعل الذي سُمّي باسمهم إلى نظام وأيديولوجيا. توجّهت جهودهم أساساً، بعكس ما يذهب إليه المعتقد الشعبي، لا إلى الصليبيين، بل إلى الحكّام المسلمين الذين عدّوهم مغتصبي عروش فَسَقَة. الحشّاشون - بهذا المعنى - الأسلاف الحقيقيون

للكثير ممّن تُطلق عليهم - اليوم - تسمية الإرهابيين، وبعضهم يزيد من وضوح هذه المسألة. أطلق المسلمون المعادون لهذه الفرقة اسم الحشيشة، وما يرتبط به من إيحاء "تعاطي الحشيش" على هذه الفرقة. أمّا هم؛ فيسمّون أنفسهم فدائيين، من المفردة العربية فدائي - وهو الفرد المستعدّ للتضحية بنفسه من أجل قضية.

بعد هزيمة الحشّاشين، والقضاء عليهم في القرن الثالث عشر، لم يعد المصطلح مستعملاً. ثم أحييت استعماله لبرهة وجيزة في أواسط القرن التاسع عشر مجموعة صغيرة من المتآمرين الأتراك الذين خطّطوا لخلع السلطان، وربما اغتياله. اكتُشفت الخطة، وسُجن المتآمرون. ظهر المصطلح مجدّداً في إيران، في ما يُدعى فدائي بأن إسلام - أي فدائيو الإسلام، وهي جماعة إرهابية دينية سياسية، ظهرت في طهران، ونفّذت بين عام 1943؛ حيث بدأت نشاطاتها، وعام 1955 حيث قمعت، عدداً من الاغتيالات السياسية. بعد محاولة اغتيال رئيس الوزراء التي لم يحالفها الحظ في تشرين الأول 1955، اعتُقلوا، وعُذّبوا، وأُعدم قائدهم. ثم أعاد الجناح العسكري لمنظمة التحرير الفلسطينية الحياة للمصطلح مجدداً منذ الستينيات، فلاحقاً، لوصف الفعاليات الإرهابية للمنظمات الفلسطينية.

يختلف الحشّاشون عن أخلافهم الحاليين اختلافاً واضحاً في مسألتين: اختيار الأسلحة، واختيار الضحايا. كان الضحية - على الدوام - فرداً، قائداً سياسياً، أو عسكرياً، أو دينياً رفيع المستوى، يُعدّ مصدراً للشرّ. فيُقتَل. يُقتَل وحده. لم يكن هذا الفعل إرهاباً بالمعنى الذي يشير إليه المصطلح اليوم، بل هو ما نسمّيه - اليوم - الاغتيال المهدّف. أمّا السلاح؛ فكان نفسه دائماً: الخنجر. يرتفع الحشّاشون عن السمّ، أو النشّابة، أو سواهما من الأسلحة التي يمكن استعمالها عن بُعد. ولم يكن الحشّاش يأمل - ولعله كان يتمنى كما يبدو - ألاّ ينجو بفعلته التي كان يعتقد أنها تضمن له نعيماً أبدياً. لكنه ما كان ينتحر في أي ظرف. كان يموت بأيدي آسريه. وأخيراً؛ هَزَمَت الحشّاشين حملاتٌ عسكرية، دكّت معاقلهم وقواعدهم في كل من إيران وسوريا، البلدان اللذان كانوا ينشطون فيهما أساساً. ربما أمكنت - بالمثل - هزيمة حشّاش اليوم، غير أن هذا طريقاً

طويلة ووعرة. كان حشّاشو القرون الوسطى فرقة مُتطرّفة بعيدة جدّاً عن تيار الإسلام الرئيس. لا ينطبق هذا على مقلّديهم اليوم.

حمل القرن العشرون التجديد لمثل هذه الفعاليات في الشرق الأوسط، ولو اختلفت نوعاً وغرضاً، ومرّ الإرهاب بمراحل عدّة. واجهت الإمبراطورية الإنكليزية، الإمبريالية البريطانية خلال السنوات الأخيرة حركات إرهابية في توابعها في الشرق الأوسط، تمثلت ثلاث ثقافات مختلفة: اليونان في قبرص، واليهود في فلسطين، والعرب في عدن. نشطت هذه الثلاث جميعاً لحوافز قومية، لا دينية. وعلى الرغم من الاختلاف الكبير في خلفيات هذه الفئات الثلاث، وظروفها السياسية، فقد تشابهت تكتيكاتها إلى حدّ كبير. كان غرضهم إقناع القُوّة الإمبريالية بأن بقاءها في المنطقة، لا يستحقّ ما تدفعه من دماء ثمناً له. وكانت طريقتهم مهاجمة الشخصيات والمؤسّسات العسكرية، وأقلّ منها، الإدارية. عملت الفئات الثلاث في مناطقها، حسب، وتجنّبت - عموماً - الأضرار الجانبية، ونجحت ثلاثتها جميعاً في مساعيها.

ليس قتل الأبرياء والمدنيين غير المعنيين "أضراراً جانبية"، بالنسبة لإرهابيي الأسلوب الجديد. "الأضرار الجانبية" هي الهدف الأساس. ولابد للهجوم المضادّ على الإرهابيين - الذين لا يرتدون - بطبيعة الحال - زيّاً موحّداً - من أن ينال المدنيين كذلك. يفيد عدم الوضوح بسبب طبيعة موقف الإرهابيين ومَن يتعاطف معهم فائدة كبيرة.

بفضل التطور السريع لوسائل الإعلام، لاسيما التلفيزيون، لم تعد أشكال الإرهابيين الحديثة تستهدف أعداء محدّدين، بل الرأي العالمي. لم يعد هدف الإرهابيين الأساس هزيمة العدوّ، بل حتّى إضعافه عسكرياً، وإنما إشاعة الرعب - نصر نفسي - مارست عدة مجموعات أوروبية هذا النوع نفسه من الإرهاب، سيما في ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا وأيرلندا. كانت منظمة التحرير الفلسطينية من بين الأكثر نجاحاً، والأكثر ثباتاً في هذه الممارسة.

تأسّست منظمة التحرير الفلسطينية 1964، وباتت أكثر أهمية عام 1967 بعد هزيمة الجيوش العربية المشتركة في حرب الأيام الستة. أخفقت الحرب النظامية، آن أوان تجريب طرق أخرى. لم تكن أهداف هذا النوع من الصراع المسلح مؤسّسات عسكرية أو حكومية أخرى، وهي عادة ما تكون حسنة الحراسة، بل بالأمكنة العامة والتجمّعات من أيّ شكل كانت، وهي مدينة في الأغلب، وليس لضحاياها - بالضرورة - علاقة ما بالعدوّ المعلن. تشمل الأمثلة على هذا التكتيك: اختطاف ثلاث طائرات في السبعينيات - سويسرية وبريطانية وأمريكية - جرى اقتيادها جميعاً إلى عمان، مقتل رياضيين إسرائيليين في مباريات ميونخ 1972، احتلال السفارة السعودية في الخرطوم 1973، ومقتل أمريكيين ودبلوماسي بلجيكي، الاستيلاء على السفينة الإيطالية الطوافة أخيل لارو 1985، ومقتل مسافر معوّق. وُجّهت هجمات أخرى على المدارس ومراكز التسوّق والمراقص، بل وعلى مسافرين منتظرين في الطابور في مطارات أوروبية. كانت عمليات منظمة التحرير الفلسطينية هذه وسواها ناجحة نجاحاً ملحوظاً في تحقيق أهدافها المباشرة - الاستيلاء على العناوين الرئيسة في الصحف وشاشات التلفاز.

كما أنها انتزعت دعماً كبيراً من أماكن غير متوقّعة أحياناً، ورفعت مستوى إجرامهم إلى أدوار النجومية في دراما العلاقات الدولية. شجّع اليسير من الإعجاب الآخرين على اقتفاء مثالهم. أوضح إرهابيو السبعينيات والثمانينيات العرب أنهم يشنّون حرباً في سبيل قضية قومية عربية، أو فلسطينية، لا من أجل الإسلام. ممّا له مغزى في الحقيقة أن نسبة من قادة منظمة التحرير الفلسطينية وناشطيها مسيحيون.

لم تحقّق منظمة التحرير الفلسطينية نتائج مهمّة في فلسطين، على الرغم من النجاح الإعلامي الذي أحرزتْه. حقّق القوميون في كل بلاد العرب، عدا فلسطين - أهدافهم: هزيمة الحكّام الأجانب، ورحيلهم، وتأسيس حكم وطني، يقوده قادة وطنيّون.

استُخدم مصطلحا الحرية والاستقلال، لبرهة من الزمن، بصفتهما مصطلحين مترادفين متبادلين. غير أن تجربة الاستقلال المبكرة كشفت عن أنه كان خطأً مؤسفاً.

الحرية والاستقلال مختلفان أشدّ الاختلاف، وما أكثر ما كان تحقيق أحدهما يعني نهاية الآخر، واستخدم حكّام أجانب وطلقين بطغاة محلّيين أكثر مهارة وحميمية، وعدم تقيّد بطغيانهم.

كانت ثمة حاجة عاجلة ومتزايدة لتفسير الخطأ الذي كان، واستراتيجية جديدة لتصحيحه. في الهوية الدينية، يتوافر كلا الأمرين. ليس هذا بخيار جديد. في النصف الأول من القرن التاسع عشر، حين كانت الإمبراطوريات الأوروبية تتقدم نحو عدة بقاع إسلامية، كانت المشاعر والهوية الدينية تؤجّج أهم مقاومة لتقدّمهم. واجه الفرنسيون في الجزائر والروس في القفقاس والإنكليز في الهند، واجهوا جميعاً انتفاضات دينية كبرى، لم يتغلبوا عليها إلاّ بعد معارك طويلة ضارية.

بدأت مرحلة جديدة من تعبئة الإسلامية بالحركة المعروفة في اللغات الغربية بأنها pan- Islamism: عموم الإسلام. انطلقت هذه الحركة في ستينيات القرن التاسع عشر، وسبعينياته، لذا؛ يُحتمل أنها تدين بشيء ما للمثالين الألماني والإيطالي في كفاحهما المؤزّر لتحقيق وحدتيهما القومية آنئذٍ. لابدّ أن معاصريهم من المسلمين والمقلّدين لهم، قد عرّفوا أنفسهم، وحدّدوا أهدافهم بمصطلحات دينية وطائفية، لا بمصطلحات قومية، أو وطنية، كانت ما تزال - يومئذٍ - غريبة غير مألوفة. ولكنْ؛ بانتشار النفوذ والتعليم الأوروبيين، نمت لهذه الأفكار جذور، وهيمنت - لزمن ما - على الخطاب والنضال في بلاد المسلمين. ومع ذلك، فإن الحسّ بالهوية والولاء الديني كان ما يزال عميقاً، وعبّرا عن نفسيهما ببضع حركات دينية، لاسيما الأخوان المسلمين. واكتسبت - بإخفاق الأيديولوجيات العَلمانية المجلجل - أهمية جديدة، واستولت على المنازلة والقتال - وعلى العديد من المقاتلين - من القوميين المخفقين.

إن مختلف المسائل الإقليمية - بالنسبة للأصوليين، كما هي بالنسبة للقوميين - مسائل مهمة، ولكنْ؛ بصورة مختلفة أكثر صعوبة وتعقيداً. فلدى الأصوليين عموماً - على سبيل المثال - ما من سلام، أو تسوية ممكنة مع إسرائيل، وما التنازل عن شيء ما سوى

خطوة باتجاه الحلّ النهائي الحقيقي - حلّ دولة إسرائيل، وعودة فلسطين إلى أصحابها الحقيقيين، المسلمين الفلسطينيين، وإجلاء الدخلاء. ومع ذلك، فإن هذا لا يُرضي مطالب الأصوليين التي تمتدّ إلى الأراضي المتنازع عليها كافة - ولن يكون حتّى الحصول عليها سوى خطوة باتجاه المنازلة النهائية الطويلة.

حوفظ على الكثير من التكتيك القديم، ولكنْ؛ بحيوية أكثر بكثير. تبنّى الإرهابيون الدينيون المناهج التي رادها قوميّو القرن العشرين، في الهزيمة، أو النصر، وطوّروها، لاسيّما عدم الاهتمام بقتل الأبرياء وعابري السبيل. بلغ عدم المبالاة مستوى جديداً في حملات الإرهاب التي شنّها أسامة بن لادن في أوائل التسعينيات. كان أول مثال كبير قصف سفارتين أمريكيتين في شرق أفريقيا. قتل الإرهابيون ما يزيد على مئتي أفريقي، الكثير منهم مسلمون، تصادف وجودهم في المكان، لكي يقتلوا اثني عشر دبلوماسياً أمريكياً. في أول عدد لها بعد هذه الهجمات مباشرةً، عبّرت مجلة أصولية، تُدعى الصراط المستقيم، وتصدر في بيتسبرغ ببنسلفانيا عن "حدادها" على الشهداء الذين قدّموا أرواحهم في هذه العمليات، وأوردت أسماءهم، كما أعدّها مكتب القاعدة في بيشاور. أضاف الكاتب عبارة أمل "نسأل اللـه أن يجمعنا بهم في الجنة". خلف أحداث نيويورك وواشنطن في 11أيلول 2001 اللامبالاة في حياة الإنسان ذاتها، بدرجة أوسع كثيراً.

من الشخصيات المهمة في هذه العمليات الإرهابي الانتحاري. كان هذا - بمعنى ما - تطوراً جديداً. كان إرهابيّو الستينيات والسبعينيات القوميون يتجنبون الموت مع ضحاياهم عموماً، ويرتّبون شن الهجمات من مسافات آمنة. فإنْ أُلقي عليهم القبض لسوء الحظ، حاولت منظماتهم - عادةً، وبنجاح أحياناً - إطلاق سراحهم بالقبض على رهائن، والتهديد بإيذائهم، أو قتلهم. ترفّع القَتَلَة الأقدم المحفّزون دينياً، لاسيّما الحشّاشون، عن الحياة بعد عملياتهم، لكنهم ما كانوا يقتلون أنفسهم فعلاً. يمكن قول الأمر ذاته عن المجنّدين الإيرانيين الصبيان في حرب 1980- 1988 على العراق، الذين مشوا في حقول الألغام غير مسلّحين إلاّ بجوازات السفر إلى الجنة، ليخلوا الطريق للقطعات النظامية.

يبدو أن المنظمات الدينية كحماس وحزب الله التي نفّذت عدداً من المهمات الانتحارية منذ 1982 فصاعداً في لبنان وإسرائيل هي التي أرادت هذا النوع الجديد من المهمات الانتحارية، بالمعنى الضيّق للكلمة، واستمروا خلال الثمانينيات والتسعينيات، وتردّدت أصداؤهم في أماكن أخرى، في شرق تركيا ومصر والهند وسري لانكا. ويبدو من المعلومات المتوفرة أن المرشّحين المختارين لهذه المهمة كانوا - مع استثناءات أحياناً - ذكوراً وشباباً وفقراء، من مخيمات لاجئين عادةً. وتُقدّم لها مكافأة مزدوجة - فلهم في الآخرة نعيم الجنة الموصوف بدقّة، وفي الدنيا، هبات ونفقات لأسرهم. من مستحدثات الإرهابيين المهمة استخدام الأكراد في تركيا 1996- 1999 والفلسطينيون منذ كانون الثاني 2002 الانتحاريات الإناث.

يموت الإرهابي الانتحاري بيديه، عكس مقاتل القرون الوسطى المُقدّس أو الحشّاش الذي يرغب بمواجهة موت محقّق على أيدي أعدائه، أو آسريه. يطرح هذا الأمر سؤالاً مهماً على التعاليم الإسلامية. كتب الشريعة واضحة جدّاً بصدد الانتحار، فهو من الكبائر، وعقوبته اللعنة الأبدية، بتكرار الفعل الذي قتل المنتحر نفسه به إلى الأبد. يوضح المقطع الأتي من الأحاديث النبوية هذه المسألة بجلاء:

قال النبي ﷺ: "مَن قتل نفسه بنصل، عُذِّب به في نار جهنم".

وقال النبي ﷺ: "مَن شنق نفسه، يشنق نفسه في جهنم، ومَن يطعن نفسه، يطعن نفسه في جهنم .... ومَن يلقي نفسه من جبل، فيزهقها، يلقي بنفسه إلى درك نيران جهنم إلى أبد الآبدين. ومَن يشرب سماً؛ ليقتل نفسه، يحمل السمّ بيده في جهنم إلى أبد الآبدين.... كان مَن قتل نفسه بأي طريقة يُعذّب بها في جهنم ... مَن قتل نفسه بأي وسيلة في الدنيا، عُذِّب بها يوم البعث"[2].

ميّزت المرجعيات المبكرة تمييزاً واضحاً بين مواجهة موت محقّق على أيدي الأعداء وموت المرء بيديه.

يقدّم حديث مبكر جدّاً من النوع المعروف بالحديث القدسي، يذكر رؤية النبي (ص) الذات الإلهية، مثالاً صادماً. كان الرجل موجوداً حين جُرح الرجل جرحاً مميتاً في حرب مُقدّسة، فقتل نفسه؛ ليضع حداً لألمه. عندئذٍ قال الله "تقدّمني عبدي، فأخذ روحه بيده، لذلك لن يدخل الجنة". واستناداً إلى سُنّة مبكرة أخرى، رفض النبي (ص) الصلاة على جثة رجل، كان قد مات بيده[3].

تميّز هجمات 11أيلول وأشباهها من أفعال سمتان: إرادة مرتكبيها مقارنة الانتحار، وعدم رأفة مَن أرسلهم، لا على مبعوثيهم، ولا على ضحاياهم الكثيرين. هل يمكن تبرير هذه الأمور بأي معنى بمصطلحات الإسلام؟ يجب أن يكون الجواب واضحاً: لا.

ليس لإبادة الآلاف المؤلمة في المركز التجاري العالمي، والكثيرون منهم ليسوا أمريكان. وبعضهم مسلمين من بلدان إسلامية تبرير في العقيدة أو الشريعة الإسلامية، ولا سابقة لهذه الإبادة في التاريخ الإسلامي. ثمة في الحقيقة أفعال قليلة، فيها من الإهمال، وعدم التمييز الشرير في تاريخ الإنسانية، ما يمكن مقارنته. هذه ليست محض جرائم ضدّ الإنسانية والحضارة، بل هي كذلك - من وجهة نظر إسلامية - كفر، لأن مرتكبيها يدّعون أنهم يفعلون ما يفعلون باسم الله وكتبه ورسله.

كانت ردة فعل الكثيرين من العرب والمسلمين على الهجوم على المركز التجاري العالمي صدمةً ورعباً من الدمار والمجزرة الرهيبين، إلى جانب الخجل والغضب من أن ذلك كان يجري باسمهم واسم دينهم. كانت هذه ردة فعل الكثيرين - لا الكل. كانت ثمة تقارير، بل حتّى صور، لاحتفالات في الشوارع لمدن عربية وأخرى إسلامية بمناسبة أخبار نيويورك. أمّا في أوروبا؛ فكانت ردة الفعل - جزئياً - التشفّي بصمت - العاطفة التي كانت واسعة الانتشار. وكان ثمة شعور بالرضا بين الفقراء والمعدمين - كانت فرحة حقيقية لبعضهم، أن يروا الأمريكان الأغنياء المعتدّين بأنفسهم، وقد لقّنوا درساً.

وكانت ردة الفعل في الصحافة العربية على مجزرتي نيويورك وواشنطن موازنة صعبة بين الإنكار والإقرار. أشبه بردة فعلهم على الإبادة البشرية[4]. ترددت في الإعلام الغربي ثلاثة مواقف من الإبادة: أنها لم تحدث أصلاً؛ أنها مبالغ بها جداً؛ أن اليهود يستحقّونها، في كل الأحوال. بالنسبة للنقطة الأخيرة، أضاف بعض الكتّاب الأكثر مغامرةً تأنيباً لهتلر؛ لأنه لم يتمّم عمله. لم يؤكّد - حتّى الآن - أن دمار مركز التجارة العالمي لم يقع، ولو أن هذا لن يكون بعيداً عن قدرة منظّري التآمر، بمرور الوقت. الاتجاه الحالي بين الكثير من المعلّقين المسلمين، لا كلهم، هو الجدل في أنه لا يمكن أن يكون المسلمون أو العرب قد فعلوا ذلك. قدّموا بدلاً من هذا تفسيرات أخرى. شملت هذه التفسيرات متنفّذين عسكريين أمريكان بيض، مع الإشارة - بالطبع - إلى أوكلاهوما وبتموثي ماك فيغ؛ معارضي العولمة؛ معارضي مشروع درع الدفاع الصاروخي الأوروبيين والصينيين وسواهم؛ الروس لتقسيم الاتحاد السوفيتي؛ اليابان، في انتقام مُتأخّر لهيروشيما؛ وما شابه. بل إن أحد الصحفيين افترض أن الهجوم من تنظيم الرئيس بوش؛ لتشتيت الانتباه عن انتخابه "بأغلبية طفيفة جدّاً، لا تكفي لانتخاب عمدة قرية في صعيد مصر". كما يورّط هذا الكاتب كولن باول، بصفته شريكاً للرئيس بوش.

نسبت أكثر التفسيرات الشعبية الجريمة - مع شيء من التفاوت البسيط - إلى مَن تفضّله من الحقراء - إلى إسرائيل، إلى الموساد (بالاشتراك مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، كما ذهب البعض)، إلى كبار الصهاينة، أو الأسهل والأكثر إقناعاً، إلى "اليهود". يمكّنهم ذلك من الإعجاب بالهجمات، وإنكار شرعيتهم في آن. الحافز الذي نُسب إلى اليهود هو لإظهار العرب، وبصورة أعم: المسلمون بصورة سيئة، وزرع الخلاف بينهم وبين الأمريكان. أضاف صحفي أردني موضوعة أخرى ممتعة - أن "المنظمات الصهيونية" أقدمت على الهجوم؛ لتستطيع إسرائيل هدم المسجد الأقصى، بينما تتجه أنظار العالم إلى أمريكا. لا يمنع هذا النوع من التفسير الرؤية التي اطّرد تداولها، بل بالعكس، يشجّعها، وهي أن ما حصل، مع إنه إجرامي، فإنه جزاء عادل للجرائم الأمريكية. ربما

جـاءت ردة الفعـل الأكـثر دراميـة - ووضـوحاً - مـن مجلـة حـماس الأسـبوعية، الرسـالة، التي تصدر في غزة في عدد 13 أيلول 2001 "لقد استجاب اللـه دعاءنا".

إذ بات هول العملية معروفاً أكثر، أراد بعض الكتّاب التعبير عـن تنديـده بمرتكبيهـا، والإشفاق على الضحايا. لكنْ؛ حتّى هؤلاء، لم تفتهم فرصة الإشارة إلى أن الأمريكان هم الـذين جلبوا ذلك لأنفسهم. إن قائمة الاعتداءات الأمريكية التي استشهدوا بها طويلة ومفصّلة، تبـدأ بفتح العالم الجديد، فاستعماره، ثم استيطانه - كلمات عاطفية - وتستمر حتّى اليوم الحاضر، كما تطول قائمة الضحايا الذين سقطوا ضحية الجشع الأمريكي، وعدم رحمته في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

أوضح أسامة بن لادن كيفية مهمة الصراع بتكرار التعريف بعدوّه، بصفة "الصـليبيين". لنا أن نستذكر أن الصليبيين ما كـانوا أمريكانـاً، ولا يهـوداً، كـانوا مسـيحيين، يخوضـون حربـاً مُقدّسة؛ ليستردوا أماكن المسيحية المُقدّسة التي ضاعت مـنهم. نشرت "رسـالة إلى أمريكـا" في تشرين الثاني 2002[5] ونُسبت إلى أسامة بن لادن. تعدّد - بشيء من التفصيل - شتّى الجـرائم التي لم ترتكبها حكومة الولايات المتحدة، حسب، بل والشعب الأمريكي، ثم تمضي قدماً، تحت سبعة عنـاوين، "إلى مـاذا نـدعوكم؟ ومـاذا نريـد مـنكم؟". الأول هـو اعتنـاق الإسـلام؛ الثـاني "التوقّف عن قمعكم وأكاذيبكم ولا أخلاقياتكم وانغماسكم في الملذات"؛ الثالـث الاعـتراف أن أمريكا "أمة بلا مبادئ أو عادات حميدة"، وتقبّل ذلك. الرابع، التوقف عـن دعـم إسرائيـل في فلسطين؛ والهنود في كشمير، والروس ضدّ الشيشان، وحكومة مانيلا ضدّ المسـلمين في جنـوبي الفلبين؛ الخامس، "أن تحزموا حقائبكم، وتغادروا بلادنا". وهذا الأمر يقدَّم كنصـيحة لأمريكـا، "لئلاّ تضطرّنا إلى شحنكم في توابيت"؛ السادس "أن تكفوا عن دعم القادة الفاسدين في بلادنـا. ولا تتدخّلوا في سياساتنا ومناهج التعليم. دعونـا وشـأننا، أو توقّعونـا في نيويـورك وواشـنطن؛ السابع، التعامل مع المسلمين والتفاعل معهم على أساس المصـالح والفوائـد المتبادلـة، لا عـلى أساس سياسات الإلحاق والسرقة والاحتلال". وتنتهي الوثيقة بإخبار الأمريكان أنهم إذا رفضوا

هذه النصيحة سيُهزمون مثل كل الصليبيين السابقين، و"أن مصيرهم سيكون مصير السوفييت الذين هربوا من أفغانستان؛ ليتعاملوا مع هزيمتهم العسكرية، وتفكّكهم السياسي، وسقوطهم الأيديولوجي، وإفلاسهم الاقتصادي".

القضية التي ترفعها هذه الوثيقة ضدّ أمريكا مفصّلة جدّاً، تضمّ - إلى جانب القائمة المألوفة من الشكاوى المحددة - طيفاً من الاتهامات العامة والخاصة. اتهامات من مناطق شتّى، يمكن - في العادة - التعرّف عليها، وتعكس أيديولوجيات متوالية، أثرّت - في أوقات - في سياسيي الشرق الأوسط، وسياساته. يعود بعضها إلى الحقبة النازية؛ كالانحلال والهيمنة اليهودية الكلية؛ وأخرى من حقبة التأثير السوفيتي، كالجشع والاستغلال الرأسمالي. والكثير منها من أصول أوروبية، بل وأمريكية حديثة، وقد جاءت من اليسار، ومن اليمين، على حدّ سواء. وأتت على ذكْر التلوث العالمي، ورفض التوقيع على اتفاقات كيوتو؛ والفساد السياسي، من خلال حملات التمويل، وأفضلية "العِرْق الأبيض"، ومن اليمين، النازية الجديدة، وخرافة تفوّق العِرق الأبيض، وتحذير بنيامين فرانكلين من الخطر اليهودي. يجري التأكيد في كل هذه الاعتداءات - تقريباً - على دور اليهود الشرّير فيها.

حتّى مزايا منهج الحياة الأمريكية الناجحة تصبح جرائم وآثاماً. فتحرير النساء يعني فسوقاً واستخداماً تجارياً لهن، وكأنهن "سلع استهلاكية". أمّا الانتخابات الحرة؛ فتعني أن الشعب الأمريكي يختار حكّامه بحريّة، لذلك يجب أن يكون أولئك الحكّام عرضة للحساب والعقاب على السيّئ من أفعالهم ـ ليس ثمة "مدنيين أبرياء". والأسوأ من ذلك، الفصل ما بين الكنيسة والدولة: "أنتم أمة اختارت، بدلاً من الحكم بشريعة الله ودستوره وقوانينه، اصطناع قوانينها كما تشاء وترغب، إنكم تفصلون الدين عن السياسة، مناقضين الفطرة السليمة التي تؤكد على أن السلطة المطلقة لله خالقكم". باختصار، أنتم أسوأ حضارة شهدها تاريخ البشرية"، يأتي هذا الحكم الأكثر أهمية في وقت ما زالت فيه ذكريات الدكتاتوريين النازية والسوفيتية حية - فضلاً عن حالات طغيان أقدم، تذكرها كتب التاريخ، وكثيراً ما يستشهد بها أسامة بن لادن وشركاؤه.

السبب الرئيس هو أن أمريكا تُعدّ - الآن - قائد ما يوصف بشتّى الطرق على أنه الغرب، العالم المسيحي، أو بصفة أعم، "بلاد غير المؤمنين". الرئيس الأمريكي - بهذا المعنى - وريث قائمة طويلة من الحكّام - الأباطرة البيزنطيين في استانبول، أباطرة الروم المُقدّسين في فينا، الملكة فكتوريا وزملائها وَوَرَثَتِها الإمبرياليين في أوروبا. يُعدّ عالم غير المؤمنين المسيحي - اليوم كما بالأمس - القُوّة الوحيدة التي تجابه القضاء الإلهي، بانتشار الإسلام، وتعرقله، تقاومه، وتؤخّره، لكنها لن تحول دون نصره النهائي المؤزّر الذي لابد منه.

لاشك في أن تأسيس القاعدة وتصريحات أسامة بن لادن المتوالية بالحرب قد أشّر بداية مرحلة، تنذر بالخطر في تاريخ الإسلام والإرهاب معاً. كانت الحوافز المثيرة لعمليات بن لادن، كما شرحها هو نفسه بوضوح شديد، الوجود الأمريكي في الجزيرة العربية إبان حرب الخليج - تدنيس أراضي المسلمين المُقدّسة - واستخدام الأمريكان العربية السعودية قاعدة لهم في الهجوم على العراق. إنْ كانت الجزيرة العربية الموضع الأسمى رمزيةً في عالم المسلمين، فإن بغداد - مقرّ الخلافة لخمس قرون ومسرح بعض أكثر فصول التاريخ الإسلامي مجداً - هي الموضع الثاني.

ثمة عامل آخر، ربما أكثر أهمية، حفّز بن لادن. في الماضي، كان بمقدور المسلمين الذين يقاتلون الغرب الالتفات إلى أعداد الغرب التماساً للمواساة والتشجيع والعون المادي والعسكري. لم يعد اليوم - لأول مرة منذ قرون - وجود لأعداء مفيدين كهؤلاء. سرعان ما أدرك بن لادن وجماعته أنه إن كانت لديهم الرغبة بمنازلة أمريكا في ظل الوضع الجديد للقوى العالمية، فعليهم منازلتها بأنفسهم.

في عام 1991، السنة ذاتها التي لم يعد فيها للاتحاد السوفيتي وجود، أسّس بن لادن وجماعته القاعدةَ التي ضمّت الكثير من المتطوعين للحرب في أفغانستان. ربما بدت مهمتهم للآخرين مهولة، لكنهم رأوها على نحو آخر. كانوا - باعتقادهم - قد طردوا الروس من أفغانستان، بهزيمة كانت من القُوّة أنها أدت إلى انهيار الاتحاد السوفيتي فوراً.

وإذ تغلّبوا على القُوّة العظمى التي عدّوها دائماً على أنها القُوّة التي لا تُبارى، أحسّوا جاهزيتهم للنيل من الآخرين، وشجّعتهم على ذلك فكرة طالما عبّر عنها بن لادن بين الفينة والفينة، وهي أن أمريكا نمر من ورق.

ساقت معتقدات كهذه الإرهابيين المسلمين من ذي قبل. إحدى الوسائل المدهشة التي كشفتْها مذكرات الذين احتلوا السفارة الأمريكية في طهران من عام 1979 إلى 1981 هي أن هدفهم الأصل كان التمسك بالبناية والرهائن بضعة أيام، لا أكثر، لكنهم غيّروا رأيهم حين أوضحت تصريحات من واشنطن بأنه لم يكن ثمة خطر من عملية جادّة ضدّهم. وأخيراً أطلق المحتجزون سراح الرهائن، لا لشيء، كما أوضحوا، سوى خافوا أن سيعالج الرئيس المنتخب، رونالد ريغان، المسألة "ككابوي". من الواضح أنه ليس لدى بن لادن وأتباعه اهتماماً كهذا، وأن كراهيتهم لا هي بالتي يقيّدها الخوف، ولا هي بالتي يخفّفها الاحترام، ويستشهدون تكراراً - كما ذكرنا آنفاً - بالانسحابات الأمريكية من فيتنام ولبنان، والأهم من ذلك - برأيهم - من الصومال. وتكشف ملاحظات بن لادن، خصوصاً في مقابلة مع جون ملر من ABC نيوز في 28 مايس 1998:

لقد شهدنا في العقد الأخير انحلال الحكومة الأمريكية وضعف الجندي الأمريكي، المستعدّ لشنّ حروب باردة، وغير المعدّ لخوض حروب طويلة. ثبت هذا في بيروت، حين فرّت البحرية (المارينز) بعد انفجارين. كما يثبت ذلك أنهم يمكن أن يهربوا في أقل من أربع وعشرين ساعة، وتكرّر هذا في الصومال أيضاً... كان شبابنا مندهشين من تدنّي معنويات الجنود الأمريكان... بعد بضعة انفجارات، ركضوا هاربين... نسوا أنهم قاعدة العالم، وقادة النظام العالمي الجديد. رحلوا يجرّون جثث قتلاهم وهزيمتهم المخزية.

يؤشّر إعلان بن لادن الحرب على الولايات المتحدة - برأيه - استئناف الصراع للهيمنة الدينية على العالم التي بدأت في القرن السابع. وبرأيه ورأي أتباعه، فإن هذه اللحظة فرصة.

تمثّل أمريكا اليوم حضارة دار الحرب، وتجسّد قيادتها، وقد باتت - مثلها مثل روما وبيزنطا - منحلّة ومتفسّخة أخلاقياً، آيلة للسقوط، لكنها - على الرغم من ضعفها - خطيرة.

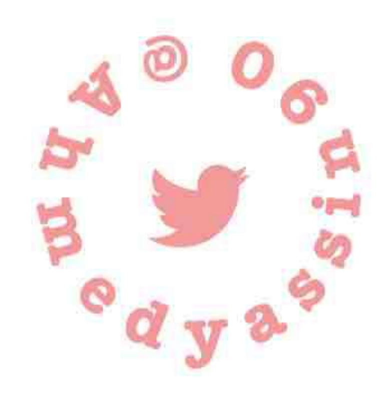
كان وصف خميني للولايات المتحدة بأنها "الشيطان الأكبر" يتحدث عن فجور منهج الحياة الذي يهدّد نوع الإسلام الذي يسعى خميني إلى فرضه على أصحابه من المسلمين أخطر تهديداً. أمّا بالنسبة إلى أعضاء القاعدة؛ "فالشيطان الأكبر" هو إغواء أمريكا، وتهتّكها.

لكن ثمة آخرين تمثل لهم أمريكا إغراء مختلفاً - الوعد بحقوق الإنسان، والمؤسّسات الحرة، وحكومة مسؤولة ممثلة للشعب. وثمة عدد متزايد من الأفراد، بل والحركات التي تعهدت المهمة المعقدة، بإقامة مؤسّسات كهذه في بلدانها. ليس ذلك باليسير. أدت محاولات مماثلة - كالتي أشرنا إليها - إلى العديد من أنظمة اليوم الفاسدة. من بين السبع والخمسين دولة الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي، لم تتولَّ إدارة مؤسّسات ديمقراطية لمدة طويلة من الزمن سوى واحدة، الجمهورية التركية، وعلى الرغم من الصعوبات والمشاكل المستمرة، استطاعت إحراز تقدّم في إقامة اقتصاد ليبرالي، ومجتمع وتنظيم سياسي حرّين.

ثمة معارضة ديمقراطية في بلدين؛ حيث يعارض النظامان أمريكا، قادرة على الاضطلاع بمهام حكومة وتشكيلها. بإمكاننا أن ندعوه فيما نحب بالعالم الحر، فعل الكثير لمساعدتهم، وتدفعنا القليل. في أغلب بلدان المنطقة الأخرى، ثمة مَن يشاركنا قِيمنا، ويتعاطف معنا، ويتمنى مشاركتنا منهاج حياتنا. إنهم يفهمون الحرية، ويريدون التمتع بها في بلادهم. مساعدة أولئك أصعب، ولكنْ؛ ينبغي - في الأقل - ألاّ نعرقلهم. إذا نجحوا، سنكون أصدقاء وحلفاء حقيقيين بمعنى الكلمة، لا دبلوماسياً، حسب.

في الأثناء، ثمة مشكلة عاجلة جدّاً. إذا تمكنت قادة القاعدة من إقناع العالم الإسلامي بقبول رأيهم وقيادتهم، فأمامنا صراع مرير طويل، لا بالنسبة لأمريكا حسب.

باتت أوروبا - بدقة أكبر، أوروبا الغربية - موطن أعدادٍ متزايد من الجالية الإسلامية، وبدأ الكثير من الأوروبيين يجد في وجودها مشكلة، بل يعدّها البعض تهديداً. ستصدم القاعدة والمجموعات ذات الصلة، عاجلاً أو آجلاً، مع جيران الإسلام الآخرين - روسيا والصين والهند - الذين ربما كانوا أقل التزاماً باستعمال قوتهم ضدّ المسلمين، وحرمانهم. إذا كان الأصوليون على حقّ في حساباتهم، وربحوا الحرب، فإن مستقبلاً مظلماً ينتظر العالم، سيما الجزء الذي يعتنق الإسلام.

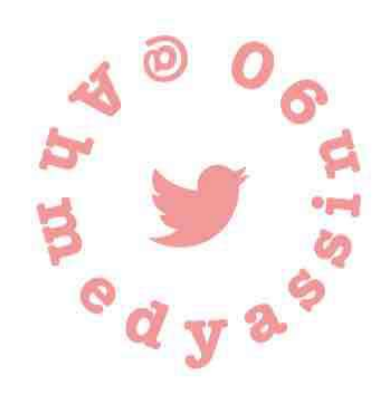


تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

كلمة أخيرة

كانت نواة هذا الكتاب مقالاً، نُشر في النيويوركر، في تشرين الثاني 2001. في تحديثه وتطويره من مقال مطوّل إلى كتاب قصير، أخذتُ مقاطعاً قليلة من منشورات سابقة، سيّما من مقالات، نُشرت في فورن أفيّر واتلانتك منثلي. أمّا البقية؛ فجديدة.

بقيت المهمة الممتعة، مهمّة مَن أعانني في إعداد هذا الكتاب، وإنتاجه. أشعر بامتنان خاص إلى المحرّر الذي لا ينثني ولا يقدّر بثمن، جون دي منيل، وإلى مساعدتي آنا ماري سيرمنارو، لدعمهما ومساعدتهما التي لم تفتر، وإلى صديقتي بونتزي تشرتشل لقراءتها النقدية مسودّاتي الأولى، ومقترحاتها لتحسينها. وإلى إيلي الشيتش، الطالب المتخرّج في برنستون الذي أعانني بشتّى الطرق في عملية البحث والإعداد. ظلَّ أن أي خطأ هو - بطبيعة الحال - خطئي أنا وحدي.



تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

الهوامش

المقدمة

1. ظهر أول هذه الأسماء قليلاً في أواخر العهد العثماني حين أُعيدت تسمية مقاطعة دمشق مجد،داً باسم سوريا "Syriye" وكانت حدودها مختلفة أشد الاختلاف عن حدود جمهورية ما بعد الحرب. واحتفظ العرب - لردح من الزمن - بالاسم الرومي - البيزنطي "فلسطين"، ولكنه نُسي في العهد الذي وصل فيه الصليبيون. ثم عاد من جديد بعد فرض الانتداب البريطاني عليها بعد الحرب العالمية الأولى. ولم يكن اسم ليبيا الروماني معروفاً، إلى أن جدّد الطليان استعماله.
2. ابن خلدون، المقدمة، تحرير إي. كاترميه "باريس 1858" ج1، ص237.

الفصل الثاني

1. هذه النصوص وسواها في الجهاد موجودة في صحاحات أحاديث النبي ﴿ ﷺ ﴾ وبعضها متوفّر في ترجمة إنكليزية كذلك. الأحاديث المذكورة آنفاً مستلّة من كنز العمال لعلاء الدين بن حسام الدين المتقي، ج8 "حيدر آباد، 1312هـ 1894- 1895" المجلد الثاني، ص252- 286.

1. ظهر أول هذه الأسماء قليلاً في أواخر العهد العثماني حين أُعيدت تسمية مقاطعة دمشق مجدداً باسم سوريا "Syriye" وكانت حدودها مختلفة أشد الاختلاف عن حدود جمهورية ما بعد الحرب. واحتفظ العرب لردح من الزمن بالاسم الرومي ـ البيزنطي "فلسطين" ولكنه نُسي في العهد الذي وصل فيه الصليبيون. ثم عاد من جديد بعد فرض الانتداب البريطاني عليها بعد الحرب العالمية الأولى. ولم يكن اسم ليبيا الروماني معروفاً إلى أن جدد

الطليان استعماله.

2. ابـن خلـدون، المقدمـة، تحريـر إي. كاترميـه "بـاريس 1858" ج1، ص237. (هـذه الجمل التي كبّرتُ خطها، ووضعت تحتها خط مكرّرة من الصفحة السابقة)

الفصل الثالث

1. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحرير سي جَي. تـورنبرغ، المجلـد الثـاني، سـنة 583 "ليـدن، 1853- 1864" ، ص354- 355.
2. مصطفى أفندي السلاينكي، تاريخ سالونيك، تحرير مُحمّد أبرشـلي، ط2، اسـتانبول 1999، ص334.
3. أدولف سليد، تركيا وحرب القرم: سرد للحوادث التاريخية (لندن 1867)، ص30- 32.
4. لترجمـة إنكليزيـة مـع شيء مـن التنقـيح، انظـر: سـتوك هيركرونيـه Verspreide Geschriften ج3، "ليدن 1923"، ص257 وما بعدها.
5. أنور السادات، البحث عن الـذات، "القـاهرة 1978" ص50- 86؛ الترجمـة الإنكليزيـة In Search for Identity, An Auto biography (نيويورك 1978) ص31 وما بعدها.

الفصل الرابع

1. مُحمّد بن عثمان المكناسي (سفير المغرب لـدى إسـبانيا 1779- 1788): الإكسـير في فكـاك الأسير، تحرير مُحمّد الفاسي (الرباط 1965) ص97. انظر - كذلك - آمي ايالون: اكتشـاف العرب أمريكا في القرن التاسع عشر: منشور في مجلة دراسات شرق أوسـطية، المجلـد 20 (تشرين الأول 1984)، ص5- 17.
2. أي. دي. مارشيه: سفير في استانبول، السياسة الشرقيـة للثـورة الفرنسـية (بـاريس 1927) المجلد الثاني، ص12- 15.
3. رفاعة رافع الطهطاوي: قلائد المفاخري غريب عوائد الأوائل والأواخر (بولاق 1933) ص1 وص41. أنظر كذلك: ايالون "اكتشاف العرب أمريكا" ص9.
4. سيد قطب، الإسلام ومستقبل الحضارة (بلا مكان نشر، 1967) ص80 وما بعدها. انظر - كذلك - جون كلفرت: العالم صبي غير مشكوك به: تجارب سيد قطب الأمريكية، في الإسلام والعلاقات

المسيحية - الإسلامية، 2 (آذار 2000) ص87 - 103. كما صنّف كتاباً، نُشر في العربية السعودية بعد وفاته بعنوان "معركتنا مع اليهود" (جدة 1970). يقول إنه - إلى جانب الصراع العربي المعروف ضدّ اليهود - ثمة الدور اليهودي الخبيث في محاربة الإسلام، وبصفة أشمل، محاربة القِيَم الدينية: "وراء الفكر المادي الكافر يهودي - [ماركس]، وراء الفهم الجنسي البهيمي يهودي - [فرويد]، وراء تحطم العائلة وانهيار العلاقات الاجتماعية المُقدّسة يهودي - [دوركهايم]. لم يسمِّ سيد قطب الثلاثة بأسمائهم، وإنما فعل ذلك ناشره الذي أضاف إليهم من باب الاحتياط رابعاً في الهامش - جون بول سارتر الذي عُدَّ يهودياً لهذا الغرض، بصفته مصدر إلهام لأدب التفسّخ والدمار. يبدو أن مصدر إلهام سيد قطب في هذا المقطع المناهض لليهود "تمييزاً عن مناهضة إسرائيل ومناهضة الصهيونية" كان أوروبياً أو أمريكياً.

الفصل الخامس

1. تجد هذه النصوص وسواها في: الإسلام والثورة: كتابات وتصريحات الإمام الخميني، ترجمة وتعليق حميد الغار "بيركلي 1981". أمّا ولاية الفقيه؛ فسلسلة محاضرات، ألقاها في النجف، المركز الشيعي في العراق، منفى الخميني، ثم نُشرت بالعربية والفارسية. لم تكن الثورة الإسلامية في إيران إثر ذلك أمراً مفاجئاً لمن قرأ هذا الكتاب.
2. عن هذه المعاهدة انظر: برنارد لويس "ملاحظات مستشرق على معاهدة السوفييت - الجمهورية العربية المتحدة في 27 مايس 1971" بحوث برنستون في دراسات الشرق الأدنى، العدد 2، (1993) ص57- 65.

الفصل السابع

1. تقرير تنمية الإنسان العربي 2002: خلق الفرص للأجيال القادمة. إعداد المكتب الإقليمي للدول العربية UNDP، الصندوق العربي للتنمية الاقتصادية والاجتماعية.

الفصل الثامن

1. أورد ألكسس فاسليف في "تاريخ العربية السعودية" لندن، 1998، ص265.
2. عبد السرم فرج، الجهاد: الفريضة الغائبة (عمان 1982). الترجمة الإنكليزية في جوهانزجَي. جي. جانسن: الفريضة المعطّلة: عقيدة مغتالي السادات والانبعاث الإسلامي في الشرق الأوسط (نيويورك 1986) ص159 وما بعدها.

الفصل التاسع

1. نُشر النص الكامل للفتوى في الصحف الإيرانية والعالمية، في ذلك الوقت.
2. هذه الأحاديث ونظائرها موجودة في مجموعات الحديث القياسية؛ كصحاح البخاري مثلاً، Recueil des Traditions Mahome'tanes، المجلد الأول، تحرير لودولف كريهل (ليدن 1862) ص363، المجلد الثاني (ليدن 1864) ص223 - 224، 373، المجلد الرابع، تحرير ث. و. جينبول (ليدن 1908)، ص71، 124، 243، 253 - 254، 364. للاطّلاع على المناقشة المستفيضة، انظر فرانز روزنتال "عن الانتحار في الإسلام" مجلة الجمعية الأمريكية الاستشراق، العدد 66 (1946) ص239 - 259.
3. ذكره ابن حنبل في المسند "القاهرة 1313، 1895 - 1896" المجلد الخامس، ص87.
4. للاطّلاع على هذه التقارير وسواها بصدد الإعلام العربي، انظر معهد أبحاث أعلام الشرق الأوسط، واشنطن العاصمة "www. Memri. Org.".
5. نُشر النص الكامل للرسالة، بالعربية والإنكليزية، على نطاق واسع، في شبكة المعلومات الدولية "الإنترنت"، في تشرين الثاني 2002. وبسبب من الاختلاف في الأسلوب والسمت، يُستبعد أن يكون أسامة بن لادن قد كتبها شخصياً.

الملحق 1

قائمة بعنوانات كتب برنارد لويس

- The Origins of Ismailism (1940)
- A Handbook of Diplomatic and Political Arabic (1947)
- *The Arabs in History* (1950)
- *The Emergence of Modern Turkey* (1961)
- Istanbul and the Civilizations of the Ottoman Empire (1963)
- *The Assassins: A Radical Sect in Islam* (1967)
- The Cambridge History of Islam (2 vols. 1970, revised 4 vols. 1978, editor with Peter Malcolm Holt and Ann K.S. Lambton)
- Islam: From the Prophet Muhammad to the capture of Constantinople (1974, editor)
- History — Remembered, Recovered, Invented (1975)
- Race and Color in Islam (1979)
- Christians and Jews in the Ottoman Empire: The Functioning of a Plural Society (1982, editor with Benjamin Braude)
- The Muslim Discovery of Europe (1982)
- *The Jews of Islam* (1984)
- Semites and Anti-Semites (1986)
- Islam from the Prophet Muhammad to the Capture of Constantinople (1987)
- The Political Language of Islam (1988)
- *Race and Slavery in the Middle East: an Historical Enquiry* (1990)
- *Islam and the West* (1993)
- *Islam in History* (1993)
- The Shaping of the Modern Middle East (1994)
- Cultures in Conflict (1994)

- The Middle East: A Brief History of the Last 2,000 Years (published in U.K. as The Middle East: 2,000 Years of History from the Rise of Christianity to the Present Day) (1995)
- The Future of the Middle East (1997)
- The Multiple Identities of the Middle East (1998)
- A Middle East Mosaic: Fragments of Life, Letters and History (2000)
- Music of a Distant Drum: Classical Arabic, Persian, Turkish, and Hebrew Poems (2001)
- The Muslim Discovery of Europe (2001)
- *What Went Wrong?: The Clash Between Islam and Modernity in the Middle East* (2002)
- *The Crisis of Islam: Holy War and Unholy Terror* (2003)
- *From Babel to Dragomans: Interpreting the Middle East* (2004)
- Islam: The Religion and the People (2008, with Buntzie Ellis Churchill)
- Faith and Power: Religion and Politics in the Middle East (2010) Oxford University Press. ISBN 978-0-19-514421-5
- The End of Modern History in the Middle East (2011) Hoover Institution Press.
- *Notes on a Century: Reflections of a Middle East Historian* (2012) ISBN 978-0-670-02353-0

الملحق 2

غلاف الكتاب الأصل



Copyrighted Material



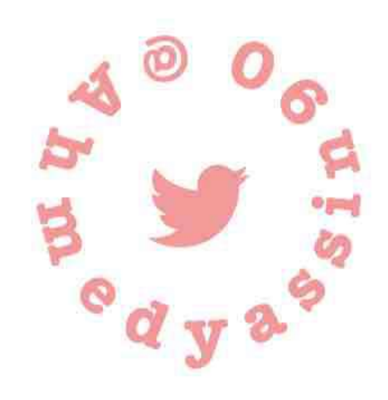
BERNARD LEWIS is the Cleveland E. Dodge Professor of Near Eastern Studies Emeritus at Princeton University and the author of *The Middle East: A Brief History of the Last 2,000 Years*, a National Book Critics Circle Award finalist; *The Emergence of Modern Turkey*; *The Arabs in History*; *Islam and the West*; and *What Went Wrong?: Western Impact and Middle Eastern Response*, among other books. His most recent work is *From Babel to Dragomans: Interpreting the Middle East*. Internationally recognized as one of our century's greatest historians of the Middle East, his books have been translated into over twenty languages, including Arabic, Persian, Turkish, and Indonesian. He won the George Polk Award for "The Revolt of Islam," an article that appeared in *The New Yorker* and was expanded into this book.

Copyrighted Material

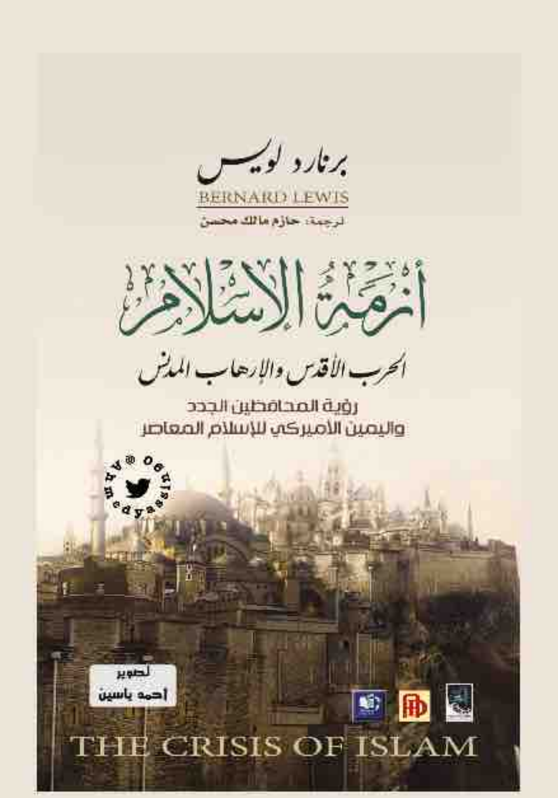
الملحق 3

بعض كتب برنارد لويس

	**What Went Wrong?:...** **by Bernard Lewis**
	The Middle East: A... by Bernard Lewis
	The End of Modern... by Bernard Lewis
	Notes on a Century:... by Bernard Lewis,...
	Islam: The Religion... by Bernard Ellis...
	The Assassins by Bernard Lewis



تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90


برنارد لويس
BERNARD LEWIS
ترجمة: حازم مالك محسن
أزمة الإسلام
الحرب الأقدس والإرهاب المدنس
رؤية المحافظين الجدد
واليمين الأميركي للإسلام المعاصر
تصوير
أحمد ياسين
THE CRISIS OF ISLAM